سائح روسي على دروب الرب

www.christianlib.com

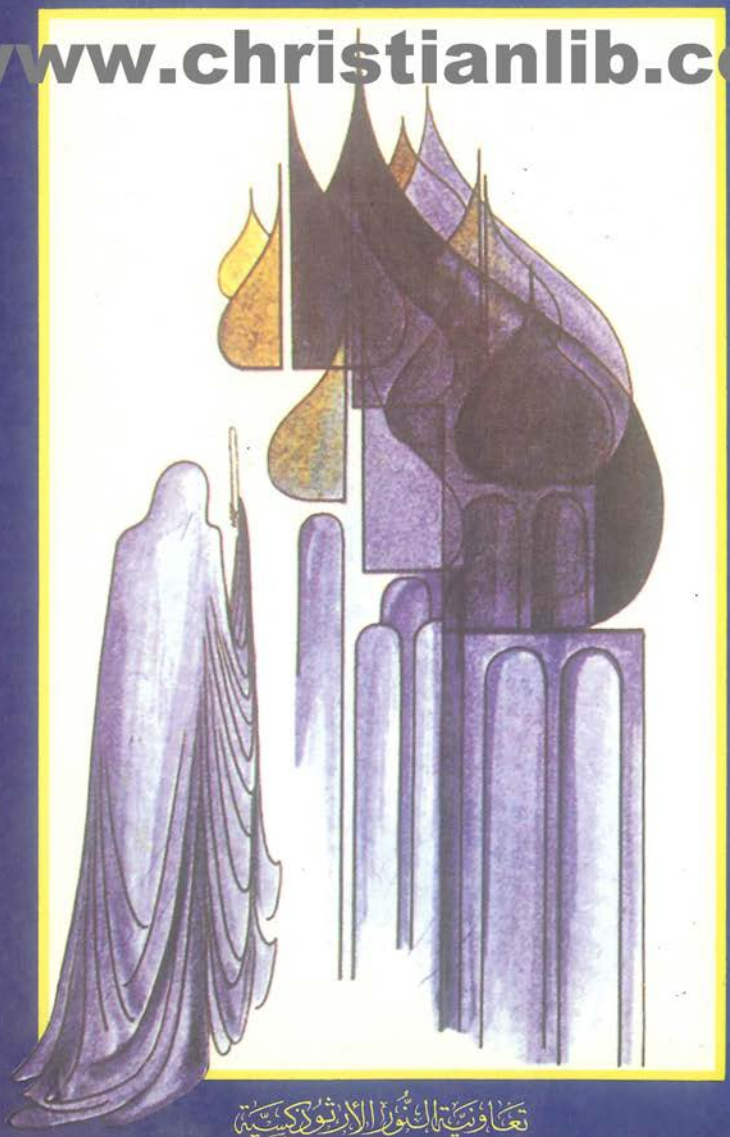

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع

صورة الغلاف للسيدة سليمى زود

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع
AN-NOUR COOP

سائح روسي على دروب الرب

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع

فهـرس

ص

مقدمـــة	٧
القصة الاولى	١٧
القصة الثانية	٣٣
القصة الثالثة	٨١
القصة الرابعة	٨٧
القصة الخامسة	١٢٧
القصة السادسة	١٦٩
القصة السابعة	٢٠٣

مقدمة

هذا الكتاب الذي نقدم لكم من الكتب الروحية المعروفة ، له منزلته ومكانته في الادب الديني الحديث .

ترجم الى لغات عديدة ، منها الانكليزية والفرنسية والالمانية ، وظهرت له عدة طبعات في اكثر من لغة .

يتألف هذا الكتاب من سبع قصص . الاربع الاولى منها عثر على اول مخطوطة لها العام ١٨٦٠ بين يدي راهبة روسية هي ابنة روحية للستارتس الروسي الشهير الاب امبروسيوس من دير اوبتينا . هذه القصص الاربع نشرت لأول مرة في روسيا ، وفي مدينة كازان بالذات ، حوالي العام ١٨٦٥ ، ثم نشرت ثانية العام ١٨٨٤ ، وتجاوزت الحدود الروسية بعد السنة ١٩٢٠ .

اما القصص الثلاث التالية فقد وجد نصها بين اوراق الاب امبروسيوس فنشرت في روسيا السنة ١٩١١ وفي تشيكوسلوفاكيا السنة ١٩٤٨ .

وقد جمعت القصص السبع لاول مرة السنة ١٩٤٨ في طبعة باللغة الروسية صدرت في باريس .

وكما اشرنا فالكتاب ترجم الى عدة لغات ومنها العربية حيث ترجم الاستاذ انطوان جرجي القصص الاربع الاولى السنة ١٩٦٤

عن الترجمة الفرنسية لجان غوفان .

والآن نضع بين ايديكم النص الكامل للكتاب منقولا الى العربية . وقد ابقينا على الترجمة السابقة للقصص الاربع الاولى واضفنا اليها ترجمة للقصص الثلاث الاخرى ، قام بها ايضا الاستاذ جرجي تلبية لطلبنا ، معتمدا الترجمة الفرنسية التي وضعتها السنة ١٩٧٣ مجموعة من الشباب الارثوذكسي في فرنسا .

⁂

لا يعرف مؤلف هذا الكتاب على وجه التاكيد ، وقد جاء في مقدمة الطبعة الروسية الصادرة في العام ١٨٨٤ ان الاب باييسيوس ، رئيس دير الملاك ميخائيل في كازان ، قد نسخ النص المطبوع عن احد الرهبان الروس في جبل آثوس ولم يذكر اسم هذا الراهب . الا ان في الكتاب من الادلة ما يشير الى ان ما جاء فيه قد انشأه احد الرهبان بعد محادثاته مع السائح . وهذا الافتراض لا يحرم الكتاب شيئا من صفات الاصالة التي يتسم بها : فان السائح ، وكان فلاحا بسيطا في الثالثة والثلاثين ، لا يجيد الكتابة الى حد يسمح له بالتاليف، وغالبا ما كان يروي خبرته الى احد الاصدقاء بالفاظ عادية وعبارات متداولة ، فيعمد هذا الصديق المثقف الذكي الى نقل كلام السائح باسلوبه الخاص . وقد حدث هذا بالنسبة للكثيرين من الآباء الروحيين : لم يبلغوا اختبارهم الروحي الا بواسطة كاتب كان جل غايته ان يتوارى وراء الاسرار التي يكشف النقاب عنها . وقد يكون ذلك الصديق ناسكا من جبل آثوس ، وقد يكون الاب امبروسيوس المتوحد في اوبتينا ، معلم ايفان كيرييفسكي وصديق دوستويفسكي وتولستوي وليونتييف ، الذي وجد بين مخطوطاته نص القصص الثلاث الاخيرة للكتاب .

ان صح هذا ، فالكتاب قد يتصل بالحركة الادبية في روسيا في القرن التاسع عشر باصفى ما فيها وانقى . في زحمة

الكتابات الشعرية والقصصية والثورية التي اصطرعت بها نوازع المزاج الروسي المتضاربة ، جاء هذا الكتاب نغمة بريئة صافية .

***

يدخل القارىء مع السائح ، وخاصة في قصصه الاربع الاولى، الى اعماق الحياة في روسيا بعيد حرب القرم وقبل الغاء الرق ، اي بين ١٨٥٦ و ١٨٦١ . ويرى معه كل ابطال القصة الروسية من الامير الذي يسعى الى التكفير عن حياة طيش ، الى ناظر المحطة السكير المشاغب ، الى كاتب المحكمة في الريف ملحدا يناصر الحرية . المحكومون بالاشغال الشاقة قد يقطعون المراحل في طريقهم الى سيبيريا . وحاملو الرسائل الامبراطورية ينهكون جيادهم على الدروب الطويلة . والجنود الفارون يتيهون في الغابات القصية . النبلاء والفلاحون والموظفون والمدرسون وكهنة القرى : روسيا الريفية القديمة كلها تبعث امامنا بعيوبها ، وليس السكر ادناها ، وجميل صفاتها وابهاها المحبة ، محبة القريب تنيرها محبة الله . يحيط بهذا كله الارض الروسية : السهل الشاسع الذي يتيه النظر في مداه والغابات الموحشة والفنادق على قارعة الطريق ، والكنائس ذات الالوان الزاهية والاجراس اللامعة . الا ان الفلاح لا يفيض ابدا في وصف ما يرى من عالم حسي ، فهو مسيحي ارثوذكسي يبحث عن الكمال ، وهمه الشاغل ما لا يبلغ اليه .

اما القصص الثلاث الاخيرة فهي تبرز التساؤلات والشكوك التي كانت تساور المثقفين الروس في القرن التاسع عشر ، وقد احتكوا ببعض الثقافة الغربية . كانت تساؤلاتهم تدور حول صحة التقاليد الروحية في الكنيسة الشرقية ، ولماذا لا يعطى العقل المكانة التي هي تقليديا للقلب كمركز للانسان الروحي ؟ وسنلاحظ ان كثيرا من هذه التساؤلات لا يزال يلح علينا اليوم . ولذلك فالاجابات المعطاة في الكتاب هي ايضا موجهة الينا ، وهي تدعونا الى نفض الغبار عن

تراثنا الكنسي الاصيل والعودة الى عيشه والتزامه في حياتنا كلها ، لكي نغدو نحن ايضا سياحا الى الله لا نبغي سوى وجهه تعالى .

وليس للسائح دليل في سعيه هذا الا كتابان : الكتاب المقدس و « الفيلوكاليا » (١) .

ما هي الفيلوكاليا ؟ انها مجموعة نصوص آبائية تقدم لنا الصلاة الداخلية وكيفية المحافظة على نقاوة القلب . تم جمع هذه النصوص ونشرها لأول مرة العام ١٧٨٢ في البندقية ، من قبل راهب يوناني في جبل آثوس هو القديس نيقوديموس من ناكسوس والمعروف بالآثوني . وفي نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٣) ، ترجمها الى السلافونية الراهب الروماني باييسي فليتشكوفسكي ، ونشرها تحت اسم « الدوبروتوليوبيه » ، وهي تعني محبة الصلاح او الطيبة . وقد تضمنت هذه الترجمة نصوصا للآباء لم تكن موجودة في الفيلوكاليا اليونانية .

وقد ادى نشر الكتاب هذا في روسيا الى نهضة روحية واسعة والى تأصل في التقليد الروحي الشرقي . ولم تقتصر مطالعته على الرهبان واللاهوتيين فقط ، بل تجاوزتهم الى اوساط الشعب ، اذ ان شعب الله كله ، اساقفة وكهنة ورهبانا وعاميين ، مدعو بالقوة نفسها الى سلوك دروب القداسة . واللاهوتي الحق ، كما يقول الآباء الشرقيون ، هو المصلي الحق .

وفي السنة ١٨٧٧ ، ظهرت طبعة جديدة في خمسة اجزاء باللغة الروسية ، نشرها ثيوفانوس المعتزل (١٨١٥ ــ ١٨٩٤) . هذه الطبعة لم تكن كسابقاتها تماما ، بل زيد عليها الكثير واجتزىء منها

---

(١) الكلمة في اليونانية تعني « محبة الجمال » .

بعض النصوص . وغدا هذا الكتاب الغذاء الروحي الاساسي والمفضل عند الرهبان الروس حتى ايامنا هذه .

وفي اثينا ايضا ظهرت السنة ١٨٩٧ طبعة ثانية للفيلوكاليا موسعة وباللغة اليونانية .

ولكن لم يتوقف « عصر الفيلوكاليا » عند هذا الحد . بل تلقف الكتاب الاب ديمتريوس ستانيلوي الروماني ، وبدأ السنة ١٩٤٦ بنشر نوع من الموسوعة الفيلوكالية ، مع شروحات ودراسات نقدية. ولكن لم ينته هذا العمل الجبار حتى الآن ، لأن الاب المذكور قد ادخل السجون لسنوات عديدة ، ابان الحملة التي شنتها الدولة ، ابتداء من السنة ١٩٥٨ ، ضد القوى الكنسية الفاعلة في رومانيا .

وقد تعدى الاهتمام بالفيلوكاليا حدود البلدان الارثوذكسية . فصدر في لندن السنة ١٩٥١ كتاب يضم مجموعة من النصوص الاساسية للفيلوكاليا . وتبع ذلك صدور مختارات من الكتاب باللغة الفرنسية السنة ١٩٥٣ . وقد لاقت هذه الترجمات رواجا منقطع النظير ، فغزت الاوساط المسيحية الغربية ، وكانت وسيلة فعالة في تعريف الارثوذكسيين الذين لا يحسنون اليونانية ولا الروسية على هذه الكنوز من روحانية كنيستهم .

والآن وفي عصرنا الحاضر نجد ان الاهتمام بالفيلوكاليا لم ينقص بل ربما ازداد . ومؤشر ذلك ظهور عدة طبعات جديدة باليونانية ، والابتداء بترجمة كاملة بالفرنسية من قبل الاخوية الارثوذكسية في فرنسا ، كما يصار الى اعداد ترجمة اخرى في الانكليزية . ونأمل ان يوفق الله منشورات النور لنشر ترجمة عربية كاملة في المستقبل القريب .

اما الخبرة الروحية المقدمة لنا في الفيلوكاليا ، فهي عصارة خبرة سنين طوال من الجهاد الروحي لكبار آباء الكنيسة في الشرق،

ابتداء من رهبان صحراء مصر في القرن الرابع ، ومرورا برهبان جبل سيناء واديرة فلسطين والقسطنطينية ، ووصولا الى رهبان جبل آثوس في القرن الخامس عشر .

فالفيلوكاليا اذن هي بمثابة موسوعة عن الصلاة الارثوذكسية، وبشكل خاص الصلاة التوحدية . وهي تصبو الى ايصالنا ، في النهاية ، الى ما يسمى « صلاة القلب » او « صلاة يسوع » ، وقد وصفها البعض انها « قلب » الروحانية الارثوذكسية . وقد سمي هذا التقليد الروحي بالتقليد الازيخي (٢) (Hésychasme) . ومع ان بعض الآباء قد اعطوا اشكالا مختلفة لبعض نواحي ممارستها ، بيد ان مبدأ الصلاة المستديمة المتمحورة حول اسم الله المتجسد والمقامة من قبل الانسان ككل ، جسدا وروحا ، لم يناقش البتة . هذه الصلاة التوحدية لم تبعد المصلي عن الجماعة الكنسية بل هي وسيلة فعالة لدمجه فيها باستمرار . فالمسيح الذي يفتش عنه المصلي ، واسمه القدوس الذي يردد ، لا يمكنهما ان يسكنا فيه الا بقدر ما هو ، بالمعمودية وسر الشكر ، مندمج في جسد الكنيسة ..وكما علمنا الآباء ، فصلاة يسوع لا تغني عن النعمة الحاصلة من ممارسة الاسرار الالهية ، بل تساعد على الاستفادة الكاملة من هذه النعمة . وهكذا يعطي التقليد الازيخي جوابا رصينا عن مشكلة التوافق بين التقوى الشخصية والاشتراك بالصلاة الجماعية الليتورجية وبين مساهمة الروح والجسد في الصلاة . هذا التوافق توصل اليه الآباء نتيجة تبنيهم النظرة الكتابية للانسان . فالانسان « كل » ، جسده وروحه متلازمان . وهو يتعامل مع الله ككل ، ويصبو الى التأله الذي هو غاية وجوده ، اذ ، كما يقول الآباء ، الله صار انسانا لكي يصير الانسان الها . فالانسان بكليته يستقبل النعمة وليس جزء منه .

---

(٢) من الكلمة اليونانية hésychia التي تعني الهدوء او السكون .

والانسان مدعو ، كما بروحه كذلك بجسده ، الى التالـه والـى الشركة مع الله . والنور الالهي يمكن ان يشع في جسـد الانسـان المتاله على هذء الارض ، وهذا الاشعاع يعطي تذوقا ويحقق ما سوف يكون في القيامة العامة . التاله يعني استعادة الصورة الإلهية التي عليها خلق الانسان. وسبيل كل مسيحي الى ذلك ـ وليس فقط الرهبان ـ هو في سلوك دروب القداسة ، والتزام نمط الحيـاة المتقشفة الزاهدة والعيش الدائم في حضرة الله .

هدف الانسان اذن التفتيش عن المسيح في كل مواضع سكناه : في الكتاب المقدس ، في الاسرار ، في حياة الشركة وممارسـة « سر القريب » واخيرا لا آخرا في ذكر اسم الله المتجسد مع كل نسمـة يتنسمها قائلا : « يا يسوع ابن الله الحي ارحمني انا الخاطىء » . هذه هي صلاة يسوع ، وقد تتلى ايضا على حبات السبحات التي يحملها الرهبان الارثوذكسيون .

ولنعد الآن الى الكتاب نفسه نجد في القصص الثلاث الاخيرة عرضا مدروسا لمبادىء التقليد الروحي الذي ذكرنا ، وكذلك لصـلاة يسوع . هذا العرض نجده وفقا للنمط الآبائي في البحث ، اي انـه يتمحور حول موضوع الخلاص بالمحبة وتحقيق ذلك بالصلاة . محبة الله لا حد لها . والمشكلة هي كيف يتقبل الانسان هذه المحبـة في العمق ، لكي يتغير قلبه وتنبت فيه « ثمار الروح » .

اما القصة الخامسة فتلفتنا اولا الى اهمية التوبـة التي تعني الانقلاب الداخلي والتغيير الكلي للذهن والقلب . وتبين لنا ان التوبة الحقيقية هي انكسار القلب امام الله واللجوء اليـه والارتمـاء في احضانه . وتعلمنا ان الصلاة ، وهي العلاقة الواعية مع الله ، مهما اتضعت تبقى مفتاح التوبة . وتتابع بشرح واف لصلاة يسوع ، من الناحية الروحية ومن ناحية اسسها الكتابية .

والقصة السادسة ، بعد تأكيدها على التمحور حول الانجيل الذي يقهر الشيطان (قصة الفرنسي) ، تعود لتذكرنا بنصيب الانسان من الصلاة والذي يكمن في التكرار و « الكمية » . وتشير الى ان امكانية الصلاة متوفرة للانسان في كل حين اينما وجد ، ويمكنها ان ترافقه في كل عمل يقوم به ، مهما صعب ، شريطة ان يقيمها في حضرة الله . الصلاة تحيي الانسان وتعود به الى دعوته الاولى اذ تدعوه للوقوف في حضرة الله باستمرار .

واخيرا نجد القصة السابعة تؤكد على اهمية الحياة التأملية . وترينا مجانية الصلاة والعبادة ، وكيف ان العالم اليوم هو بحاجة لهذه المجانية وللقديسين ، لأن هؤلاء ، بمثلهم الحي واشعاعهم النابع من علاقتهم الصميمية مع الله ، يقودوننا الى الملكوت الذي بآن يفوق التاريخ ويحييه .

كذلك نجد في هذه القصة العديد من الارشادات العملية يستنير بها الذين يودون سلوك طريق الصلاة . وتنتهي القصة بصلاة جميلة جدا من اجل القريب ، مؤكدة بذلك على ان التقليد الروحي الازيخي يحرص كل الحرص على ان يترجم الايمان المعاش في الصلاة الى محبة للقريب غير محدودة . وكما يقول الذهبي الفم : ان سر الشكر يدعونا الى سر القريب . وكل اتصال اصيل بالرب يجعل منا خداما للبشر الذين ارتضى المسيح السكنى في قلوبهم .

***

اطلع السائح الروسي على التقليد الروحي هذا ، لذلك لا يعتقد بان ممارسة الصلاة وحدها كافية ليعرف « ما اطيب الرب » . ففي نزهده ما يرشده الى الله . الله دائم التجوال وليس له حجر يسند اليه راسه . والصلاة المستديمة ، بالنسبة الى السائح ، هي قبل كل شيء ، الوسيلة التي تمكنه من تركيز انتباهه على سر الايمان . وليس ايمان السائح انفعالا امام خيالات شعرية ، لكنه يغتذي

بتعاليم لاهوتية : فنراه يقدم للذين يتوجهون اليه بالسؤال ، نصائح عملية وشروحا عقائدية ، لا وعظا جميلا غامضا . وهو اذ يعرف الانسان على ضوء الله ، يعلم مكانه ودوره في العالم .

اما تعاليمه الاخلاقية فليست مجموعة من القواعد المدروسة . فان اعماله كلها تصدر عن شوقه الى الكمال الروحي . والزهد شرط الرؤيا ولا معنى له بحد ذاته. وهكذا يعلمنا السائح ان الحياة الروحية انما هي وحدة لا تتجزأ . فالاعمال تأتي من الايمان ، ولكن ليس من ايمان بلا اعمال . يسير السائح نحو اورشليم الجديدة ، وقد اتى من عالم الخطيئة والجهل والضعف . وسيدخلها جسدا وروحا في منتهى الدهر ، بعد ان يكون قد بدأ بتذوق هذه الحياة الابدية منذ الآن من جراء سكنى الله فيه . وقد توصل الى تجاهل البرد والجوع والالم وبدت له الطبيعة وكأنها قد تجلت :

« كانت الاشجار والاعشاب والطيور ، والارض والهواء والنور ، كانت كلها تقول لي انها انما وجدت من اجل الانسان وانها تشهد بمحبة الله للانسان : كل شيء كان يصلي ويرنم لله مجدا » .

***

هذا هو المدى الرحب الذي يطل عليه من يتبع خطى السائح مستمعا اليه باخلاص . أفيجرده هذا من الطابع الروسي ؟ على العكس : فانما هو نموذج مكتمل للتقوى الارثوذكسية الروسية ، التي لم تكون (بتشديد الواو) مدرسة فكر او مذهبا قائما بذاته ، بل احييت الاصول والعقائد المنقولة عن بيزنطية وجسدتها في الواقع الروسي .

ان الشعور الانساني الذي يتجلى بالتعاطف والشفقة امام الالم والخطيئة والاقتداء بحياة المسيح ، بالاضافة الى الصلاة وممارسة الاسرار ومعاشرة الكلمة الالهية ، كل هذه ميزات الروحانية الارثوذكسية الاساسية التي يجد لها القارىء ، في هذا الكتاب ، وصفا عفويا رائعا .

الناشر

القصة الاولى

انا بنعمة الله انسان ومسيحي ، واما باعمالي فخاطىء كبير و « سائح » من ادنى المراتب ، دائم التجوال من مكان الى مكان . مالي كناية عن خبز يابس في كيس على ظهري ، والكتاب المقدس في قميصي : هذا كل متاعي .

دخلت الكنيسة يوم الاحد الرابع والعشرين بعد العنصرة لأصلي ، اثناء القداس الالهي ، وكان ذلك عند قراءة فصل من رسالة القديس بولس الى اهل تسالونيكي ، وفيه يقول الرسول : « صلوا بلا انقطاع » . سرت هذه العبارة حتى الاعماق في (بتشديد الياء) وتساءلت كيف يمكن ان نصلي بلا انقطاع وعلى كل منا ان يقوم باعمال عديدة ليتدارك احتياجات عيشه . ففتحت الكتاب المقدس وقرات بأم عيني ما سمعته حرفيا : « ينبغي ان تصلوا بلا انقطاع » (١ تس ٥ : ١٦) ، و « صلوا بالروح في كل حين » (افسس ٦ : ١٨) ، « وارفعوا في كل مكان ايدي نقية » (١ تي ٢ : ٨) . وعبثا ركزت فكري فلم استطع البت في الموضوع.

وفكرت : ما العمل ؟ اين يمكنني ان اجد من (بفتح الميم) بامكانه ان يوضح لي معنى تلك الكلمات ؟ سأمضي الى الكنائس حيث يعظ رجال ذاع صيتهم ، فربما وجدت لديهم ما ابحث عنه . وانطلقت .

سمعت الكثير من العظات البليغة عن الصلاة ، غير انها كلها

كانت تبحث في الصلاة عامة : ما هي الصلاة ، ولماذا يجب ان نصلي او : ما هي ثمار الصلاة ، ولكن لم يقل احد شيئا عما ينبغي القيام به حتى يتوصل المرء الى ان يصلي صلاة فعلية . وسمعت عظة عن الصلاة الداخلية والصلاة الدائمة ، الا ان الواعظ لم يشر بشيء الى كيفية التوصل الى هذه الصلاة . وهكذا ، لم تجدني مواظبتني على استماع الوعظ نفعا في ما كنت اسعى اليه ، فانقطعت عن سماع الوعظ وعقدت النية على البحث ، مستعينا بالله ، عن انسان عالم خبير بوسعه ان يشرح لي غوامض هذا الامر ، وقد شغل بالي وانصرفت اليه بكل جوارحي .

ولطالما سرت في الطرقات اقرأ الكتاب المقدس واسأل الناس عما اذا كانوا يعرفون معلما روحيا او مرشدا حكيما خبر الحياة ، الى ان قيل لي ، ذات مرة ، ان « سيدا » (١) يعيش هناك في قرية منذ أمد بعيد ويسعى لخلاص نفسه . في بيته كنيسة صغيرة . لا يغادر منزله مطلقا ولا ينفك يصلي او يقرأ الكتب الروحية . فلم اعد اسير ، عند سماعي هذا ، بل جعلت اركض نحو تلك القرية . ولما بلغتها ، قصدت ذلك السيد . سألني : ماذا تريد مني ؟ فأجبته : علمت انك رجل تقي حكيم ، لذا اسألك بحق الله ان تبين لي ما يعنيه قول الرسول هذا : « صلوا بلا انقطاع » ، وكيف يمكننا الصلاة على هذا النحو . هذا ما وددت فهمه ، الا انني عجزت عن ادراكه .

فأطرق السيد ثم نظر الي وقال : ان الصلاة الداخلية الدائمة هي جهد الروح المستمر للتوصل الى الله ، فان اردنا ان نفلح في مسعانا هذا الخير (بتشديد الياء) ، كان علينا ان نكثر من طلبنا الى الله ان يعلمنا ان نصلي بلا انقطاع . صل كثيرا وصل باندفاع ، تفهمك الصلاة من تلقاء ذاتها كيف لها ان تصبح مستديمة ، وانما يستلزم ذلك وقتا طويلا .

وبعد قوله هذا امر فقدم لي الطعام ، واعطيت زاد الطريق ،

---

(١) او بعبارة اخرى « بوميشتشك » : من صغار نبلاء الريف الروسي .

ثم افترقنا دون ان اقف منه على جديد .

وتابعت المسير افكر واقرأ واتأمل ، حسبما تيسر لي . فيما قاله لي ذلك السيد الا انه كان من المحال علي ان افهم ، بالرغم من ان رغبتي في الفهم كانت عظيمة الى حد جعل ليالي تمضي دون رقاد . وبعد ان قطعت مسافة مئتي فرسخ (٢) ، وصلت حاضرة ولاية ولمحت فيها ديرا ، قيل لي في الفندق ان رئيسه تقي محسن مضياف . فذهبت اليه ، فاحسن استقبالي واجلسني ثم قدم لي الطعام ، فقلت له :

ـ ايها الاب القديس ، انا لست بحاجة الى طعام الجسد بل الى غذاء روحي . اريد ان اعرف كيف يحقق الانسان خلاصه (٣).

ـ كيف تنال الخلاص ؟... احفظ الوصايا وصل الى الله تخلص . فقلت : انا اعرف انه ينبغي ان نصلي بلا انقطاع ، ولكني لا ادري كيف تتيسر لي الصلاة باستمرار ، بل اني لا افهم حتى ما تعنيه الصلاة الدائمة . فهلا تفضلت ، يا ابتي ، بشرح هذا الامر لي .

ـ لست ادري ، ايها الاخ كيف اوضح لك الشرح . ولكن مهلا ! لدي كتيب يتناول هذا الموضوع .

واخرج كتاب « المرشد الى الحياة الروحية » (٤) للقديس ديمتري قائلا : خذ ! اقرأ هذه الصفحة ! فقرأت ما يلي :

---

(٢) ١٠٦٧ مترا .

(٣) انه السؤال التقليدي الذي يوجهه التلميذ الى معلمه في اديرة الشرق وخلواته .

(٤) رسالة صغيرة في فاعلية الصلاة كتبها القديس ديمتري اسقف روستوف (١٦٥١ ـ ١٧٠٩) .

كان ديمتري ابن احد ضباط الكوزاك ، ترهب عام ١٦٦٨ . وقد عينه بطرس الكبير اسقفا على روستوف (قرب موسكو) عام ١٧٠١ . كافح تساهل الكهنة وتراخي المؤمنين في ابرشيته بشدة وحزم حتى اعاد اليها النظام والانضباط .

وقد الف ديمتري مواعظ ورسائل عديدة ودراسة قيمة للمذاهب والشيع وكرس جل وقته لكتابة « المينأون » الروسي ، وهو التقويم الليتورجي المحتوي على الصلوات المتعلقة بالقديسين حسب ترتيب اعيادهم .

« ان قول الرسول هذا : ينبغي ان تصلوا بلا انقطاع ينطبق على الصلاة الفكرية . فالفكر ، في الواقع ، يمكنه ان يكون دائم الاستغراق في الله ، يصلي اليه دون انقطاع » .

قلت : اوضح لي كيف يمكن ان يكون الفكر دائم الاستغراق في الله ، لا يغفل ، بل يصلي دون انقطاع . اجاب رئيس الدير : انه امر يعسر على مبتغيه اذا لم يعط ذلك من لدن الله . لكن هذا الجواب لم يزدني فهما .

وقضيت ليلتي في ضيافة رئيس الدير . وفي الصباح ، شكرته على حفاوته ثم تابعت سيري لا اعرف لي غاية امضي اليها . وكنت حزينا بسبب عدم فهمي ، فكان عزائي قراءة الكتاب المقدس .

سرت هكذا مدة خمسة ايام اضرب في الطرقات الى ان التقيت ذات مساء بشيخ على سيمائه شيء من ملامح رجال الدين . ولما سألته عن حاله اجابني انه راهب وان الدير الذي يعيش فيه مع بعض الاخوة يقع على عشرة فراسخ من الطريق . ودعاني الى التوقف عندهم قائلا : « نحن انما نستقبل السائحين ، وليس لدينا ما يسمح لنا بالعناية بهم ، لذلك ننصحهم بالمبيت في الفندق » .

ولم تكن لي قط رغبة الذهاب الى الفندق فقلت له : « راحتي لا تتوقف على المسكن بل على تعليم روحي ، ولست ابحث عن طعام ، فمعي الكثير من الخبز الجاف في كيسي .

— عن اي تعليم تبحث ؟ وما الذي تريد فهمه ؟ تعال ، تعال عندنا ايها الاخ العزيز ، فبيننا «ستارتس» (٥) ومرشدون ذوو خبرة

---

(٥) الستارتس او الشيخ او المتقدم هو راهب او متوحد اكتسب نعمة التمييز والابوة الروحية ، يختاره الرهبان الفتيان والعلمانيون كمرشد ومعلم روحي وذلك دون ان يكون له في الدير اية رتبة خاصة . وتشكل المحبة من جهة المعلم ، والاتضاع من ناحية التلميذ ، الفضيلتين اللتين تقوم عليهما علاقة روحية اعمق واوثق بمضمونها مما يسمى عند الغربيين « بالارشاد الروحي » .

في « الاخوان كرامازوف » وصف واف لستارتس (الستارتس زوسيموس)، كما ان هناك عدة مؤلفات خاصة تبحث بتفصيل في حياة الستارتس .

بامكانهم توجيهك روحيا وهديك سواء السبيل على ضـــوء كلمة الله وتعاليم الآباء .

ـــ كنت ، يا ابتي ، منذ قرابة العام ، احضر القداس الالهي ، فاذا بي اسمع وصية الرسول القائلة : صلوا بلا انقطاع . ولكني لم افهم ما تعنيه هذه العبارة فأخذت اقرأ الكتاب المقدس ، فوجدت فيه ايضا ، وفي مواضع متعددة منه ، وصية الله بان نصلي بـــلا انقطاع ، كل حين ، في كل سانحة وفي كل مكان ، لا خلال اعمالنـــا اليومية فحسب ، ولا في يقظتنا فقط بل اثناء نومنا ايضـــا : « انني نائمة ولكن قلبي مستيقظ » (نشيد الانشاد ٥ : ٢) . فاشتـــدت حيرتي وما قدرت ان افهم كيف يتيسر للمرء امر كهذا وما الوسائل الكفيلة بان تقودنا اليه. وثارت في (بتشديد الياء) رغبة عنيفة وفضول، ولم تعد هذه العبارة تفارقني ليلا او نهارا . ولذا اخذت في التردد الى الكنائس ... وسمعت عظات كثيرة عن الصلاة ، ولكنها على كثرة ما سمعته منها لم تفدني قط كيف اصلي بلا انقطاع . فقـــد كـــان الوعاظ يتكلمون دائما في الاستعداد للصلاة او في فوائدها ، دون ان يعلموا (بتشديد اللام) كيف يصلي المرء بلا انقطاع وما تعني هـــذه الصلاة . وكثيرا ما قرات الكتاب المقدس ، فوجدت فيه مـــا كنت اسمعه ، غير اني لم اتوصل الى فهم ما كنت اريده . وانا ، منذ ذلك اليوم ، ما زلت متحيرا قلقا .

فرسم الراهب علامة الصليب وقال : اشكر الله ، ايها الاخ الحبيب على انعامه عليك بميل شديد الى الصلاة الداخلية المستديمة. تأكد انه نداء الله وهديء من روعك اذ ترى توافق ارادتك وكـــلام الله ، فقد اتيح لك ان تدرك ان ما يقود الى النور السماوي ـــ اي الصلاة الداخلية المستديمة ـــ ليس حكمة العالم ولا رغبة في المعرفة باطلة ، ولكنما توصل اليها مسكنة الروح والخبرة العاملة ببساطة القلب . فليس من المستغرب اذن انك لم تسمع ابدا شيئا عميقا عن الصلاة وانك لم تستطع ان تتعلم كيف تمارسها باستمـــرار . ان الوعظ عن الصلاة كثير حقا ، وكثيرة ايضـــا الكتـــب التي الفت

(بضم الهمزة وتشديد اللام) مؤخرا فيها . لكن كافة احكام مؤلفيها تقوم على البحث العقلي النظري ، على مفاهيم العقل الطبيعي ، لا على الاختبار الواقعي ، ولذا فهي تتناول اعراض الصلاة اكثر مما تبحث في جوهرها .

فيجيد بعض المؤلفين ، مثلا ، في بيانه ضرورة الصلاة ، ويتكلم آخر في قوة الصلاة وفي نتائجها الخيرة ، ويحدثنا ثالث في الشروط المفروضة لاجادة الصلاة : في الغيرة والانتباه ، في حرارة القلب ونقاوة الروح ، في التواضع والندامة ... اي في الصفات التي ينبغي توافرها فينا عند مباشرتنا الصلاة . اما : ما هي الصلاة ؟ وكيف نتوصل اليها ؟ فسؤالان اساسيان جوهريان يندر ان نجد جوابا عنهما شافيا لدى وعاظ زمننا الحاضر ، فهما اصعب من ان يستطيعوا شرحهما ، فانهما لا يتطلبان علما مدرسيا بل معرفة صوفية . والمحزن في الامر ان حكمتهم البدائية الباطلة تجعلهم ينظرون الى الله بمقاييس بشرية . كثيرون يرتكبون خطأ فادحا اذ يظنون ان استعداد المصلي واعماله الصالحة تولد الصلاة ، في حين ان الصلاة هي في الحقيقة منبع المآثر والفضائل . وخطأ يرون في ثمار الصلاة او نتائجها السبل الموصلة اليها فيضعفون تأثيرها بخطئهم هذا . وانها ، لعمري ، وجهة نظر مناقضة لما جاء في الكتاب المقدس . قال بولس الرسول في الصلاة : « فأسألكم قبل كل شيء ان تصلوا » (١ تي ٢ : ١) .

وهو بذا يجعل الصلاة فوق كل شيء . اجل ، يطلب من المسيحي كثيرا من اعمال البر ، لكن الصلاة اسمى من كل ما عداها : فبدونها لا يتم عمل صالح . لا يمكن بدون الصلاة ان نجد السبيل الى الله او نعرف الحق ، ان نصلب جسدنا باهوائه وشهواته او ان يستنير قلبنا بنور المسيح وان نتحد به للخلاص . قلت : المتواصلة ؛ لأن كمال صلاتنا وصحتها لا يتعلقان بنا ، كما قال بولس الرسول ايضا : « ... لا نعلم ماذا نصلي » (رو ٨ : ٢٦) . فالاستمرار

وحده ترك (بضم التاء وكسر الراء) لنا شأنه كوسيلة لادراك الصلاة النقية وهي اصل كل خير روحي . قال القديس اسحق السرياني (٦): « من حصل على الأم فقد اقتنى ذرية » وانما يعني بهذا انه ينبغي ، بادىء بدء ، ان نحصل على الصلاة حتى نستطيع ممارسة كافة الفضائل . غير ان الذين لم يطلعوا على الخفي من عادات الآباء وتعاليمهم لا يحيطون علما بهذه المسائل فلا يفيضون في الحديث عنها .

ووصلنا ، ونحن نتحدث على هذا النحو ، الى المنسك دون ان نشعر ، وسارعت اقول لمحدثي الحكيم ، لئلا افترق عنه ورغبة مني في ارواء شهوتي عاجلا : ارجوك ايها الاب الوقور اشرح لي ما هي الصلاة الداخلية المستديمة وكيف يمكن تعلمها : ارى ان لك فيها خبرة عميقة متينة . فرحب الستارتس بطلبي ودعاني لزيارته قائلا : تعال معي ، وسأعطيك كتابا من كتب الآباء سيعينك على فهم الصلاة فهما واضحا ويساعدك على تعلمها بعون الله تعالى .

ولما دخلنا حجرة الستارتس حدثني فقال : ان صلاة يسوع الداخلية المتواصلة هي ذكر اسم يسوع بصورة مستمرة وبلا توقف ، بالشفتين والقلب والفكر ، شاعرين بحضوره ، في كل مكان وفي كل وقت ، حتى اثناء النوم . صيغة هذه الصلاة : ايها الرب يسوع المسيح ارحمني انا الخاطىء ! والذي يعتادها يشعر بالتعزية وبالحاجة الى تلاوتها دائما ، ولن يستطيع ، بعد حين ، ان يبقى بدونها فتسري فيه من تلقاء ذاتها . افهمت الآن ما هي الصلاة الدائمة ؟

فهتفت والسرور يملأ جوانحي : قد فهمت حق الفهم يا ابت ! فعلمني ، ارجوك ، علمني كيف التوصل اليها .

فقال : اما كيف تتعلم الصلاة ، فسنراه في هذا الكتاب . اسمه

---

(٦) راهب عاش في نينوى في اواخر القرن السابع واصبح اسقفا عليها . كتب العديد من المؤلفات الروحية باللغة السريانية .

« الفيلوكاليا » وهو يحوي علم الصلاة الداخلية المستديمة مفصلا حسبما تناولها بالشرح خمسة وعشرون من آباء الكنيسة . وهو مفيد قيم الى حد يعتبر معه المرشد الاساسي الى الحياة التأملية . وكما يقول المغبوط نيكفورس (٧) : « انه يوصل الى الخلاص بدون تعب ولا ألم » .

فسألته : اهو اسمى مرتبة من الكتاب المقدس ؟

ـ كلا ! انه ليس اسمى ولا اقدس ، غير ان فيه شروحا تنير كل ما يستعصي فهمه من غوامض الكتاب المقدس بسبب ضعف عقلنا الذي يعجز نظره عن التسامي الى هذه القمم العالية . اليك تشبيها : الشمس كوكب مهيب الجلالة ، مشع بهي . لكننا لا نستطيع التطلع اليه بالعين المجردة ، فلكي يتيسر لنا التحديق في ملك الكواكب وتحمل اشعته الوهاجة ، ينبغي ان نستعمل عدسة اصطناعية متناهية في الصغر ، باهتة للغاية بالنسبة الى الشمس . والكتاب المقدس بمثابة الشمس ، والفيلوكاليا قطعة الزجاج .

اسمع ! سأقرأ لك كيف السبيل الى التمرن على الصلاة الداخلية المستديمة .

وفتح كتاب الفيلوكاليا ، واختار فقرة للقديس سمعان اللاهوتي الجديد (٨) وشرع يقرأ :

« اقعد بصمت ، منفردا ، واحن رأسك واغمض عينيك .

---

(٧) راهب عاش في جبل آثوس في القرن الثالث عشر (توفي عام ١٢٨٠) . والف رسالة مهمة في « المحافظة على القلب » .

(٨) سمعان اللاهوتي الجديد (٩١٧ ـ ١٠٢٢) هو احد كبار آباء الكنيسة اليونانيين. ادخل البلاط الامبراطوري في التاسعة عشرة من عمره ، الا انه سرعان ما هجره ليدخل دير ستوديون ثم دير القديس ماماس بعد ست سنين من ذلك ، وبقي رئيسا عليه مدة خمسة وعشرين عاما . وقد اضطر الى مغادرة القسطنطينية بعد خلاف قام بينه وبين وكيل البطريرك ، الا انه اعيد الى مكانته قبل وفاته بمدة . وقد انعم الله عليه بالرؤى السماوية منذ بلوغه الرابعة عشرة من عمره فنظم « الاناشيد الالهية المحببة » .

تنفس بهدوء وانظر بعين المخيلة داخل قلبك ، وانقل عقلك ، اعني فكرك ، مركزا اياه ، من رأسك الى قلبك ، وقل مجاريا تنفسك : ايها الرب يسوع المسيح ارحمني انا الخاطىء ! بصوت خافت ، او بالفكر فقط . حاول جاهدا ان تطرد كل الافكار وكن صبورا . اعد هذا التمرين تكرارا » .

ثم فسر لي الستارتس هذا كله مستعينا بالامثلة . وقرأنا في الفيلوكاليا ايضا اقوال القديس غريغوريوس السينائي (٩) والمغبوطين كاليستوس واغناطيوس (١٠) . وكان الستارتس يفسر كل ما يقراه بكلمات من عنده . واصغيت بانتباه وحبور اجد في حفظ تلك الاقوال كافة في ذهني على اكبر وجه من الدقة ممكن . وقضينا الليلة كلها على هذا النحو ثم ذهبنا الى صلاة السحر دون ان ننام .

لما حان موعد انصرافي ، باركني الستارتس واوصاني بان آتي اليه اثناء دراستي الصلاة ، للاعتراف بصراحة وببساطة قلب ، فانه من العبث ان نباشر عملا روحيا دون مرشد يهدينا .

احسست ، في الكنيسة ، بدافع شديد الى اختبار الصلاة الداخلية المستديمة بعناية ، وسألت الله عونا من لدنه . ثم خطر ببالي انه سوف يعسر علي الذهاب لرؤية الستارتس ، للاعتراف او لطلب النصح . فلن اتمكن من البقاء في الفندق اكثر من ثلاثة ايام ، وليس من مسكن قرب المنسك ... بيد اني علمت ، لحسن الحظ ، ان هناك قرية على بعد اربعة فراسخ ، فسعيت اليها ابحث عن مسكن ، ووفقني الله في ذلك . فقد تمكنت من العمل بالاجرة كحارس

---

(٩) احد رهبان جبل آثوس (١٢٥٥ — ١٣٤٦) . اصله من آسية الصغرى. وقد قدم جبل آثوس من جبل سيناء فاحيا التقليد الاريخي وارجع ممارسة « الصلاة المستديمة » الى سابق عهدها .

(١٠) كاليستوس كزانثوبولس هو بطريرك القسطنطينية لبضعة اشهر من عام ١٣٩٧ ، وكان قد تدرب على الزهد في جبل آثوس كراهب . وقد الف مع صديقه اغناطيوس كزانثوبولس رسالة في حياة الزهد .

عند احد المزارعين ، على ان امضي الصيف وحدي في كوخ في اقصى الحديقة ، فوجدت بذا مكانا هادئا ، والحمد لله .

وهكذا اخذت اعيش وادرس الصلاة الداخلية بالوسائل التي اوصاني بها الستارتس ، وكنت اتردد عليه مـــا استطعت الى ذلك سبيلا .

تمرست ، خلال اسبوع ، في خلوة حديقتي ، على الصـــلاة الداخلية ، متبعا تعاليم الستارتس بدقة . ولاح لي اول الامر ، ان كل شيء على ما يرام ، ثم شعرت بثقل كبير ، وبالكسل والضجـــر ونعاس لا يقاوم ، وتلبدت الافكار في ذهني متكاثرة كالسحب ، فذهبت الى الستارتس حزينا . ولما شرحت له امري اهل بي ثم قال :

ـــ ايها الاخ الحبيب ، انها الحملة التي تشنها عليك قـــوات الظلام . فهي لا تخشى شيئا كما تخاف صلاة القلب ، فتحاول ، لذلك ، ان تضايقك وتبعث فيك النفور من الصـــلاة . الا ان العدو لا يفعل شيئا الا باذن من الله ، وبمقدار ما يكـــون في ذلك من فائدة لنا . لا شك في ان تواضعك سوف يتعرض للامتحان ، فلم يحن بعد لك اوان الوصول الى عتبة القلب رغم اندفاعك الشديد . ان في التبكير في الوصول خطر انزلاقك الى القحط الروحي . دعني الآن اسمعك ما جاء في الفيلوكاليا بهذا الصدد .

وقلب الستارتس صفحات من تعاليـــم الراهب نيكفورس ، ثم قرأ : « ايها الاخ ، ان لم تستطع ، رغم جهودك ، ان تدخل منطقة القلب كما اوصيتك ، فاصنع ما سأقوله لك وستجد ، بعون الله ، ما تسعى اليه .

انت تعرف ان عقل كل انسان متصل بقلبه ... فجرد عقلك من كل فكرة (وانت تستطيع ذلك ان تشأ) وردد : « ايها الرب يسوع المسيح ارحمني انا الخاطىء » . اسع جهدك ان تحل هذه الصلاة الداخلية محل كل فكرة سواها ، ولا شك في ان هذا سيفتح لك ، مع التكرار ، باب القلب : هو امر اثبته الاختبار » .

واضاف الستارتس : انت ترى ما يقوله آباء الكنيسة في هذه

انحال . ولذا كان عليك ان تقتبل هذه الوصية مطمئنا وتتلو ما استطعت صلاة يسوع . اليك بسبحة (١١) : بامكانك الاستعانة بها لتلاوة الصلاة ٣٠٠٠ مرة يوميا ، اول الامر . وسواء كنت واقفا ام قاعدا ، مستلقيا ام ماشيا ، قل دون انقطاع : ايها الرب ... متأنيا دون اسراع . صل ٣٠٠٠ مرة يوميا بالضبط ، دون ان تزيد عليها او تنقص منها مرة واحدة ، وستبلغ هكذا مرحلة الصلاة الداخلية الدائمة .

استمعت الى كلمات الراهب هذه بفرح وعدت الى كوخي وجعلت اطبق بدقة وامانة ما لقنني من تعليم . وصعب علي الامر بعض الشيء في اليومين الاولين ، ثم اصبح من السهولة بحيث صرت احس وكأن في حاجة الى تلاوة الصلاة ، اذ اتوقف عنها فتسري بسهولة دون ادنى جهد ، كالذي لقيته في البدء .

واطلعت الستارتس على هذا فأوصاني بان اتلو الصلاة ٦٠٠٠ مرة دون الاهتمام بأي شيء آخر ، فلم اجابه افكارا تصدني بامانة ، بعدد المرات الذي اوصيك به ، وسيراف الله بك .

بقيت في كوخي وحيدا مدة اسبوع كامل ، اردد ابتهالي كل يوم ٦٠٠٠ مرة دون الاهتمام بأي شيء آخر ، فلم اجابه افكارا تصدفني عن الصلاة . وكان قصارى جهدي ان افعل بحسب وصية الستارتس . اتدرون ماذا حدث ؟ ــ لقد اعتدت على الصلاة الى درجة اني ما كنت اتوقف عنها برهة قصيرة ، حتى اشعر بفراغ ، كما لو فقدت شيئا لي ــ وما ان ارجع الى صلاتي حتى يعاودني نشاطي وغبطتي . وكنت ، ان صادفت احدا ، لا ارغب في الكلام ، اذ كان كل

---

(١١) سبحات الرهبان الشرقيين ــ وهم يحملونها بصورة دائمة ملفوفة حول يدهم ــ مصنوعة من سلك من الحرير او الصوف طويل ، تقوم عليه العقد مقام «الحبات» او الكرات الصغيرة في سبحات المغربيين . وتتلى « صلاة يسوع » واحدة لكل « عقدة » .

مبتغاي ان ابقى منفردا اصلي ، وذلك لشدة ما الفت الصلاة بعد ممارستها مدة اسبوع .

واتى الستارتس يتنسم اخباري ، وقد مضى عليه عشرة ايام لم يرني خلالها ، فأخبرته بما حصل لي ، فأصغى الي ثم قال : ها انك قد اعتدت على الصلاة . ينبغي الآن ان تحتفظ بهذه العادة وان تقويها : فلا تتوان ، بل استعن بالله وصمم على ترديد الابتهال ١٢٠٠٠ مرة يوميا . ابق في عزلتك ، وبكر بالنهوض من النوم بعض الشيء ، واخر موعد نومك قليلا ، واحضر لزيارتي مرتين في الشهر .

تقيدت باوامر الستارتس حرفيا . وفي اليوم الاول انهيت الاثني عشر الف مرة بجهد ، فلم افرغ منها الا وقد تأخر الليل . وفي اليوم الثاني ، قمت بالصلاة بصورة اسهل وانا مبتهج . وشعرت بادىء الامر بالتعب ، فكأن لساني وفكي تصلبا ، دون ان يرافق ذلك ادنى الم ، وبعد ، شعرت بألم خفيف في سقف حلقي ، ثم بأبهام يدي اليسرى ، وكنت اعد به حبات السبحة ، في حين بدأت احس بالدفء في يدي حتى المرفق ، مما ولد في (بتشديد الياء) احساسا لذيذا : كل هذا كان من شأنه ان يشجعني على الصلاة بصورة افضل . وهكذا ، قمت بتلاوة الابتهال ١٢٠٠٠ مرة ، مقبلا عليه برغبة ولذة ، فاعتدت الصلاة والفتها .

استيقظت ذات صباح ، وكأن الصلاة ايقظتني ، وبدأت اصلي الصلوات الصباحية ، الا ان لساني تلعثم بها ، فلم يكن بي الا رغبة واحدة : ان اتلو صلاة يسوع . وما ان باشرت بها حتى شعرت بالغبطة ، كانت شفتاي تتحركان من تلقاء ذاتهما دون اي جهد . وقضيت يومي مبتهجا . كنت وكأني اعتزلت كل شيء ، خلت نفسي في عالم آخر . وفرغت بلا عناء مما علي من صلاة — ١٢٠٠٠ مرة — قبل غروب الشمس . لكم وددت لو تابعت الصلاة ! غير اني ما جرءت على تجاوز العدد الذي رسمه لي الستارتس . وفي ما تلا ذلك من الايام ، تابعت ذكر اسم يسوع بسهولة ، دون ان ينتابني اي ملل .

قصدت الستارتس ورويت له كل ذلك مفصلا فقال لي : ان الله قد وهبك شهوة الصلاة وامكانية التسبيح دون مشقة : هذا نتيجة طبيعية للتمرين والجد المثابر الذي عانيت ، كما يحدث لآلة تدفع عجلتها للدوران رويدا رويدا ثم تستمر على الدوران تلقائيا . ولكن يجب « تشحيم » الآلة ودفعها من جديد ، من حين لآخر ، لكيما تداوم حركتها . افرأيت باي الطاقات العجيبة قد سلح الله المحب البشر طبيعتنا الحسية ذاتها ؟ لقد اتيح لك ايضا ان تخبر ما يمكن ان يولد حتى في النفس الخاطئة من احاسيس خارقة عجيبة ، مهما تكن تلك النفس بعيدة عن اشراق النعمة . ولكن ، يا لشدة الكمال والفرح والغبطة التي تصيب الانسان عندما ينعم الله عليه بالصلاة الروحية التلقائية وبتطهير نفسه من الاهواء . انها من الحالات التي لا يمكن التعبير عنها : واطلاع الله ايانا على هذا السر هو عربون تذوقنا لعذوبة ملكوت السموات . انها هبة تعطى للذين يبحثون عن الرب ببساطة قلب بالحب مفعم .

لك ، من الآن فصاعدا ، ان تتلو صلاة يسوع ما شئت . اجتهد ان تكرس كل اوقات اليقظة للصلاة ، واذكر اسم يسوع دون تعداد ، مستسلما بتواضع لمشيئة الله ، مؤملا بعونه ، وهو ، تعالى ، لن يتركك ، بل سوف يقود خطاك .

اتخذت كلام الستارتس قاعدة لحياتي ، وامضيت الصيف بكامله اتلو صلاة يسوع بلا انقطاع . وكنت مطمئنا ناعم البال . كنت احلم احيانا ، اثناء نومي ، باني اردد الصلاة . ولما كنت التقي ببعض الناس ، نهارا ، كنت آنس بهم كما لو كانوا من عائلتي . وهدأ ثائر افكاري ، فما كنت اعيش الا مع الصلاة ، واخذت اميل فؤادي للاصغاء اليها . وكان قلبي ، في بعض الاحيان ، يشعر تلقائيا بشيء كالدفء وبفرح كبير . كانت خدمة الصلاة الطويلة ، في المنسك ، اذا ما دخلت الكنيسة ، تبدو قصيرة ، لا املها كسابق عهدي بها . كان كوخي المنعزل قصرا منيفا بالنسبة لي ، وما كنت ادري كيف اشكر الله الذي ارسل لي ، انا الخاطىء الحقير ، ستارتسا افادني تعليمه

خيرا عظيما .

الا اني لم امتع طويلا بارشاد الستارتس الحبيب الحكيم فقد توفي في آخر الصيف . وودعته الوداع الاخير باكيا . وسألته ، شاكرا له تعليمه الابوي ، ان يترك لي للتبرك سبحته التي كانت تلازمه في صلواته . وهكذا اصبحت وحيدا . وانقضى الصيف ، وقطفت ثمار الحديقة ، فلم يبق لي مكان آوي اليه . واعطاني المزارع روبلين من فضة اجرا لي ، وملأ كيسي خبزا ، زاد الطريق . فعاودت حياة التجوال لكني لم اكن معوزا كما كنته قبلا : كان ذكر اسم يسوع يبعث في (بتشديد الياء) الفرح طوال المسير ، وكان الناس كلهم يحسنون معاملتي كما لو كانوا جميعا يحبونني .

تساءلت ، ذات يوم ، ماذا عساي اصنع بالروبلين اللذين اعطانيهما المزارع . فما الفائدة من خزنهما ؟ نعم !.. لم يعد لي ستارتس يرشدني ولا احد يهديني ، فقررت ان اشتري نسخة من الفيلوكاليا اتعلم فيها الصلاة الداخلية . ووصلت حاضرة ولاية ورحت ابحث فيها مفتشا في الدكاكين عن الفيلوكاليا ، وقد وجدت نسخة منها ، غير ان البائع طلب ثلاثة روبلات ثمنا لها ، ولم يكن معي الا روبلان . وعبثا ساومته ، فلم يحسم لي شيئا من سعرها ، وقال لي ، آخر الامر : اذهب الى تلك الكنيسة واسأل القندلفت ، فان لديه كتابا عتيقا كهذا ، ربما باعه لك بالروبلين .

فقصدت الكنيسة واشتريت ، فعلا ، نسخة عتيقة جدا من الفيلوكاليا مهترئة ، سعدت بها . واصلحت من شأنها ما امكن ، بشيء من القماش ، ووضعتها في كيسي الى جانب الكتاب المقدس .

هكذا امضي الآن في تجوالي ، اصلي صلاة يسوع دون انقطاع ، وهي اعز عندي واعذب من كل ما عداها . وربما قطعت ٧٠ فرسخا في اليوم لا اشعر بالسير ، بل احس فقط بأني اتلو الصلاة . وانا ، اذا ما قرصني البرد ، اتلو الصلاة بمزيد من الانتباه والتأني ، وسرعان ما تدفأ اوصالي . واذا الح علي الجوع ، اكثرت من ذكر اسم يسوع ، فلا اعود اذكر انني جعت . وان شعرت بالمرض وبأن

ظهري او ساقي تؤلماني ، ركزت اهتمامي في الصلاة ، فلا اعود اشعر بالالم . عندما يهيننني انسان ، لا افكر الا بصلاة يسوع المنعشة فيزول الغضب للحال ويزول الالم وانسى كل شيء . قد غدت روحي بسيطة كل البساطة لا اهتم ولا اعنى بشيء ، ولا يستأثر بي شيء مما هو خارجي ، فاني افضل البقاء وحيدا ، وليس لي ، بحكم العادة ، الا حاجة واحدة : ان اصلي بلا انقطاع . وانا عندما افعل ، افرح واتهلل . والله يعلم ماذا يتم في داخلي ! وهذا ، بالطبع ، ما هو الا انطباعات محسوسة او بالاحرى ، كما يقول الستارتس ، فعل الطبيعة واثر عادة مكتسبة . لكني لا اجرؤ بعد على مباشرة دراسة الصلاة الفكرية داخل القلب ، فانا غير مستحق لذلك ، واغبى من ان افعل . ولذا فاني انتظر اوان الله راجيا العون من صلاة فقيدي الستارتس . لم اصل بعد ، اذن ، الى صلاة القلب الروحية تلقائية ومستديمة . بيد اني ، والحمد لله ، افهم الآن تمام الفهم ما تعنيه كلمة الرسول التي سمعتها يوما : « صلوا بلا انقطاع » (١٢) .

(١٢) لا يعرف السائح هكذا الا المرحلة الاولى للصلاة وسيعرض في القصص التالية مراحل تقدمه واكتشافه التدريجي « لصلاة القلب التلقائية » . ان هذا يرجح اما ان القصة الاولى لم تكن في اركوتسك ، بل في فترة لاحقة من حياة السائح ، او انها كتبت بطريقة تعليمية مع مراعاة اصول الانشاء وذلك بتصنيف كل التفاصيل التي اعطاها السائح عند ابتدائه تعلم الصلاة . وهذه حجة اخرى تجعلنا نميل الى الاعتقاد ان هذه القصص انما انشاها احد الرهبان من اصدقاء السائح .

القصة الثانية

طالما سجت انتقل من مكان الى مكان ترافقني صلاة يسوع التي كانت تشددني وتعزيني على كل الدروب ، في كل حين وعند كل اتصال بالناس . وبدا لي آخر الامر انه يجمل بي التوقف في مكان ما حتى تتاح لي عزلة اكبر ، لدراسة الفيلوكاليا التي لم يكن بامكاني قراءتها الا مساء ، عند توقفي للنوم ، او خلال راحة الظهيرة. وكانت في (بتشديد الياء) رغبة ملحة تحدوني الى الغوص فيها طويلا استقي منها بايمان حقيقة التعليم المتعلق بخلاص النفس ، بواسطة صلاة القلب . الا اني ، مع الاسف ، لم يكن بوسعي القيام باي عمل يدوي. لكي يتيسر لي ارضاء رغبتي هذه : فقد كان ذراعي الايسر مشلولا منذ طفولتي . ولما لم يكن بامكاني الاقامة في اي مكان ، قصدت البلاد السيبيرية ، وتوجهت الى مقام القديس انيوكنديوس الاركوتسكي (١)

---

(١) اينوكنديوس (كولتشيسكي) هو اول اسقف على اركوتسك ، نشأ في مقاطعة تشرنيكوف في روسيا الصغرى . طلب العلم في مدرسة كييف الثانوية ثم صار استاذا في الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية في موسكو، ثم راهبا ورئيسا لدير القديس الكسندروس نفسكي في مدينة بطرسبرج . وقد اوفد الى الصين مرسلا برتبة اسقف فاقام قرابة الخمس سنين في سلنجنسك ثم عين عام ١٧٢٧ اسقفا على اركوتسك . وقد ذاعت شهرته كقديس لمكافحته المساوىء ولغيرته في نشر الايمان وتقديم الاخلاق ولصبره ووداعته ومحبته . وقد سمح رسميا بتكريم بقاياه من قبل المؤمنين عام ١٨٠٥ ويحتفل بعيده يوم ٢٦ تشرين الثاني بلقب رئيس كهنة وصانع المجائب .

على امل ان اجد في سهول سيبيريا وغاباتها المزيد من الهدوء ، فاتفرغ للقراءة والصلاة بصورة ايسر . وهكـذا مضيت اتلـو صلاتي بلا انقطاع .

لم ينقض طويل وقت حتى شعرت بالصلاة تنتقل ، من تلقاء ذاتها ، الى قلبي : اي ان قلبي ، وهو يخفق بانتظام ، كان وكأنـه يردد في ذاته كلمات الصلاة المقدسة ترافق كل خفقة نحو : ١ ـ ايها الرب ، ٢ ـ يسوع ، ٣ ـ المسيح ... الى آخره . ولم اعد احرك شفتي ، فأصغيت بانتباه الى ما كان يقوله قلبي ، مختبرا ، بذلك ، الفرح الذي حدثني عنه الستارتس . ثم احسست بألم خفيف في قلبي ، وبحب ليسوع في فؤادي مضطرم الى حد تصورت معه انني ، لو رأيته ، لانطرحت على قدميه وامسكت بهما اقبلهما واغسلهمـا بدموعي شاكرا اياه على ما يهبه لنا ، باسمه ، من تعزية ، لصلاحه ومحبته لخليقته المذنبة غير المستحقة .

وسرعان ما غمر قلبي دفء مستطاب ومـلأ جوانحي ، ممـا ساقني الى التمعن بقراءة الفيلوكاليا لاتحقق من اصالـة هـذه الاحساسات ودراسة تطور صلاة القلب الداخلية . فقد كنت اخشى ان اقع ، دون رجوعي هذا الى الفيلوكاليا في الاوهام ، وان احسب عمل الطبيعة وكأنه عمل النعمة الالهية فانتفخ كبرا لبلوغي الصلاة الداخلية بسرعة ، وقد حذرني الستارتس من ذلك . لذا ، كنت اسير في الليل خاصة ، واقضي النهار في قراءة الفيلوكاليا ، جالسا تحت الاشجار ، في الغابات . كم اكتشفت من امور جديدة عميقة ومجهولة في قراءتي هذه ! كنت اتذوق فيها غبطة ما كان لي ان اتصور مداها فيما مضى . ولا شك بانه فات عقلي المحدود فهم بعض المقاطع ، غير ان مفعول صلاة القلب كان يزيل غموض ما اشكل علي . والى هذا كثيرا ما كنت ارى الستارتس في الحلم فيشرح لي الكثير مما استعصى علي فهمه ، ويوجه نفسي القليلة الفهم الى التواضع والانسحاق .

قضيت شهرين من الصيف طويلين في هذا الهناء البالغ ، وكنت اسعى خاصة في المسير عبر الغابات والحقول . وعندما كنت اصل الى قرية ، كنت استعطي ملء كيسي خبزا وحفنة من الملح ، واملأ قربتي الصغيرة ماء ، ومن ثم انطلق من جديد في مسيرة مئة فرسخ .

السائح واللصان (١)

ظهرت التجارب عند نهاية الصيف ، وكان ذلك ، لا شك ، اما بسبب خطايا نفسي المتحجرة او من اجل تقدمي في الحياة الروحية . هذا ما حصل : خرجت ذات مساء من الغابة الى الطريق العام ، واذا بي التقي برجلين تبدو عليهما هيئة الجنود . سألاني مالا ، وعندما اخبرتهما باني لا احمل مالا قط ، لم يصدقاني بل صرخا بوجهي بضراوة :

ـ انت تكذب ! فالسياح يجمعون مالا كثيرا ! واضاف احدهما : « الكلام الطويل معه لا يجدي » ، وضربني على راسي بهراوته ، فسقطت على الارض فاقد الرشد .

لا ادري ان كنت قد بقيت طويلا على هذه الحال ، ولكني ، عندما ثبت الى رشدي ، رايت انني كنت في الغابة ، قرب الطريق . كانت ثيابي ممزقة ، وكيسي قد اختفى ولم يبق منه الا اطراف الخيطان التي كانت تشده الي . غير ان اللصين ، والحمد لله ، لم يسلبا جواز

---

(١) تذكر هذه القصة بحادثة وقعت للقديس سيرافيم ساروفسكي . ففي خريف عام ١٨٠١ بينما كان الراهب يحتطب في الغابة هجم عليه لصوص بغية سلبه دراهمه. ولما قال لهم انه لا يملك شيئا ، ضربوه على راسه وجرحوه جرحا بليغا . ولم يقبل المتوحد ان يعالجه الاطباء ، فقد ترك امره للرب الذي جعله يرى رؤيا حينما كان طريح الارض . وطلب الا يطارد مهاجموه ، مذكرا قول الانجيل : « لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس ، بل خافوا ممن يقدر ان يهلك النفس والجسد في جهنم » (متى ١٠ : ٢٨) .

سفري ـ وكنت احتفظ به في قلنسوتي العتيقة ، لتقديمه بسرعة اذا دعت الحاجة . وانتصبت وبكيت مر البكاء على كتبي والفيلوكاليا التي كانت في الكيس المسروق ، لا تألما مما اصاب جسدي . وتفجعت طيلة النهار وطوال الليل وبكيت . اين كتابي المقدس الذي اعتدت قراءته منذ ان كنت طفلا ، والذي كان دوما يصحبني ؟ اين الفيلوكاليا التي استقيت منها علما وتعزية ؟ يا لشقائي ! فقدت كنز حياتي الوحيد ، دون ان اروي منه ظمئي ! كنت احرى بالموت مني بالحياة دون غذاء روحي . لن استطيع ، عمري ان اعوض عنها !

لم استطع السير ، خلال يومين ، الا بجهد شديد ، لفرط حزني . وفي اليوم الثالث ، خارت قواي فسقطت قرب عليقة ونمت: واذا بي في الحلم ابصر بنفسي في المنسك ، في قلاية الستارتس ، ابكي اساي بين يديه وهو يعزيني ثم يقول لي : فليكن ما حدث لك درسا المزهد في الامور الدنيوية ، لتنطلق نحو السماء معتقا من كل قيد . ولقد بليت بهذه المحنة لكيلا تتعثر باللذة الروحية ، فالله يطلب من المسيحي ان يتخلى عن ارادته الشخصية وعن كل تعلق بها لكيما يستسلم بكليته للارادة الالهية . فكل ما يفعله تعالى ، انما هو لخير الانسان وخلاصه . فهو « يريد ان جميع الناس يخلصون » (١ تيمو ٢ : ٤) . فتسلح بالشجاعة اذن وثق ان « الله امين لا يدعكم تجربون فوق طاقتكم بل يجعل مع التجربة مخرجا » (١ كو ١٠ : ١٣) . ستنال عما قريب تعزية اعظم من كل ما اصابك من ألم .

عند سماعي هذه الكلمات ، استيقظت وشعرت بقوى جديدة تدب في اوصالي واحسست بفجر سكون جديد يحل في نفسي وقلت : فلتكن مشيئة الله ! ثم نهضت ورسمت علامة الصليب وانطلقت .

اخذت الصلاة تعمل في قلبي من جديد كسابق عهدها ، فسرت ثلاثة ايام هادئا مطمئن البال . واذا بي اصادف على حين غرة لفيفا من المساجين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، يسيرون بحراسة بعض الجنود . ولما وصلت بمحاذاتهم ، لمحت الرجلين اللذين سلباني ، وكانا يسيران في طرف الصف ، فارتميت على اقدامهما اتوسل اليهما

ان يخبراني اين كتبي . فتجاهلاني اول الامر ، ثم قال لي احدهما : ان اعطيتنا شيئا نقل لك اين كتبك : يلزمنا روبل فضي . فأقسمت انني سوف اعطيهما ما يطلبان ، حتى ولو اضطررت الى الاستعطاء وقلت :

ـ اليكما ! خذا جواز سفري ، ان شئتما ، كرهن . فأخبراني ان كتبي في احدى العربات ، مع اشياء اخرى مسروقة انتزعت منهما . فسألتهما :

ـ كيف يمكنني الحصول عليها ؟

ـ اطلبها من رئيس الحرس .

فأسرعت الى الرئيس ورويت له القصة مفصلة ، فسألني ، في سياق الحديث ، ان كنت استطيع القراءة في الكتاب المقدس . فأجبته :

ـ لا اقرأ فقط بل واكتب ايضا . وسترى على الكتاب المقدس كتابة تدل على انه لي ، وهناك ، في جواز سفري ، اسمي وكنيتي . فقال لي الرئيس :

ـ هذان اللصان من الجنود الفارين ، كانا يعيشان في كوخ ويسلبان عابري السبيل . القى القبض عليهما امس سائق عربة قوي ، وقد كانا يحاولان سلبه عربته . سأعطيك كتبك بكل سرور ، ان كانت معنا ولكن عليك ان تصحبنا حتى موقفنا القادم ، وهو لا يبعد الا اربعة فراسخ : فاني لا استطيع توقيف الموكب كله من اجلك .

سرت ، فرحا ، الى جانب حصان الرئيس ، اجاذبه اطراف الحديث ، فوجدته رجلا شريفا طيبا قد تجاوز طور الشباب . سألني من انا ومن اين جئت والى اين اذهب ، فاجبته بالصدق . وهكذا بلغنا الموقف ، فذهب واحضر كتبي واعطانيها قائلا : الى اين تريد الذهاب الآن ؟ ها قد اتى الليل فلم لا تبقى معي ؟

وبقيت . كانت سعادتي باستردادي كتبي شديدة ، حتى اني ما انقطعت عن شكر الله ، وكنت اضم الكتب الى قلبي حتى تشنج

ذراعاي ؛ وكانت دموع الغبطة تسيل من عيني ، وقلبي يخفق بفرح مستعذب .

قال لي الرئيس وهو ينظر الي : ارى انك تحب قراءة الكتاب المقدس .

فلم استطع ان احير جوابا ؛ لشدة فرحي ، بل استرسلت في البكاء ، فاستطرد : وانا ايضا ، يا اخي ، اقرأ الانجيل بامعان في كل يوم . قال هذا ثم كشف بزته الرسمية عن نسخة من انجيل « كييف » دفتها الاولى فضية .

ـ اقعد وسأروي لك كيف اكتسبت عادة قراءة الانجيل .
ـ يا غلام ! احضر لنا العشاء !

قصة الضابط

جلسنا حول المائدة وبدأ الضابط قصته ، قال :

انا ، منذ شبابي ، اخدم في الجيش ، الا اني لم ارابط في ثكنة ولا يوم . وكنت عليما بدقائق الخدمة ، مما اعتبرني رؤسائي معه عسكريا نموذجيا . لكني كنت في ريعان الصبا ، وكذلك كان اصدقائي . فاعتدت معاقرة الخمرة ، لسوء حظي ، وتعاطيتها الى درجة سببت لي المرض . فكنت ضابطا ممتازا ما لم اقرب الصهباء. اما اذا شربت ، حتى القليل القليل ، فكان علي ملازمة الفراش مدة ستة اسابيع . واحتملوني طويلا ، غير انهم انزلوا رتبتي آخر الامر لاهانتي احد رؤسائي اثناء سكري وحكم علي بأن اخدم ثلاث سنين مرابطا في احدى الثكنات ، وهددت بعقاب صارم ان لم اقلع عن الشرب .

عبثا حاولت ، وانا في هذه الحالة المخزية ، ان امتنع عن المسكر ، وان اعالج ، فلم استطع التخلص من عادتي الذميمة ؛ فتقرر ارسالي الى الفرق التأديبية : ولم ادر ما سيحل بي ، حين جاءني هذا الخبر .

كنت ، ذات يوم ، جالسا في المهجع افكر في كل ذلك ، واذا براهب قادم ، يجمع الهبات والتبرعات لكنيسة من الكنائس . وكان كل من الحاضرين يعطي ما تيسر ، ولما وصل قربي سألني : لأي شيء انت حزين ؟

فتحدثت معه قليلا وحكيت له عن مصيبتي . فاشفق الراهب على حالي وقال لي : حدث لأخي نفس الشيء تماما ، فاسمع كيف

استطاع ان يتخلص من الشرب : اعطاه مرشده الروحي أنجيلا واوصاه بان يقرأ منه فصلا كلما راودته شهوة الشراب ، وان عاودته الرغبة ، كان عليه قراءة الفصل التالي . وعمل اخي بهذه النصيحة ، فلم يمض عليه وقت طويل حتى تخلى عن عادته . وها قد انقضى خمسة عشر عاما دون ان يذوق للمسكر طعما . فافعل انت ما فعل وسترى ما تجنيه من فائدة . لدي انجيل ، سأعطيك اياه ان اردت .

فقلت له : ماذا تريدني ان افعل بانجيلك ؟ اتراه اجدى وانفع لي مما بذلت من جهود وما استعملت من وسائل طبية لتمنعني عن الخمرة ؟ (قلت هذا لانه لم يسبق لي ان قرأت الانجيل) .

فأجاب الراهب : لا تتكلم هكذا . اؤكد لك انك ستجد فيه النفع الجزيل .

وفي الغد اعطاني الراهب فعلا هذا الانجيل الذي ترى . فتحته ونظرت فيه وقرأت منه بضع جمل وقلت للراهب : لا حاجة بي الى انجيلك ، فلن استطيع قراءته وهو مكتوب بلغة الكنيسة (١) .

استمر الراهب يحضني على قراءة الانجيل قائلا ان في كلماته قوة خيرة ، فالله نفسه هو الذي نطق بالكلام الذي نراه فيه مطبوعا. واضاف : لا بأس الا تفهم الآن ، لكنما عليك ان تقرأ بانتباه . قال احد القديسين : « ان كنت لا تفهم كلام الله ، فالشياطين تفهم ما تقرأ وهم له يرتعدون » (يعقوب ٢ : ١٩) . ولا شك ان الرغبة في الشرب هي من عمل الشيطان . قال يوحنا فم الذهب : ان البيت الذي فيه انجيل لا ترهبه قوى الظلام ويشكل عقبة تحبط مساعيهم الشريرة .

لا اذكر ما جرى بعد ذلك على وجه الدقة ــ ولعلي اعطيت ذاك الراهب بعض النقود ــ واخذت انجيله ، ودسسته في خزانة لي ، مع امتعتي . ثم نسيته تماما . ومضى بعض الوقت وعاودتني شهوة

---

(١) هي السلافونية . وفي ابجديتها ٣٧ حرفا ، تختلف عن احرف الابجدية الروسية في صورتها اختلافا بينا .

المسكر والحت علي ، فألقيت نظري على الانجيل ، وتذكرت فجأة كل ما قاله الراهب لي ، ففتحت الكتاب وجعلت اقرأ الاصحاح الاول من انجيل متى . قرأته حتى النهاية دون ان افقه منه شيئـــا ، لكني تذكرت ما قاله لي الراهب : من انه لا بأس ان لم افهم ، فما علي الا ان اقرأ بامعان . فقلت في نفسي : لم لا اقرأ فصلا آخر ؟ فبدت لي معانيه واضحة . قلت : فلنقرأ الفصل الثالث : وما بدأت بقراءتـــه حتى تعالى صوت الخفير اشارة الى ان الليل قد جن ، فلا يسمح بعد بمغادرة الثكنة . فبقيت ، يومها ، دون ان اشرب مسكرا .

وفي صبيحة الغد ، كنت مزمعا على الخروج لشراء الخمرة ، فقلت في نفسي : ماذا لو قرأت فصلا من الانجيل ؟ دعنا نجـــرب . وقرأت فصلا وبقيت في الثكنة . وفي مرة غير هذه ، ثارت في (بتشديد الياء) رغبة الشرب ، غير اني اخذت اقرأ فشعرت بالراحة ، واطمأن بالي لذلك ، فكنت كلما استيقظت نزوتي ، التهم فصلا من الانجيل . وتحسنت حالي على مضي الزمن ، وما انهيت الاناجيل الاربعة حتى لم يعد بي ادنى ميل الى معاقرة الخمرة ، فصرت تجاهها من حجر . وها قد مضى الآن عشرون عاما لم اذق خلالها طعم شراب مسكر .

ذهل الجميع للتغير الذي طرأ علي ، فأعدت الى رتبتي السابقة كضابط بعد مرور ثلاث سنين ، ثم رقيت فاصبحت رئيسا . وتزوجت ، ووفقني الله بامرأة صالحة ، ادخرنا سوية بعض المال . حالنا الآن ، ولله الحمد ، لا بأس بها : نساعد الفقراء ما بوسعنا ونضيف السياح والمتجولين . لي ابن قد اصبح ضابطا ، وهو من الشباب الاخيار . وقد قطعت على نفسي عهدا منذ شفائي : ان اقرأ كل يـــوم احـــد الاناجيل الاربعة باكمله ، على مدى العمر ، دون ان اقبـــل لنفسي التذرع بأي عائق عن القراءة ، وانا على العهد مقيم . فحين تتكاثر علي المشاغل واحس بالتعب الشديد ، استلقي في فراشي واطلب الى زوجتي او ابني قراءة الانجيل بجانبي ، فلا احيد ، هكذا ، عن الخطة التي رسمتها لنفسي . وقد جلـــدت (بتشديد اللام) هـــذا الانجيل بدفتين من الفضة الصرف وانا احمله دائما عـــلى صدري

عرفانا بجميل الله علي وتمجيدا لاسمه القدوس .

استمعت بسرور الى حديث الضابط ثم قلت له : لقد وقفت على حالة مماثلة لحالتك : كان في قريتنا ، في المصنع ، عامل ممتاز يتقن مهنته ايما اتقان ، ولكنه ، لسوء حظه ، كان يتعاطى شرب المسكر . ويكثر منه . فنصحه احد الاتقياء بأن يتلو صلاة يسوع الحلو ثلاثا وثلاثين مرة (اي عدد سني حياة يسوع على الارض) وذلك اكراما للثالوث الاقدس كلما احس برغبة في المسكر . وقد عمل بهذه النصيحة وسرعان ما توقف عن الشرب . بل الاجمل من هذا انه دخل الدير بعد ثلاث سنين من ذلك .

فسأل الرئيس : وما الاحسن : صلاة يسوع او الانجيل ؟

فأجبته : الاثنان على حد سواء : فالانجيل مثل صلاة يسوع لأن اسم يسوع المسيح الالهي يتضمن كل ما في الانجيل من حقائق . ويرى آباء الكنيسة ان صلاة يسوع هي خلاصة الانجيل بأكمله .

ثم صلينا . اخذ الضابط يقرأ انجيل مرقس من اوله وانا استمع اليه مصليا بالفكر . انهى الرئيس قراءته في الساعة الثانية صباحا ثم افترقنا للنوم .

استيقظت باكرا في الصباح ، على جاري عادتي وكان الجميع يغطون في النوم ، واستغرقت في قراءة كتابي العزيز : الفيلوكاليا ، مع بزوغ الفجر . ما كان اشد فرحي وانا افتحه ! كنت كمن وجد ابا بعد غياب طويل و صديقا بعث من الموت حيا ! جعلت اقبل الكتاب واشكر الله لاسترجاعه .

باشرت بقراءة ثيولبت اسقف فيلادلفيا (٢) في القسم الثاني من الفيلوكاليا . وادهشني انه يوصي بالقيام بثلاثة انواع من الاعمال في نفس الوقت . قال : حين تجلس الى المائدة ، اعط جسدك قوته ،

---

(٢) توفي عام ١٣٢٦ وكان اسقفا نشيطا . قام بالعديد من الاعمال النهضوية على صعيد الحياة الكنسية والاجتماعية .

وروحك القراءة ، وقلبك الصلاة . غير ان ذكرى سهرة البارحة المفيدة كان فيها التفسير العملي لهذا القول . عندها فهمت سر الفارق بين القلب والروح .

ذهبت الى الضابط ، لما استيقظ ، فشكرته على كرمه وودعته . فسقاني شيئا من الشاي واعطاني روبلا فضة وافترقنا . وتابعت مسيري يغمرني الفرح .

لما قطعت مسافة فرسخ ، تذكرت اني وعدت الجنديين بروبل ، قد اصبح الآن معي . افينبغي اعطاؤه لهما ام لا ؟ انهما ، من جهة ، ضرباني ونهباني ، وهما لا يستطيعان النيل مني الآن اذ انهما موقوفان . الا اني ذكرت ، من جهة اخرى ، ما جاء في الكتاب المقدس من انه « ان جاع عدوك فاطعمه » (رو ١٢ : ٢٠) . وقد قال يسوع نفسه : « احبوا اعداءكم » (متى ٥ : ٤٤) ، كما قال ايضا : « من اراد ان يأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء ايضا » (متى ٥ : ٤٠) . فعدت ادراجي وقد اقنعني كلام الكتاب المقدس ، وبلغت المحطة وقد اوشكت القافلة على الرحيل . فاسرعت الى اللصين واعطيتهما روبلي قائلا : صليا وتوبا ، فيسوع المسيح محب للبشر ، وهو لن يترككما .

وعلى هذا تركتهما وعدت الى المسير في الاتجاه المعاكس للوجهة التي كان الموكب مزمعا على اتخاذها .

عزلــة

تركت الطريق العام ، بعــد ان اجتزت عليه مسافة خمسين فرسخا ، وجعلت اسلك الدروب الصغيرة لعدم تكاثر المارة عليهــا ولمؤاتاة هدوئها للقراءة والتأمل . سرت طويلا في الغابات وكنت ، من وقت لآخر ، اجوز ببعض القرى الصغيرة . وغالبــا مــا كنت اقضي نهاري في الغابة ، اقرأ الفيلوكاليا في ظــلال اشجارهــا ، فاستقيت من هذا الكتاب الكثير من المعارف العجيبة العميقة . ولقد التهب قلبي بشوقي الى اتحادي بالله بواسطة الصلاة الداخلية التي جهدت في دراستها ومراقبة مفعولها في (بتشديد الياء) ، كما ورد في الفيلوكاليا ، وكان يحز في نفسي ، في ذات الوقت ، انني ما وجدت مأوى استطيع ان اقرأ فيه بسلام وبصورة مستمرة .

كنت ، في تلك الفترة ، اقرأ الكتاب المقدس ، وشعرت اني صرت افهمه بصورة افضل من ذي قبل : وجدت فيه من المقاطــع الغامضة اقل مما كنت الاقيه قبلا . ان الآباء على حق اذ يرون ان الفيلوكاليا هي المفتاح الذي يكشف عما طوى الكتاب المقــدس من خفايا ، فلقد بدأت افهم على ضوئها ما خفي علي من معاني كلام الله ، واكتشفت ما تعنيه عبارات كهذه : « ... انسان القلب المستتر » (١ بطرس ٣ : ٤) ، « ... الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق » (يوحنا ٤ : ٢٣) ، « ملكوت اللــه في داخلكــم » (لوقا ١٧ : ٢١) ، و « شفاعة الروح القدس » (رو ٨ : ٢٦) . كما صرت افهم معنى هذه الكلمات : « انتم في (بتشديــد اليــاء) » (يوحنا ١٥ : ٤) ، « اعطني قلبك » (امثال ٢٣ : ٢٦) ، « التسربل

بالمسيح » (رو ١٣ : ١٤) و (غلاطية ٣ : ٢٧) ، « عرس الروح في قلوبنا » (رؤيا ٢٢ : ١٧) ، ودعوة « ابا ايها الآب » (رو ٨ : ١٥ — ١٦) ومعنى الكثير غيرها . ولما كنت اصلي داخليا ، كان كل ما يحيط بي يبدو لي خلابا : الاشجار والاعشاب والطيور والارض والنور والهواء ، فكأنها جميعا تقول لي انها انما وجدت من اجل الانسان ، انها تشهد بمحبة الله للناس ، فكان كل شيء يسبح بحمد الله . وهكذا ادركت ما تدعوه الفيلوكاليا : « معرفة لغة الخليقة » وعرفت كيف يمكن للانسان ان يتبادل الحديث مع مخلوقات الله .

قصة مأمور الاحراج

سرت هكذا زمانا طويلا الى ان انتهى بي التطواف الى منطقة مقفرة لم ار فيها اية قرية خلال ثلاثة ايام . وكنت قد اكلت كل زادي من الخبز فجعلت اتساءل قلقا ماذا عساي افعل لكي لا اموت جوعا ، غير اني ما ان باشرت بالصلاة الفكرية حتى تبدد قلقي واستسلمت لمشيئة الله فداخلني الفرح والطمأنينة .

كنت اسير منذ مدة وجيزة على طريق عبر غابة كبيرة واذا بي ابصر امامي كلب حراسة يخرج من بين الاشجار . ناديته فأتى وديعا يتقبل مداعبتي ، ففرحت وقلت : يا لكرم الله ! لا شك ان في الغابة قطيعا يرتعي ، وهذا هو كلب الراعي او لعل صيادا يلاحق بعض الطرائد في هذه الانحاء ، سوف اتمكن ، في كل حال ، من طلب شيء من الخبز ، فها قد مضى علي يومان دون طعام او لعلني اسأل فيما اذا كان هناك من قرية قريبة . فدار الكلب حولي ، ولما رأى ان ليس معي ما يأكله فر الى الغابة من نفس الدرب الذي قفز منه الى الطريق . فتبعته ورأيته من خلال الاشجار بعد مسافة مئتي متر قابعا في وكر ، يخرج رأسه منه نابحا .

رأيت من ظلال الاشجار قرويا يقترب ، نحيفا شاحب اللون متوسط العمر . سألني كيف توصلت اليه فسألته عما يعمل في هذا المكان المقفر الموحش ، وتبادلنا بعض الاحاديث الودية . ثم دعاني القروي الى دخول كوخه وقال لي انه مأمور الاحراج ، وكان عليه حراسة هذه الغابة التي ستقطع اشجارها عما قريب . وقدم لي الخبز والملح ودار الحديث بيننا . قلت له : احسدك على ما انت فيه

من عزلة فلست مثلي دائم الرحلة كثير الاتصال بالناس .

فقال : بوسعك ، ان تشأ ، ان تعيش هنا . يوجد ، بالقرب منا ، كوخ قديم كان يسكنه حارس قبلي . انه متهدم بعض الشيء ، لكنه في الصيف صالح للسكن . لديك جواز سفر . ولدي من الخبز ما يكفي شخصين ، ففي كل اسبوع يؤتى الي بشيء منه من القرية . وها قربنا الجدول الذي لا ينضب ماؤه ابدا . لقد مضى علي عشر سنين ، ايها الاخ ، اقتصر مأكلي فيها على الخبز ومشربي على الماء . ولكن في الخريف ، عند انتهاء العمل في الحقول ، سيأتي هنا مئتا رجل لقطع الاشجار ولن يكون لي بعد ما افعله هنا ، ولن يسمح اك بالبقاء .

لما سمعت هذا ، اشتد بي الفرح الى حد كدت معه انطرح على قدمي محدثي . ولم ادر كيف اشكر الله على تحننه ورحمته .

ها قد توفر لي فجأة كل ما اشتهيه وكل ما شغل بالي . وما زال امامنا اربعة اشهر حتى منتصف الخريف ، ويمكنني ان افيد في هذا الوقت من السكون والهدوء لدراسة الصلاة الفكرية المستديمة مستعينا بالفيلوكاليا . ولذا قررت الاقامة في الكوخ المشار اليه . وتابعنا حديثنا ، فروى لي هذا الاخ البسيط حياته وافكاره ، قال :

لم اكن اخر اهل قريتي ، فقد كان لي مهنة : كنت اصبغ الاقمشة حمراء وزرقاء وكنت في سعة من العيش ولكن ليس بدون لوم . فقد كنت اغش زبائني واحلف في كل مناسبة ، وكنت فظا سكيرا مشاغبا . وكان في القرية مرتل مسن عنده كتاب قديم ، قديم جدا عن يوم الدينونة (١) . وكثيرا ما كان المرتل يتردد على المؤمنين ليقراه على مسامعهم وكان الناس يجودون عليه ببعض المال لذلك . وكان احيانا يجيء عندي ايضا . كانوا يعطونه ، في غالب الاحيان . بعض الدريهمات فيقرأ حتى صياح الديك . وفي ذات مرة ، كنت

---

(١) يرجح انها احدى عظات افرام السرياني التي يصور فيها يوم القيامة بصورة رهيبة مؤثرة .

اشتغل وانا اصغي اليه : كان يقرأ مقطعا عن عذابات الجحيم وعن قيامة الموتى وكيف سيدين الله الناس وكيف ينفخ الملائكة في الابواق وعما سيكون من نار وقطران وكيف يأكل الدود الخطأة . واذا بخوف مرعب ينتابني فجأة ، فقلت محدثا نفسي : لن انجو من هذا العذاب ! اواه ! سأبدأ بالسعي لخلاص نفسي وربما توصلت الى التكفير عن خطاياي . ففكرت طويلا وعزمت على ترك مهنتي . فبعت بيتي . ولما كنت اعيش وحدي ، صرت حارس احراج لا اطلب راتبا الا خبزا وغطاء التحف به وشمعا اشعله عندما اصلي .

صار لي اكثر من عشر سنين اعيش هنا ، لا آكل الا مرة واحدة في اليوم ولا اتناول الا الخبز والماء . كل ليلة ، انهض عند صياح الديك ، واركع واسجد واصلي حتى شروق الشمس . واشعل ، عندما اصلي سبع شمعات امام الايقونات . وفي النهار ، حين تجوالي في الغابة احمل سلاسل تزن خمسة عشر كيلوغراما على جلدي . لست احلف الآن ولا اشرب البيرة او الخمر ولا اخاصم احدا ولا اعرف ابدا النساء او بنات الهوى .

كنت في البدء راضيا من عيشي على هذا النحو ، الا اني فيما بعد ازدحمت في (بتشديد الياء) افكار لم استطع طردها . والله يعلم ان كنت سأكفر عن خطاياي ، لكن حياتي كانت صعبة شاقة . وبعد ، هل ما رواه الكتاب صحيح ؟ كيف للانسان ان يقوم من الموت ؟ الذين ماتوا من مئة سنة او اكثر اختفى حتى ترابهم . ومن يدري : اهناك جحيم ام لا ؟ وعلى كل حال ، لم يعد احد ابدا من العالم الآخر : فحين يموت الانسان ينتن جسده وينحل ولا يبقى له من اثر . هذا الكتاب ، ربما كتبه رجال الدين او موظفو الدولة لارهابنا نحن الاغبياء ولكي نزداد لهم خضوعا . هكذا نشقى بحياتنا على الارض ولا تعزية لنا ، وفي الحياة الثانية لن يكون شيء ! ففيم التقى اذن وفيم الزهد ؟ اوليس من الافضل ان يصيب الانسان شيئا من اللهو في هذه الحياة ؟ ان يتمتع بها ؟ ثم اضاف : ان هذه الافكار تطاردني واخشى ان اضطر الى العودة الى مهنتي الاولى .

رثيت للرجل واشفقت عليه وجالت بخاطري هذه الافكار : يزعم الناس ان العلماء وحدهم والمثقفين يلحدون فلا يؤمنون بشيء ، ولكن اخوتنا الفلاحون البسطاء ، في اي كفر هم ايضا يتورطون ! لا شك في ان قوات الظلام تطال الجميع ، ولعلها تجد من السهل عليها ان تصاول البسطاء . علينا ان نستعمل عاقلتنا ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وان نتحصن بكلمة الله من حيل ابليس وملائكته .

اردت تشديد هذا الاخ بعض الشيء وتثبيت ايمانه ، فاخرجت الفيلوكاليا من كيسي وفتحتها في الفصل التاسع بعد المئة للمغبوط ازيخيوس (٢) . فقرأت الفصل وبينت لرفيقي ان الانسان لا يعف عن الخطيئة لمجرد خوفه من العقاب ، فالنفس لا يمكنها ان تنعتق من الافكار الشريرة الا بتيقظ الروح وطهارة القلب ، وانما يكتسب ذلك كله بالصلاة الداخلية ، واضفت قائلا :

ـــ اذا سلك الانسان طريق التقشف لا خوفا من عذاب الجحيم الاليم بل حتى رغبة في ملكوت السماء فهو يعمل كما يعمل الاجير ، على حد تشبيه الآباء وهم يقولون : ان الخوف من العذاب طريقة العبد والطمع في الثواب طريقة الاجير . لكن الله يريدنا ان نأتي اليه كابناء ، يود ان تدفعنا المحبة والغيرة الى السلوك اللائق والتمتع بالاتحاد التام به بالروح وفي القلب (٣) . عبثا تنهك قواك وتفرض على نفسك اقسى اماتات الجسد وعذاباته ، فلن تكون في مأمن من

---

(٢) « المغبوط ازيخيوس كاهن اورشليم » . هو كاهن وشارح للكتاب المقدس من القرن الخامس على الارجح ، الف شروحات للعهد القديم والجديد على طريقة رمزية ، حاذيا في ذلك حذو اوريجنس .

(٣) راجع كتاب « حياة موسى » لغريغوريوس النيصصي (٣٣٠ ـــ ٣٩٤) ، ترجمة الاب دانيلو صفحة ١٧٤ . « فالكمال انما هو حقا في الا نترك حياة الخطيئة خوفا من العقاب ، على ما يفعل الاجراء ولا ان نقوم بفعل الخير رجاء بالثواب ، بل... ان نخشى شيئا واحدا فحسب : ان نخسر محبة الله ، والا نعتبر الا امرا واحدا ذا قيمة ومرغوبا فيه : ان نصير احباء الله » .

افكار السوء ما لم يكن الله دوما في فكرك وصلاة يسوع في قلبك ، بل تكون دائما وشيك الوقوع في الخطيئة عند اول فرصـــة . فبادر ايها الاخ بترديد صلاة يسوع دون انقطاع : انه امر عليك سهل في عزلتك هذه ، وسرعان ما تلمس فائدة هذه الصـــلاة ، فستتلاشى افكار الكفر ، ويتجلى امامك الايمان بيسوع المسيـــح ومحبتـــه ، وستفهم كيف يمكن ان يقوم الموتى وتظهر لك الدينونة العتيدة على حقيقتها . سيحل في قلبك من الروح والسرور ما سيدهشك ، ولن يصيبك الملل او القلق بسبب حياة التوبة التي ستعيشها .

ثم شرحت له ما استطعت موضحا كيفية القيام بصلاة يسوع حسب الوصية الالهية وتعاليم الآباء . وبدا عليه ان هـــذا كان جل مراده وخف قلقه . عندها ابتعدت عنه ودخلت الكوخ القديم الذي دلني الحارس عليه .

اعمال روحية

الله ! ما اشد الفرح وما اعظم التعزية والغبطة التي شعرت بها عندما تخطيت عتبة هذا المكان المظلم او بالاحرى هذا القبر ! كان بالنسبة لي اشبه بقصر منيف مليء بالحبور ، وقلت في نفسي : ينبغي الآن في هذا الهدوء وهذه السكينة ان انشط للعمل واصلي حتى ينير الرب ذهني . وعليه ، بدأت بقراءة الفيلوكاليا من اولها الى آخرها بانتباه كبير . وانتهيت من قراءتها بعد فترة قصيرة من الزمن ، وتحققت مما فيها من حكمة وعمق وقداسة . ولكن الكتاب يتناول مواضيع شتى عديدة ، فلم يتسن لي فهم كل شيء ولا تركيز كل طاقات عقلي على تعليم الصلاة الداخلية وحدها فابلغ الصلاة التلقائية الدائمة داخل القلب ، بالرغم من شدة رغبتي في ذلك ، تبعا للوصية الالهية التي نقلها الرسول فقال : « اطلبوا المواهب العظمى » (١ كور ١٢ : ٣١) ، كما قال : « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩) .

وعبثا فكرت ، فلم ادر ما العمل . ليس لي من الذكاء كفاية ولا من الفطنة ، ولا من يعينني . سوف اكثر من صلواتي الى الرب والح ، فلعله يراف بي وينير ذهني . ثم امضيت يوما كاملا اصلي دون ان اتوقف لحظة ، فسكن جائش افكاري واستسلمت للنوم . واذا بي احلم بأني في حجرة صاحبي الستارتس وهو يشرح لي الفيلوكاليا ويقول : ان هذا الكتاب الشريف فيه حكمة عظمى . هو كنز ثمين من التعاليم عن مقاصد الله الخفية . وليس كل ما فيه في متناول فهم الجميع ، غير ان فيه حكما على مستوى كل قارىء :

عميقة بالنسبة لأهل العلم وبسيطة للبسطاء . ولـذا كان عليكم ، معشر البسطاء ، الا تقرأوا كتب الآباء متواليـة حسب ترتيبها في الفيلوكاليا ، فتبويبها فيها كان لغاية لاهوتية . اما غير المثقف ، فأن رغب في تعلم الصلاة الداخلية في الفيلوكاليا ، فعليه اتباع الترتيب الآتي :

١ ــ ان يبدأ بقراءة كتاب الراهب نيكفورس (في القسم الثاني من الفيلوكاليا) ، ثم :

٢ ــ يثنيه بكتاب غريغوريوس السينائي بكامله ، مـا عـدا الفصول القصيرة منه .

٣ ــ يتلوه قراءة صيغ صلاة القديس سمعان اللاهوتي الجديد الثلاث ، ورسالته في الايمان ، وبعد هذا :

٤ ــ كتاب كاليستوس واغناطيوس .

في هذه النصوص ، يجد المطالع تعليم صلاة القلب الداخليـة التام ، في مستوى يدركه كل قارىء .

وان اردت نصا اسهل فهما من هذه النصوص فعليك ، في القسم الرابع ، بالنمـوذج المختصر للصـلاة ، لكاليستوس بطريـرك القسطنطينية .

اما انا ، وكأني كنت امسك بالفيلوكاليا بيدي حقـا ، فأخذت ابحث عن المقطع الذي اشار اليه الستارتس دون ان اجده ، فقلب الستارتس بضع صفحات وقال لي : هاك هو ، سأضع لك علامـة عليه ! والتقط قطعة فحم كانت على الارض وسطر خطا صغيرا على جانب الصفحة مقابل المقطع المعني . استمعت الى كلمات الستارتس كلها بانتباه وامعان واجتهـدت في حفظهـا في ذاكرتي حفظا ثابتـا بتفاصيلها .

استيقظت ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد فبقيت مستلقيـا في الفراش اتذكر كل ما رايت في الحلم واردد ما قاله لي الستارتس . ثم فكرت : الله يعلم ان كانت روح الستارتس هي التي ظهرت لي ام انهـا افكاري تتخـذ هـذه الصورة ، فانـي كثير التفـكير في

الفيلوكاليا وفي الستارتس . ونهضت تساورني الحيرة والتشكك وكان النور قد بدأ ينتشر . وفجأة رأيت على قطعة الحجر التي اتخذتها طاولة ، الفيلوكاليا مفتوحة في الصفحة التي عينها الستارتس والمعلمة بخط رسم بالفحم ، تماما كما كان في حلمي ، وكانت حتى قطعة الفحم لم تزل الى جانب الكتاب . فذهلت للامر ، اذ تذكرت ان الكتاب لم يكن هنا امس ، بل وضعته مغلقا بقربي قبل النوم . وتذكرت ايضا انه لم يكن من اشارة في هذه الصفحة المعلمة . فجعلني هذا الحادث اعتقد بصحة الرؤيا كما ثبتني في اعتقادي بقداسة الستارتس . وهكذا بدأت اقرأ الفيلوكاليا تبعا للترتيب المعين . فقرأتها مرة ، ثم قرأتها مرة اخرى ، مما زاد في غيرتي ورغبتي في اختبار كل ما قرأته اختبارا عمليا . فانكشفت لي بجلاء معنى الصلاة الداخلية واتضحت لي وسائل بلوغها وما لها من آثار ، وفهمت كيف تفرح النفس وتبهج الفؤاد وكيف يمكن معرفة ما اذا كانت هذه الغبطة من الله تأتي او من الطبيعة السليمة او من الوهم .

واجتهدت بادىء بدء ان اتعرض الى مكان القلب ، حسب تعليم سمعان اللاهوتي الجديد . فاغلقت عيني ووجهت نظري الى قلبي ، محاولا تصوره كما هو في الجهة اليسرى من الصدر ، واصغيت الى خفقاته بعناية . وقمت بهذا التمرين مدة نصف ساعة ، اول الامر ، عدة مرات في اليوم . ولم ار في البداية الا ظلمات حالكات ، الا انه سرعان ما رأيت قلبي واحسست بخلجاته العميقة ، ثم توصلت الى ان ادخل فيه صلاة يسوع ، وان اخرجها منه على وزن التنفس ، حسب تعليم القديس غريغوريوس السينائي وكاليستوس واغناطيوس . فكنت ، من اجل هذا ، استنشق الهواء واحتفظ به في صدري ، وانا انظر بعين الروح الى قلبي ، قائلا : ايها الرب يسوع المسيح ، ثم ازفر الهواء قائلا : ارحمني ! وكنت بادىء الامر اقوم بهذا التمرين خلال ساعة او ساعتين ، ثم صرت اقضي الكثير من وقتي اقوم به ، واصبحت اخيرا امضي فيه كل يومي تقريبا .

ولما كنت اشعر بثقل او بتعب او بقلق ، كنت اسارع الى قراءة الفيلوكاليا في مواضيع تتناول نشاط القلب فكانت رغبتي في الصلاة واندفاعي اليها يتجددان في (بتشديد الياء) . وشعرت بعد ثلاثة اسابيع بألم في قلبي ، ثم بدفء لذيذ واحسست بالتعزية والسلام . فقواني هذا التمرين على الصلاة التي اصبحت محور كل افكاري ، واخذت اشعر بالفرح والبهجة . وابتداء من هذه المرحلة ، كنت اشعر من وقت لآخر باحاسيس جديدة في قلبي وفي ذهني . فكأن قلبي كان يعمر احيانا بالغليان والخفة والانعتاق من كل قيد والفرح الى حد اشعر معه بأني صرت رجلا آخر ، او كأني في نشوة . وكنت ، احيانا اخرى احس بمحبة لاهبة نحو يسوع المسيح ونحو الخليقة قاطبة . وكانت دموعي (١) مرات اخرى ، تسيل من تلقاء ذاتها عرفانا بجميل الرب الذي تحنن علي انا الغارق في لجج الخطايا ، كما كان ذهني المحدود يستنير احيانا ، فأفهم بوضوح ما لم يكن لي حتى مجرد تصوره قبلا . وفي بعض الاحيان يدب الدفء المستطاب من قلبي الى كل كياني فأشعر ، والفرح يغمرني ، بحضور الرب . كما كان يخالجني ، في بعض الاوقات ، فرح شديد عميق لذكري اسم يسوع المسيح ، مما فهمت معه ما يعنيه قوله تعالى : « ان ملكوت الله في داخلكم » (لوقا ١٧ : ٢١) .

لاحظت وانا في هذا الجو المفعم بالتعزية ان مفاعيل صلاة القلب تتجلى على اشكال ثلاثة : في الروح ، وفي الحواس ، وفي العقل .

ففي الروح مثلا ، يشعر المرء بعذوبة محبة الله وبالسلام الداخلي وبتهلل الروح وبصفاء الافكار وببهاء حضرة الله . وفي

---

(١) انظر : اسحق السرياني . « يغدو القلب كطفل صغير ، وتسيل الدموع حينما نبدأ الصلاة » . راجع ايضا بهذا الموضوع : « سر عطية الدموع في الشرق المسيحي » ، منشورات النور .

الحواس ، نشعر بدفء في القلب مستحب ، وبملء العذوبة السارية في جسمنا ، يجيشان السرور في القلب ، بالبهجة ، بالصحة والقوة وبعدم الاكتراث بالامراض والآلام . واما في العقل ، فباستنارة الذهن ، وبفهم الكتاب المقدس وفهم لغة الخليقة ، بالتجرد عن المشاغل الباطلة ، بالشعور بحلاوة الحياة الروحية وبالتيقن من قرب الله الينا ومن محبته لنا (٢) .

بعد خمسة اشهر قضيتها في الخلوة في هذه الاعمال الروحية وفي هذه السعادة ، اعتدت على صلاة القلب بحيث كنت امارسها دون انقطاع . وشعرت ، آخر الامر ، انها تتردد في (بتشديد الياء) من تلقاء ذاتها دون ادنى جهد مني . كانت تنبعث في الروح مني وفي القلب ، لا في اليقظة وحسب بل حتى اثناء النوم ، فلا تعود الى التوقف لحظة من بعد ذلك . وكانت نفسي تشكر الرب وقلبي يتهلل بفرح مستديم .

وحان موعد قطع الاشجار ، فتجمع الحطابون ، واضطررت الى مغادرة مسكني الهادىء . وبعد ان شكرت الحارس وصليت ، قبلت تراب هذه الارض التي اظهر فيها الرب نحوي فيضا من صلاحه وحسنه ، ثم وضعت كيسي على كتفي وانصرفت . وبعد ان سرت طويلا وجزت ديارا كثيرة ، دخلت مدينة « اركوتسك » . وكانت صلاة القلب التلقائية تعزيني طوال مسيري ، فما انقطعت عن التمتع بها ، بالرغم من تفاوت درجات سروري فيها . فلم تزعجني ابدا في

---

(٢) يعائل هذا تقسيم الحياة الروحية ثلاثة اقسام كما عرفها مكسيموس المعترف وايفاغريوس قبله : « الروح التي تنجح في العمل تسير نحو الحكمة . فان نجحت في التأمل ، فتتقدم نحو العلم . واما الاولى فتقود من يكافح الى التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، واما الثانية فتسير بمن يساهم فيها الى اعلى الكائنات اللاجسدية والجسدية . واما نعمة معرفة الله ، فينالها الانسان اذا ما اجتاز كل ما عداها باجنحة المحبة فوصل الى الله وتأمل بالروح العلم الالهي ، بمقدار ما يمكن للناس ذلك » . (مكسيموس المعترف) .

اي مكان او زمان ، ولـــم يؤثـــر شيء قط فيخفـــف من فعلهـــا في (بتشديد الياء) . ففي اثناء عملي ، كانت الصلاة تستمـــر من تلقاء ذاتها في قلبي ، فأنهي العمل بسرعة . وان كنت اقرأ او استمع الى قول ما بانتباه ، لا تتوقف الصلاة ، بل كنت اشعر في ذات الوقت بالامرين معا ، كأن شخصيتي ازدوجت ، او كأن في جسدي روحين اثنتين . سبحان الله ! ما اعجب الانسان وما اعظم سره !..

ذئب في الغابة

« ما اعظم اعمالك يا رب ، كلها بحكمة صنعت ! » (مز ١٠٤ : ٢٤) .

صدفت اثناء مسيري عدة اشياء عجيبة ، ولو اردت سرد كل ما حدث لي منها لاقتضى مني ذلك عدة ايام . فقد كنت ، مثلا ، في احدى امسيات الشتاء اجتاز الغابة وحيدا وكنت قررت المبيت في قرية تبعد فرسخين من المكان ، قد لاحت بيوتها لي . وفجأة ، هجم علي (بتشديد الياء) ذئب ضخم ، وكان في يدي سبحة الستارتس الصوفية .

ـ وكانت دائما تلازمني ـ فلوحت بها في وجه الذئب . فهل تصدق ؟ انفلتت السبحة من يدي والتفت حول عنق الوحش ، فارتد الى الوراء ، وقفز من فوق العليق وارتبكت قائمتاه الخلفيتان في الاشواك ، بينما تعلقت السبحة بغصن شجرة يابسة . فتخبط الذئب بكل قواه ، لكنه لم يستطع التخلص من ورطته لأن السبحة كانت تشد على عنقه . اما انا ، فرسمت علامة الصليب بايمان وتقدمت من الحيوان لأخلصه ، خاصة وانني خشيت ان ينتزع السبحة ويفر بها هاربا ، وهي لي مقتنى ثمين . وبالفعل ، ما كدت اقترب منه وامسك بالسبحة حتى قطعها وولى الادبار لا يلوي على شيء . وهكذا وصلت القرية دون عائق ، احمد الرب واذكر بالخير الستارتس المغبوط واترحم عليه . وذهبت الى الفندق وسألت صاحبه المبيت .

لما دخلت المكان ، كان فيه مسافران يجلسان الى مائدة في احد

الاركان : احدهما شيخ تقدم في السن ، والثاني كهـل بدين . كانا يشربان الشاي . فسألت الفلاح الذي كان يحرس جواديهما عنهما ، فأخبرني ان اكبرهما سنا معلم مدرسة وان رفيقه كاتب قاضي محكمة الصلح ، وكلاهما من اصل نبيل . واضاف : اني اصطحبهما الى السوق الاسبوعية التي تقام على بعد عشرين فرسخا من هنا .

اصبت قليلا من الراحة ثم طلبت من صاحبة الفندق ابرة وخيطا، واقتربت من الشمعة واخذت في اصلاح ما تقطع من سبحتي . فرمقني كاتب المحكمة بنظرة وقال : يبدو انك اكثرت من السجود والصلاة حتى تمزقت سبحتك !

ـ ما قطعتها انا بل الذئب . . .

فقال الكاتب ضاحكا : هيه ! حتى الذئاب تصلي !

فرويت لهم الحادثة بالتفصيل واخبرتهم بالقيمة الكبرى التي لهذه السبحة بالنسبة الي . فعاد الكاتب الى الضحك وقال : ان كل شيء ، في نظركم ، ايها البسطاء اعجوبة وكرامة ! اين العجب في قضية الذئب ؟ لوحت له بشيء فخاف وفر هاربا : ان الكلاب والذئاب تخاف دوما من هذه الامور . اما ان ترتبك الاقدام في الغابة فليس امرا صعبا . يا للسذاجة ! اليليق بنا ان نعتقد بأن كل ما يحدث في العالم انما يحدث باعجوبة ؟!

فأخذ معلم المدرسة يناقشه ، قال : لا تتكلم هكذا ، يا سيد ! فلست خبيرا في هذه الامور . . . انا شخصيا ارى في قصة هذا الفلاح عجبا مزدوجا : عجبا حسيا وآخر روحيا . . .

فسأل الكاتب : ماذا تعني بذلك ؟

ـ اسمع : انك لم تصب من العلم كثيرا ، الا انك ، دون شك ، درست التاريخ المقدس في الكتب المدرسية ، على طريقة السؤال والجواب . ولا بد انك تذكر ان الانسان الاول ، آدم ، لما كان في حالة البراءة الاولى ، كانت كل الحيوانات تخضع له : فكانت تقترب منه بوجل فيطلق عليها اسماءها . والستارتس المتوفي ، صاحب هذه السبحة الاول ، كان قديسا . فما هي القداسة ؟ ليست الا

انبعاث حالة البراءة الاولى في الانسان الخاطىء ، بفضل ما يبذله من جهود وما له من فضائل : فالروح تقدس الجسد . وهذه السبحة كانت دوما بين يدي قديس ، فانتقلت اليها ، اذن ، لاتصالها الدائم بجسده ، قوة قدسية ، قوة حالة البراءة التي كان فيها الانسان الاول . هذه هي الاعجوبة من الوجهة الروحية ... ان هذه القوة تحس بها كل الحيوانات بصورة طبيعية ، بواسطة حاسة الشم خاصة : فالانف اهم عضو من اعضاء الحواس لدى الحيوان . هذه هي اعجوبة الطبيعة المحسوسة ... فقال كاتب المحكمة :

ـ انتم معشر المتعلمين ترون في كل شيء عجائب وقصصا مثل هذه . اما نحن ، فاننا ننظر الى الامور نظرة بساطة . واضاف : ان اصب كأسا ثم اجرعها ، هذا أمر يكسب القوة .

قال هذا وقام الى خزانة المشروب .

اجابه معلم المدرسة : هذا شأنك ، ولكن دع لنا ، والحالة هذه ، المعارف التي فيها شيء من العلم .

اعجبني كلام المعلم ، فاقتربت منه وقلت له : اسمح لي بان اقص عليك المزيد عن الستارتس . وحكيت له كيف ظهر لي في الحلم وارشدني ثم وضع علامة في كتاب الفيلوكاليا . واستمع المعلم الى حديثي باهتمام . الا ان كاتب المحكمة غمغم ، وقد استلقى على احد البنوك : صحيح ان الانسان يصاب بلوثة في عقله اذا واصل مطالعة الكتاب المقدس ! ثم اشار الى السائح واردف : هاكم « مسطرة » عمن عنيت ... قل لي : اي غول يهتم بتسويد صفحات كتابك ليلا ؟ وقع كتابك منك على الارض ، حين اغفيت ، وسقط في الرماد ... هذه اعجوبتك ! آه لكل هؤلاء الاوباش : اننا نعرفهم ، يا صاح ، من هم على شاكلتك !

وبعد ان انهى كاتب المحكمة قوله هذا دمدم واستدار نحو الجدار ثم غط في النوم .

وعلى هذا ، التفت الى المعلم وقلت له : سأريك الكتاب ، ان كنت تريد ، وفيه العلامة التي كلمتك عنها ، وما هي بآثار رماد . ثم

اخرجت الفيلوكاليا من كيسي واريته اياها قائلا : يدهشني ان تتمكن روح بلا جسد من ان تمسك بقطعة فحم وتكتب . . .

نظر المعلم الى العلامة في الكتاب وقال : انـه سر الارواح . دعني اشرحه لك : عندما تظهر الارواح للانسان بهيئة جسدية ، تتخذ جسدها المنظور هذا من النور والهواء ، مستخدمة في ذلك العناصر التي جبل منها جسدها المائت . ولما كان الهواء يتمتع بصفة المرونة ، فان الروح التي تلبسه يمكنها العمل والكتابة او الامساك بالاشياء . ولكن ، ما هو هذا الكتاب الذي معك ؟ دعني ارى .

فتح الكتاب ووقع نظره على مقالة سمعـان اللاهوتي الجديد فقال : انه ، على ما يظهر ، كتاب في اللاهوت وانا لا اعرف عنه شيئا .

ـ هذا الكتاب ، يا عم ، انما يقتصر مضمونه بكامله تقريبا على تعليم صلاة القلب الداخلية لاسم يسوع المسيـح بحسب ما يفسره خمسة وعشرون من آباء الكنيسة .

فقال المعلم : آه ! الصلاة الداخلية ! انا اعرف ما هي . . .

فرجوته سائلا اياه ان يحدثني عن الصلاة الداخليـة . قال : جاء في العهد الجديد ان كل الخليقة ، بما فيها الانسان « قد اخضعت لـلباطل لا عن ارادة » وان كل شيء يئن ويصبو الى انعتاق ابنـاء الله (رو ٨ : ١٩ ـ ٢٠) . ان نزوع الخليقة هذا العجيب ، هذه الرغبة الاصيلة في النفس ، هي الصلاة الداخلية . ولا يمكن تعلمها لانها في كل كائن وفي كل شيء ! . . .

سألته : ولكن كيف يتسنى لنا الحصول عليها ، كيف نكتشفها ونحس بها داخل قلبنا ؟ كيف نعي وجودها ونتقبلهـا بطيبة خاطـر ونتوصل الى ان نجعلها تعمل فينا بقوة فتبهـج النفس وتنيرهـا وتخلصها ؟

اجاب المعلم : لست ادري ان كانت المؤلفات اللاهوتية تبحث في ذلك .

فهتفت : ولكن هنا ، في هذا الكتاب ، تجد الجواب عـــلى كل ما سألتك عنه !

فتناول المعلم قلما واخذ عنوان الفيلوكاليا وقال : سوف اطلب هذا الكتاب من « توبولسك » وسوف اطالعه . وعلى هذا افترقنا .

ومضيت اشكر الله على حديثي مع المعلم اسأله تعالى ان يجعل كاتب المحكمة يقرأ الفيلوكاليا ولو مرة ، ويفهم معناها فيجد فيه خير نفسه وصلاحها .

قصة فتاة قروية

ومرة غير هذه ، وصلت احدى الدساكر في يوم من ايام الربيع، ونزلت على كاهن البلدة ، وكان انسانا طيبا يعيش وحده . قضيت عنده ثلاثة ايام ، قال لي بعدها ، وقد تسنى له ان يختبرني خلالها : ان تبق عندي اعطك راتبا : فاني بحاجة الى رجل يكون موضع ثقتي. لعلك لاحظت اننا نبني كنيسة جديدة حجرية الى جانب كنيستنا الخشبية العتيقة . لم استطع الى الآن ان اجد رجلا امينا يراقب الفعلة ويقف في الكنيسة لجمع الهبات المخصصة للبناء الجديد . وانا ارى انه يمكنك القيام بذلك ، ان اردته ، واجد ان نمط الحياة الذي اقترحه عليك يوافقك ويلائمك . ستكون في الكنيسة وحدك ، تصلي ، ففيها ركن منعزل يمكن الاقامة فيه . فابق ، ارجوك ! الى ان يتم بناء الكنيسة على الاقل !

تمنعت طويلا ، الا انني اذعنت ، آخر الامر ، لرجاء الكاهن والحاحه . فقضيت الصيف بكامله حتى الخريف اقيم في الكنيسة . وتوفر لي في البدء الكثير من الهدوء ، فاستطعت ممارسة الصلاة ، الا في ايام الاعياد خاصة حيث يكثر مرتادو الكنيسة ، من تقي اتى للصلاة ، الى ثرثار حضر ليجتمع الى من يحادث ، الى آخرين يؤمون المعبد بقصد اختلاس بعض النقود من « الصينية » . ولما كنت اقرأ الكتاب المقدس احيانا والفيلوكاليا احيانا اخرى ، كان بعض الزوار يبادرونني بالحديث ، وكان منهم من يطلب مني ان اقوم له ببعض القراءة .

بعد مضي ايام على وجودي في الكنيسة ، لاحظت ان صبية

من اهالي البلدة تتردد على الكنيسة وتطيل في الصلاة . ولما املت اذني لاستماع ما تتمتم به وجدت انها تتلو صلوات غريبة ، كان بعض منها مشوها كل التشويه . فسألتها : من علمك هذا ؟ فقالت انها والدتها ، وهي مؤمنة مستقيمة الرأي ، بينما كان والدها هرطوقيا من اتباع بدعة « البلا ــ كهنة » (١) .

فرأيت ان وضعها هذا مزر ونصحتها بان تتلو الصلوات على وجهها الصحيح ، حسب تقاليد الكنيسة المقدسة : وعلمتها « ابانا الذي » و « السلام عليك يا مريم » . وقلت لها اخيرا : اتلي صلاة يسوع خاصة ، فانها تقربنا من الله اكثر من كافة الصلوات الاخرى، وستنالين بذلك خلاص نفسك . فاستمعت الي الفتاة بانتباه ، وعملت بنصائحي ببساطة . افتصدق ؟ اخبرتني ، بعد ايام انها اعتادت صلاة يسوع وانها تشعر برغبة في ترديدها دائما ، ان امكن . وكانت ، اذ تصلي ، تشعر باللذة ، وبعدها بالسرور ترافقه رغبة الاستمرار في الصلاة . فابتهجت للأمر واوصيتها بأن تستمر على الاكثار من الصلاة ، وان تذكر اسم يسوع المسيح .

كان الصيف على وشك الانتهاء ، وكان كثيرون من مرتادي

---

(١) او بعبارة اخرى «رسكولنيك» او «المؤمنين القدامى» وهم من اتباع بدعة نشات في منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٢ ــ ١٦٥٨) على اثر اصلاحات في الطقوس قام بها البطريرك نيكون ادت الى انشقاق داخل الكنيسة الروسية . وقد زاد من خطر هذا الانشقاق مراسيم بطرس الاكبر « العصرية » ، اذ انشا سنة ١٧٢١ مجمعا يحل محل البطريرك ، مجردا الكنيسة بهذا من الاستقلال الذي طالب به نيكون .

وقد انقسم اتباع الانشقاق هذا الى مذاهب عديدة ، يمكن ارجاعها الى فرعين رئيسيين : فرع الذين حافظوا على الرتب الكهنوتية ، ويسمون « الابائيون » ، وفرع لم يعرف اتباعه منذ البدء رجال دين وهم « البلاكهنة » . وقد انتشرت بين هؤلاء ميول الى التصوف الطبيعي او بالعكس الى التشدد الاخلاقي .

الكنيسة يأتون الي ، لا لطلب النصح او شيء من القراءة فحسب ، بل ليقصوا علي (بتشديد الياء) همومهم البيتية . بل ان البعض منهم قصدني لأخبره كيف يجد ما فقد من حاجات . والظاهر ان بعضا منهم اعتقدوا انني ساحر . وفي ذات يوم ، اتتني تلك الفتاة مسرعة ، وهي في غاية الحزن ، تسألني ما يتوجب عليها فعله . فقد كان والدها مزمعا على تزويجها قسرا من هرطوقي مثله ، واما صلاة الاكليل فسيقوم بها احد الفلاحين ، لا الكاهن . وهتفت : اهكذا يكون الزواج الشرعي ؟ ليس الا عهرا وفجورا ! اريد الفرار ... سأهرب غير ملتفتة الى الوراء .

فقلت لها : انك لن تستطيعي الاختباء ، في ايامنا هذه ، في اي مكان دون اوراق هوية او جواز سفر ، وهذا مما يسهل العثور عليك . من الافضل ان تصلي بحرارة من اجل ان يحطم الله بطرقه الخاصة عزم ابيك ويصون نفسك من الخطيئة والهرطقة . هذا انسب لك من مشروع فرارك .

ومضت الايام ... وكانت وطأة الضجة قد ثقلت علي (بتشديد الياء) واصبحت لا اطيق الانصراف عن الصلاة . واخيرا انتهى الصيف ، فعزمت على ترك الكنيسة والعودة الى حياة التجوال التي كنت احياها قبلا . فذهبت الى الكاهن وقلت له : انت تعرف ، يا ابانا ، ما ميولي وما استعدادي . انا بحاجة الى السكينة لأنقطع الى الصلاة ، ولست اجد هنا الا التشويش والبلبلة وتشتيت الافكار . لقد اتممت ما طلبته مني وبقيت عندك الصيف بكامله : دعني الآن اذهب وبارك مسيري وحيدا .

ولم يكن الكاهن يريد التخلي عني فشدد علي (بتشديد الياء) لابقاء ، قال :

ـ ماذا عساه يمنعك من الصلاة هنا ؟ ليس عليك الا ان تبقى في الكنيسة ويأتيك خبزك جاهزا . صل فيها آناء الليل واطراف النهار ، ان اردت ، بل عش مع الله ! انت مقتدر ومفيد هنا . ولست تتورط في سخيف الاقوال ومبتذل الحديث مع الزوار ، كما انك ، من

جهة اخرى ، امين وشريف ، تؤمن دخل الواردات لكنيسة الله . هذا ، لعمري ، افضل ، في نظر الرب ، من صلاتك تتلوها على انفراد . ففيم تبقى وحدك دائما ؟ ان الصلاة مع الناس ادعى للفرح والغبطة ، فلم يخلق الله الانسان حتى لا يعرف الا ذاته ، بل لكي يساعد قريبه . يقود بعضنا بعضا نحو الخلاص ، كل حسبما يستطيع . انظر الى القديسين ومعلمي المسكونة : لقد كانوا يجدون ليل نهار ويدأبون يشغلهم الاهتمام بشؤون الكنيسة ، يعظون في كل مكان ، لا يطلبون العزلة يتوارون فيها عن اخوتهم .

فأجبته : ان الله يعطي كل انسان حسب ما يوافقه ، يا ابانا ، وقد قام كثيرون بوعظ الجماهير ، كما عاش كثيرون غيرهم متوحدين منفردين . وكان كل من هؤلاء يعمل حسب ميله ويعتقد ان ما يعمل هو طريق الخلاص التي رسمها الله له . ولكن كيف تفسر ان كثيرين من القديسين قد تخلوا عن المراتب والمناصب في الكنيسة واعتزلوا ، لئلا يجربوا وهم في العالم ؟ هكذا ترك القديس اسحق السرياني رعيته ، وترك المغبوط اثناسيوس الآثوني (٢) ديره لانهما اعتبرا ان في هذه الامكنة من الرفاهية اكثر مما ينبغي وآمنا ايمانا حقا بقول يسوع المسيح : « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ » (متى ١٦ : ٢٦) .

فرد الكاهن : ولكنهما انما فعلا ذلك لانهما كانا من كبار القديسين . فأجبت : ان احترس القديسون بعناية كبرى من الاتصال بالناس ، فماذا تراني لا افعل انا الخاطىء البائس من باب الحيطة والحذر !

واخيرا ودعت هذا الكاهن الصالح وافترقنا على محبة .

بعد عشر فراسخ ، توقفت في قرية لأقضي ليلتي فيها . وكان هناك فلاح مريض اشرف على الموت ، فنصحت عائلته بأن يتناول القربان المقدس . فأرسلوا ، في الصباح ، من يستدعي الكاهن من

---

(٢) مؤسس سنة ٩٦٣ اول دير اللافرا الكبير في جبل آثوس (٩٢٥ — ١٠٠٣) .

القرية . وبقيت الى جانب عائلة الفلاح لأسجد امام القربان المقدس واصلي اثناء منحه للمريض .

كنت جالسا على مقعد امام البيت اترقب مجيء الكاهن واذا بي ارى فجأة تلك الفتاة التي كانت تأتي للصلاة في الكنيسة فسألتها :

ـ كيف اتيت الى هنا ؟

ـ كان كل شيء جاهزا في البيت لتزويجي من الهرطوقي ، فلذت بالفرار .

ثم هتفت وقد ارتمت على قدمي :

ـ اشفق علي !... خذني معك الى دير من الاديار ! لست ابغي الزواج ، وسوف اعيش في الدير اتلو صلاة يسوع . خذني ! فسيلبي من في الدير طلبك ويقبلني اهله عندهم . فقلت لها :

ـ ايه ! واين تريدين ان آخذك ؟ لست اعرف ولا ديرا في هذه الانحاء ... ثم كيف آخذك معي ولا جواز سفر معك ؟ لن يكون بامكانك التوقف في اي مكان ، فان امرك سيكتشف في الحال ، وسوف تعادين الى بيتك وتعاقبين لتشردك . فالاولى بك ان ترجعي الى البيت وتصلي . وان كنت ، كما تقولين ، لا تريدين الزواج ، فتظاهري بوجود مانع لديك : ان هذا يدعى خداعا مقبولا . هذا ما فعلته ، مثلا ، والدة اقليمندس القديسة ، المغبوطة مارينا التي سعت الى الخلاص في دير للرهبان الذكور (٣) وهذا ما فعله ايضا كثيرون غيرها .

كنا نتحدث على هذا النحو ، واذا بنا نبصر اربعة فلاحين في

---

(٣) عاشت مارينا في القرن الثامن . عمل مارينا هذا قد يبدو غريبا في يومنا الحاضر ، اما ان اخذنا بعين الاعتبار العصر الذي عاشت المغبوطة فيه وما احاط بعملها من ظروف اجتماعية خاصة ، ادركنا انه لم يكن لها من وسيلة ، الا تنكرها بزي الرجال ، لكي تحيا حياة الرهبنة التي تاقت اليها . تعيد لها الكنيسة الارثوذكسية في ١٢ شباط . ويرجح ان اصلها من بيثينيا .

عربة ، ما ان راونا حتى اتجهوا الينا بسرعة . ولما ترجلوا ، اسرعوا فأمسكوا بالفتاة ووضعوها في العربة وارسلوها الى البيت ، على ما اعتقد ، مع واحد منهم . واما الثلاثة الباقون ، فقد هجموا علي (بتشديد الياء) واوثقوا قيد يدي وارجعوني عنوة الى البلدة التي امضيت الصيف فيها . وكانوا يجيبون على جميع استيضاحاتي صارخين متوعدين : اسكت ، ايها القديس الصغير ! سوف نعلمك كيف يكون اغواء البنات !

وعند المساء ، قادوني الى السجن ، فوضعت الاغلال في رجلي ثم اوصد الباب دوني بانتظار محاكمتي في الغد . ولما سمع كاهن البلدة بخبر حبسي ، جاء يزورني وجلب لي العشاء . وعزاني وواساني وقال لي انه سيتولى الدفاع عني ويعلن ، بصفته الاب المعرف (بتشديد الراء وكسرها) ، انني لست من اصحاب الاخلاق المشينة الفاسدة التي يتهموني بها . وبقي بعض الوقت معي ثم انصرف .

وحدث ان مر حاكم المقاطعة بالبلدة ، عند هبوط الليل ، فعرضوا عليه القضية . فأمر بدعوة مجلس البلدة وباستحضاري الى المحكمة . ولما دخلنا ، بقينا واقفين . ووصل الحاكم فجأة ، وقد بدت عليه ، منذ دخوله ، دلائل الانفعال الشديد ، وجلس وراء المنصة محتفظا بقبعته وهتف :

ـ هيه ! يا ابيفانيوس ! هذه الصبية ، بنتك ، الم تسرق شيئا من البيت ؟

ـ كلا يا عم !

ـ ولم ترتكب اية حماقة مع هذا الابله ؟

ـ كلا يا عم !

ـ انتهت القضية ، وهذا هو الحكم : مع بنتك ، تدبر الامر كما تشاء . اما هذا الفتى ، فسوف نرحله غدا بعد تأديبه تأديبا قاسيا لئلا يعود الى هذه البلدة .

وعلى هذا ، قام الحاكم وراح لينام ، واما انا فأعـدت الى السجن . وفي الغد الباكر ، جاء فلاحـان (٤) جلداني ثـم اطلق سراحي . ورحت اشكر الرب الذي اتاح لي ان اتألم من اجل اسمه ، وكان في هذا ما عزاني وحثني على ان اصلي اكثر من ذي قبل .

لم تحزني هذه الاحداث مطلقا ، فكانت كأنها تختص بشخص سواي ، وكأني متفرج عليها . حتى الجلد ، احتملته بسهولة ، فقد كانت الصلاة تفعم قلبي بالفرح بحيث لم تسمح لي بالالتفات الى ما عداها .

وبعد مسيرة اربعة فراسخ ، التقيت بأم الفتـاة عائـدة من السوق ، فتوقفت وقالت لي : تركنـا الخطيب ، فقد اغتـاظ من آكولكا لأنها هربت من البيت .

ثم اعطتني شيئا من الخبز وقطعـة من الحلـوى وتابعت المسير . وكان الطقس صحوا ، مما لم يدع بي رغبة في النـوم في القرية . ووجدت في الغابة كومتي قش فرقدت عليه لأمضي ليلتي . وفي اثنـاء النوم ، حلمت انني اسير عـلى الطريق اقـرأ ما كتبه القديس انطونيوس الكبير (٥) في الفيلوكاليا من فصول . وفجأة ،

---

(٤) حرفيا : قائد المئة وقائد العشرة . اما قائد المئة فينتخبه المجلس البلدي ، وهو قائد الدرك العامل في الريف باشراف رئيس الدرك مباشرة . وهذه الوظيفة ترجع الى القرون الوسطى ، الا ان صاحبها لم تحدد مهامه الا عام ١٨٣٧ وهو تاريخ تاسيس الدرك .
وكان قائد العشرة ياتمر بامر قائد المئة ، وهو ايضا ينتخبه اعضاء المجلس البلدي .

(٥) الكلام هنا عن تعاليم القديس انطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦) الواقعة في ١٧٠ فصلا وتاتي في اول الفيلوكاليتين : اليونانية والسلافونية . والمؤكد انها منحولة ، مثلها في ذلك مثل كل الكتابات المنسوبة الى رائد حياة التوحيد (ما خلا رسالة الى الاب ثيوذوروس) . وهي مؤلفات رواقية ، حورت فيها قليلا يد مسيحية ، وهي على كل ، تمتاز بطابع ديني كبير .

انضم الستارتس الي وقال لي : « ليس هنا ما يجب ان تقرأ » ، واشار الى الفصل الخامس والثلاثين ، للقديس يوحنا اسقف جزيرة كرباتوس (٦) ، وقد جاء فيه : « قد يتعرض التلميذ للتعيير احيانا ويقاسي الشدائد والمحن من اجل الذين ساعدهم روحيا » . ثم اراني ايضا الفصل الواحد والاربعين الذي فيه : « كل الذين يقومون بالصلاة بحرارة متزايدة يغدون عرضة لتجارب شاقة رهيبة » .

ثم قال لي : تشجع ولا تيأس ! تذكر قول الرسول : « . . . ان الذي فيكم هو اعظم من الذي في العالم » (١ يوحنا ٤ : ٤). ولقد علمت الآن بالخبرة ان ليس من تجربة فوق طاقة الانسان احتمالها ، فان الله « . . . لا يدعكم تجربون فوق طاقتكم ، بل يجعل مع التجربة مخرجا . . . » (١ كور ١٠ : ١٣) .

وانما شدد القديسون املهم بمعونة الرب ، وهم لم يقضوا حياتهم بالصلاة فحسب ، بل سعوا ، محبة ، الى تعليم الآخرين وارشادهم . اليك ما قال بهذا الصدد القديس غريغوريوس التسالونيكي (٧) : « لا يكفي ان نصلي دون انقطاع حسب الوصية الالهية ، ولكنما ينبغي علينا ايضا ان نعلم ذلك للجميع : رهبانا وعلمانيين ، اذكياء او بسطاء ، رجالا او نساء او اطفالا ، لكي نثير فيهم الغيرة الى الصلاة الداخلية » . وقد تكلم المغبوط كاليستوس تليكوداس (٨) بنفس اللهجة قائلا : « ان العمل الروحي (اي :

---

(٦) يرجح انه عاش في القرنين السابع ــ الثامن ، ويذكره المؤرخون باسم الاسقف ، حينا ، والراهب ، حينا آخر .

(٧) المسمى ايضا : غريغوريوس بالاماس (١٢٩٦ ــ ١٣٥٩) ، وكان رئيس اساقفة تسالونيكي ، ومن كبار لاهوتيي التقليد الازيخي والمع المدافعين عنه . وتعيد له الكنيسة الارثوذكسية في الاحد الثاني من الصوم الكبير .

(٨) احد الزهاد على طريقة مدرسة كاليستوس واغناطيوس كزانثوبولس اثر عنه كتيب « في الازيخيا العملية » .

الصلاة الداخلية) والمعرفة الاشراقية ووسائل السمو بالروح كافة ، ينبغي الا نحتفظ بها لانفسنا دون الآخرين ، ولكن يجب تبليغهـــا الغير كتابة او خطابا وذلك من اجل خير الجميع وحبا بهم ، وقد قال الله ان الاخ يعضده اخوه امنع من مدينة محصنة (امثال ١٨ : ١٩). وانما علينا ان نجتنب الغرور ما استطعنا وان نحترس لئـــلا تذري الرياح بذار التعليم الالهي الصالح » .

احسست ، لما استيقظت ، بفرح في قلبي عظيـــم وبقوة في نفسي جديدة ، وتابعت المسير .

حادثتا شفاء

جرى لي ، بعد هذا بزمان طويل ، امـــر سأرويـــه لك ، لو سمحت . شعرت ذات يوم ، وكان ذلك في الرابـــع والعشرين من آذار ، بحاجة لا تقاوم الى تناول اسرار المسيح المقدسة في ذلك اليوم المكرس لوالدة الاله ، بذكرى بشارتها الالهية . فسألت عما اذا كان في المنطقة من كنيسة ، فقيل لي ان هنالك كنيسة عـــلى بعد ثلاثين فرسخا .

سرت ما بقي من النهار ، والليل كله ، لكي اصل الكنيسة عند صلاة السحر . كان الطقس على اردأ ما يكون : مثلجا تارة وممطرا طورا ، يزيده سوءا ريح عاتية جليدية وبرد قـــار قارص . كانت الطريق تقطع جدولا . لكني ما خطوت عليه بضع خطـــوات حتى انكسر الجليد تحت رجلي وخضت في الماء حتى حزامي . ووصلت مبتلا الى صلاة السحر ، فحضرتها وحضرت القداس الالهي الذي اتاح لي الله فيه المناولة .

طلبت من الحارس ان يبقيني حتى الغداة في كوخ الحراسة ، وذلك لأقضي يومي بسلام دون ما يكـــدر هنـــاء روحي . وقضيت النهار كله في فرح يفوق الوصف وفي صفاء القلب . كنت مستلقيا على بنك في هذا الكوخ دون تدفئة كما لو رقدت ارتاح في حضن ابراهيم . وكانت الصلاة تعمل بقوة محبتي ليسوع المسيح ولوالدة الاله ، كانت تعبر قلبي ، امواجا منعشة ، وتغمس نفسي في نشوة هانئة . وعند دنو الليل ، شعرت فجأة بألم مبرح في ساقـــي فتذكـــرت انهمـــا مبلولتان . لكني دفعت غفلة فكري عن هذه وعدت الى الانغماس في

الصلاة فلم اعد اشعر بالالم . وفي الصباح ، لما اردت النهوض ، لم استطع تحريك ساقي : كانتا بلا حول وفي مثل رخاوة المرس . وانزلني الحارس عن البنك وبقيت هكذا يومين دون حراك . وفي اليوم الثالث ، طردني الحارس من كوخه قائلا : ان مت هنا كان علي ان اتعب من اجلك واهتم بأمرك . وتوصلت ان اجر نفسي على يدي جرا حتى باب الكنيسة حيث بقيت منطرحا قرابة اليومين . ولم يكن المارة يعيرون ادنى التفات لا الى شخصي ولا الى طلباتي .

اخيرا ! اقترب مني احد الفلاحين واخذ يحادثني . وقال لي : ماذا تعطيني ؟ سوف اشفيك . لقد الم بي مرة نفس ما اصابك ، وانا اعرف لدائك علاجا . فأجبته : ليس لي ما اعطيك .

ـ وماذا يوجد في كيسك ؟

ـ لا شيء سوى الخبز الحاف وبعض الكتب .

ـ طيب ، ستشتغل عندي مدة الصيف ان انا شفيتك .

ـ لا يمكنني حتى العمل . انت ترى ان ليس لي الا يد واحدة سليمة .

ـ ماذا يمكنك فعله اذن ؟

ـ لا شيء الا القراءة والكتابة .

ـ هاه ! الكتابة ! طيب ! ستعلم ابني الكتابة . انه قد بدأ يتعلم القراءة ، وحبذا لو تعلم الكتابة . لكن المعلمين طلبوا مني اجرا غاليا : عشرين روبلا ، لتعليم ابني الخط .

فاتفقت معه . ونقلني الى بيته ، بمساعدة الحارس ، ووضعاني في حمام (١) عتيق في احد اركان الفناء القصية .

وبدأ مضيفي في علاجي : جمع من الحقول والباحات وحفر الاقذار كمية لا بأس بها من عظام الحيوانات القديمة ، وعظام الطيور

---

(١) الحمام بناء خاص للاستحمام بالبخار ، كان دارج الاستعمال في روسيا كلها . وكانوا يبعدونه عن باقي اجزاء البيت لتجنب اخطار الحرائق .

ومن كل الانواع ، فغسلها وكسرها قطعا صغيرة بحجر ووضعها في طنجرة كبيرة ، غطاها بغطاء به ثقب وقلبها جميعا فوق اناء وضعه في الارض. ودهن قعر الطنجرة بعناية بطبقة من الآجر سميكة وغطاها بقطع من الحطب تركها تحترق اكثر من ٢٤ ساعة . وقال ، وهو يرتب الحطبات : « سينتج من هذا كله قطران العظم » .

وفي الغد ، نبش القدر ، وكان قد سال به من فوهة الغطاء قرابة اللتر من سائل غليظ ضارب الى الحمرة ، قوامه دهني ، رائحته كرائحة اللحم الطازج . واما العظام الباقية في الطنجرة ، فقد صارت بيضاء اللون شفافة كقلب الصدف او اللؤلؤ ، بعد ان كانت سوداء عفنة . كنت ادلك جسمي بهذا السائل خمس مرات يوميا . افتصدق ؟ شعرت ثاني يوم انه بامكاني تحريك اصابعي ، وفي اليوم الثالث ، كنت اثني ساقي ، وفي الخامس ، قمت واقفا واخذت امشي في الباحة متوكئا على عصا . وبعد اسبوع ، عاد ساقاي الى حالتهما الطبيعية . فشكرت الله على ذلك مفكرا : ان حكمة الله تظهر في مخلوقاته ! فالعظام الرميمة اليابسة العفنة التي اوشكت ان تعود الى التراب تحتفظ بحيوية قوية ولون ورائحة . بل تفعل في الاجسام الحية ، فيمكنها ان تعيدها الى الحياة ! ان هذا عربون القيامة في الدهر الآتي . ليتني استطيع اطلاع حارس الاحراج ، الذي عشت في كوخه ، على هذا ، فقد كان يشك في قيامة الاجساد !

بعد شفائي هذا ، اخذت اعنى بالولد الصغير . كتبت كنموذج للخط صلاة يسوع ، وطلبت منه ان ينسخها بعد ان اريته كيف يكتب الاحرف بصورة جميلة . وكان هذا لي عملا مريحا ، لأن الغلام كان يخدم ، طوال النهار في بيت وكيل الاملاك ، فما كان يأتي الي الا عندما ينام معلمه ، اي في الصباح الباكر . كان الصبي ذكيا ، وسرعان ما تعلم الكتابة على وجه صحيح تقريبا .

سأله الوكيل مرة وقد رآه يكتب : من ذا الذي يعطيك الدروس ؟ فأخبره الطفل انه السائح الاشل الذي يعيش في منزلهم في الحمام العتيق . فأتى المدير مستطلعا — وكان بولونيا — ليراني

ووجدني اقرأ الفيلوكاليا . فحدثني قليلا وقال : ماذا تقرأ ؟ فأريته الكتاب . فقال : آه ! انها الفيلوكاليا ! اني رأيت هذا الكتاب عند كاهن بلدتنا ، عندما كنت اقيم في « فلنا » ، ولكن قيل لي انه يحوي وصفات غريبة ، وطرائق للصلاة ، اوجدها رهبان من بلاد الروم ، على غرار متصوفة الهند وبخارى ، الذين ينفخون رئاتهم ويعتقدون ببلاهة ، اذا توصلوا الى الشعور بدغدغة طفيفة في قلبهم ، ان هذا الاحساس الطبيعي هو صلاة وهبها الله لهم . انما ينبغي الصلاة ببساطة ، لكي نتمم واجبنا نحو الله . فعند النهوض من النوم ، علينا تلاوة « ابانا الذي ... » كما علمنا المسيح . وهذا يكفي طوال اليوم . ولكن ان نحن رددنا نفس الصلاة كل حين ، ففي هذا خطر اصابتنا بالجنون واتلاف قلبنا .

ـ لا تتكلم بهذه الصورة عن هذا الكتاب الشريف يا عم ! فما كتبه رهبان اروام بسطاء بل اشخاص عريقون قديسون تكرمهم كنيستكم ايضا كانطونيوس الكبير ومكاريوس الكبير (٢) ومرقس الزاهد (٣) ويوحنا الذهبي الفم (٤) وغيرهم. ان رهبان الهند وبخارى قد اقتبسوا منهم طرائق صلاة القلب غير ان هؤلاء الرهبان شوهوها وافسدوها كما قال لي الستارتس. كل ما في الفيلوكاليا من تعاليم عن الصلاة الداخلية مستقى من كلام الله ، من الكتاب المقدس ، الذي شدد فيه يسوع على وجوب الصلاة دون انقطاع . مع وصيته بتلاوة

---

(٢) راهب (٣٠٠ ـ ٣٩٠) متوحد طيلة ٦٠ سنة في صحراء سكيتيا واصله من صعيد مصر ، تتلمذ على يد القديس انطونيوس الكبير .

(٣) هو مؤلف كتب في الزهد . يبدو انه عاش في مطلع القرن الخامس ، وهو من تلاميذ الذهبي الفم . كان رئيس دير انقره من اعمال غلاطية ثم تنسك في صحراء اليهودية .

(٤) من كبار الاباء الشرقيين . واعظ في انطاكية ثم بطريرك القسطنطينية . مات في المنفى عام ٤٠٧ . راجع : « في الكهنوت ، احاديث عن الزواج والرسائل الى اولمبيا » ، منشورات النور .

«ابانا الذي ...» فقد قال : « احب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك وكل ذهنك » (متى ٢٢ : ٣٧) ، كما قال : « فاحذروا واسهروا وصلوا ... » (مرقس ١٣ : ٣٣) ، و « اثبتوا في (بتشديد الياء) وانا فيكم ... » (يوحنا ١٥ : ٤) . وآباء الكنيسة ، اذ يستشهدون بالملك داود في المزامير : « ذوقوا وانظروا ما اطيب الرب » (مزامير ٣٤ : ٩) ، يفسرون هذا الكلام بأن على المسيحي ان يعمل كل شيء حتى يعرف عذوبة الصلاة . فيجب عليه ان يبحث فيها عن تعزيته بصورة مستديمة لا ان يكتفي بتلاوة صلاة « ابانا الذي ... » مرة واحدة .

اسمع ! سأقرأ لك ما يقوله الآباء فيمن لا يسعى الى دراسة صلاة القلب الخيرة . ان هؤلاء يرتكبون ثلاث خطايا : ١ ــ فهم يخالفون وصايا الكتب المقدسة ، ٢ ــ لا يقرون بأن للنفس حالات سمو وكمال : فانهم ، باكتفائهم بالفضائل الخارجية ، يتجاهلون الجوع والعطش الى البر ويحرمون انفسهم الغبطة بالله ، ٣ ــ وهم، بنظرهم الى فضائلهم الخارجية وحدها ، غالبا ما يتردون في الاكتفاء وفي الغرور .

قال الوكيل : ان ما تقرأ له معنى سام ، ولكن كيف لنا ، نحن العلمانيين ، ان نسلك هذا السبيل ؟

ــ اسمع ! سأقرأ لك كيف توصل بعض اهل الصلاح الى تعلم الصلاة المستديمة ، بالرغم من كونهم علمانيين .

وفتحت ، في الفيلوكاليا ، رسالة سمعان اللاهوتي الجديد عن شاب يدعى جاورجيوس واخذت اقرأ . فأعجب الوكيل بما قرأت وقال لي :

ــ اعطني هذا الكتاب وسأقرأه في اوقات فراغي .

ــ سأعيرك اياه ، ان كنت تريده ليوم واحد ، فانا اقراه باستمرار ، وليس لي عنه غنى .

ــ ولكن تستطيع ، على الاقل ، فيما اظن ، ان تنسخ لي هذا المقطع ، وسوف ادفع لك اجرك .

ـ لست بحاجة الى مالك ، ولكني سأنسخه لك بكل سرور آملا ان يهبك الله غيرة للصلاة .

ونسخت على الفور المقطع الذي قراته . فقراه بدوره لزوجته، فاستحسنته واعجبها كما نال استحسان زوجها . فكانا ، بعد ذلك اليوم ، يستدعياني من وقت لآخر فآتي اليهما بالفيلوكاليا ، واقرأ فيستمعان وهما يتناولان الشاي . وابقياني ، ذات يوم ، على العشاء . وكانت زوجة الوكيل ، وهي سيدة مسنة لطيفة ، تأكل سمكا مشويا ، واذا بها تبتلع حسكة ما استطعنا اخراجها من حلقها رغم كل جهودنا . وآلمتها حنجرتها شديد الالم حتى انها اضطرت ، بعد ساعتين ، الى ان تلزم الفراش . وارسل زوجها في طلب طبيب يسكن على بعد ثلاثين فرسخا من المكان ، وعدت الى البيت حزينا مكتئبا .

نمت ، ليلتها ، نوما خفيفا متقطعا ، واذا بي اسمع بغتة صوت الستارتس دون ان انظر احدا . قال الصوت : « لقد شفاك معلمك ولا تستطيع فعل شيء لزوجة الوكيل ؟ لقد اوصانا الله ان نتوجع لمصائب القريب » .

ـ سأساعدها بسرور ، ولكن كيف لي ذلك ؟

ـ اليك ما يجب فعله : هذه المرأة كانت دوما شديدة القرف من زيت الخروع ، فبمجرد ان تشم رائحته ينتابها الغثيان . جرعها اذن ملعقة زيت خروع ، وسوف تستفرغ فتخرج الحسكة ، والزيت سيلين جرح حنجرتها وستشفى .

ـ ولكن كيف اسقيها الزيت ما دامت تتقزز منه وتقرف ؟

ـ اطلب من زوجها ان يمسك رأسها وصب السائل في فمها قسرا .

استفقت من نومي واسرعت الى الوكيل اقص عليه كل هذا بالتفصيل ، فقال لي :

ـ ما عسى يكون نفع زيتك ؟ فقد المت بها الحمى وها هي

تهذي وقد تورم عنقها كما ترى . ولكن ، على كل حال ، لا بأس من المحاولة ، فان لم يفدها الزيت ، فهو ، في اي حال ، لن يضرها بشيء .

وصب شيئا من زيت الخروع في كأس صغيرة وتمكنا بعد جهد من تجريعها اياه . فبدأت تقيء في الحال قيئا شديدا وبصقت الحسكة (٥) مع قليل من الدم . وبعد ، شعرت بتحسن حالها ونامت نوما عميقا .

جئت في صبيحة الغد استطلع اخبارها فوجدتها مع زوجها تتناول الشاي . كانا يتعجبان من شفائها وخاصة مما قيل لي في الحلم عن قرفها من زيت الخروع ، لانهما لم يحدثا احدا بشيء من هذا ابدا . وفيما نحن كذلك وصل الطبيب . فحكت له زوجة الوكيل كيف شفيت ، وانا رويت له كيف عالج الفلاح ساقي ، فأعلن الطبيب قائلا : ليست هاتان الحادثتان ، بالامر المدهش ، فانما سبب الشفاء في المرتين قوة طبيعية ، لكني سأسجلهما للذكرى . واخرج قلما من جيبه ودون (بتشديد الواو) بضع كلمات في دفتر صغير .

وسرعان ما شاع في تلك الديار اني عراف ومطبب وساحر ، وتوافد الناس من كل حدب وصوب لاستشارتي يجلبون لي الهدايا . وبدأوا بتكريمي كقديس وولي . ومضى اسبوع على ذلك ففكرت في الامر وتخوفت من السقوط في الغرور والتشتت ، وفي الليلة التالية ، غادرت القرية خفية .

---

(٥) في حياة رئيس الكهنة حبقوق واقعة مماثلة لهذه : فقد كاد هذا ان يختنق بقطعة من السمك ، لكن ابنته اغريبينا « اسرعت اليه ، كما يقول الكتاب ، وضربت على ظهره بمرفقيها الصغيرين ، فخرج من حلقه خثرة دم واستطاع ان يتنفس » .

الوصول الى اركوتسك (١)

هكذا عدت ، مرة اخرى ، اسير على الطريق وحيدا . شعرت بأني فرح خفيف كما لو انزاح عن كتفي ثقل جبل . وكانت تعزيـــة الصلاة لي في ازدياد مطرد : كان قلبي يجيش احيانا بمحبة لامتناهية ليسوع المسيح ، وكانت امواج منعشة تنبعث من هـــذا الجيشان فتنتشر في كل كياني . وكانت صورة يسوع المسيح ماثلـــة في نفسي بصورة شديدة حتى اني كنت وكأني ارى احداث الانجيل بأم عيني بمجرد التفكر بها . وكنت طربا ابكي فرحا ، اشعر احيانا بسعادة في قلبي كبيرة لدرجة لا استطيع معها وصفها . وكنت احيانا ابقى ثلاثة ايام بعيدا عن منازل الناس وبيوتهم فأشعر منتشيا بأني وحيد وخاطىء حقير امام الله المتحنن والمحب البشر .

وكانت في هذه الوحدة سعادتي . وعذوبة الصلاة فيها كانت اوضح مما كانت عليه عند احتكاكي بالناس .

اخيرا وصلت الى « اركوتسك » . وركعت مصليا امام ذخائر القديس انوكنديوس ، وتساءلت اين الذهاب من بعد . ولم اكن ارغب في البقاء في المدينة طويلا لانها كانت آهلة بالسكان . وسرت في الشارع افكر ، واذا بي التقي فجأة بأحد تجار المدينة ، فاستوقفني وقال لي : انت سائح ؟ لماذا لا تجيء الى بيتي ؟

---

(١) احدى مدن سيبيريا الشرقية وتقع على نهر انغرا ، بالقرب من بحيرة بايكال . تقع اركوتسك وسط منطقة مناجم هامة مما جعل منها مركزا صناعيا مزدحمـــا بالسكان نسبة لما يجاورها .

ووصلنا بيته الفخم ، وسألني من اكون ، فرويت له رحلتي . ولما انتهيت قال لي : يجدر بك ان تذهب الى مدينة اورشليم ، ففيها قداسة لا مثيل لها !

فأجبته : الذهاب اليها مما يسرني ، ولكني لا املك من المال ما ادفعه اجرة الطريق ، فان ذلك يتطلب المال الكثير .

فقال التاجر : سأخبرك عن طريقة للذهاب ، ان تشأ . ولقد اوصلت في العام الماضي الى القدس شيخا من اصدقائنا .

فانطرحت على قدميه ، فقال لي : اسمع ، سأرسل معك كتابا الى ابني وهو في أوروبا يتاجر مع القسطنطينية . انه يملك بعض المراكب وسوف يوصلك الى القسطنطينية وهناك تدفع لك مكاتبه فيها اجرة السفر حتى القدس ، وما هذا بالباهظ الغالي .

لما سمعت هذه الكلمات ، افعم قلبي فرحا وشكرت هذا المحسن شكرا جزيلا ، وشكرت الله خاصة لاظهاره لي حبه الابوي الجم نحوي ، انا البائس الغارق في الخطايا ، لا احسن صنعا تجاهه تعالى ولا نحو سواي من الناس ، وآكل خبز الغير بلا جدوى .

ونزلت ثلاثة ايام على هذا التاجر الكريم ، ثم اعطاني كتابا الى ابنه ... ها انا ذاهب الى اوروبا على امل ان ابلغ مدينة اورشليم المقدسة ... غير اني لست ادري ان كان الرب سيسمح لي بالسجود امام ضريحه المحيي .

القصة الثالثة

قبل ان ارحل عن « اركوتسك » ، عدت الى الاب الروحي الذي كان لي معه احاديث وقلت له : ها انا منطلق بعد ايام الى اورشليم. جئت اودعك واشكرك لمحبتك المسيحية نحـــو شخصي انا السائح المسكين .

فقال لي : بارك الله خطاك !... لكنك لم ترو لي شيئا عنك : من انت ومن اين ... سمعت الكثير من اخبار اسفارك وحبذا لو وقفت على شيء من منشئك وحياتك قبل البدء في التجوال .

اجبته : سأروي لك هذا بسرور ، ليســـت حياتي بالقصـــة الطويلة .

حياة السائح

ولدت في احدى قرى مقاطعة « اوريل » (١) . وبعد موت والدينا ، كنا اثنين : اخي البكر وانا . كان اخي في العاشرة وكنت في الثالثة من عمري . فأخذنا جدي الى بيته ليربينا وكان شيخا وقورا ميسور الحال ، يدير فندقا على الطريق العام . وكان كثيرون من المسافرين ينزلون على جدي نظرا لطيبته . جئنا اذن نعيش في كنفه .

كان اخي يتدفق حيوية ، فكان يسرح كل نهاره في القرية ويمرح ، بينما كنت ابقى في اغلب الاحيان بالقرب من جدي . وكان هذا يصطحبنا ايام الاعياد الى الكنيسة ، وفي البيت ، كان كثير القراءة للكتاب المقدس ، لهذا الكتاب الذي احمل معي . فشب اخي وبدأ يتعاطى المسكر . وفي ذات يوم — وكان لي من العمر سبع سنين — بينما كنت مستلقيا معه على المدفأة (٢) دفعني فوقعت . فاصيب ذراعي الايسر . وانا ، منذ ذلك الحين ، لا استطيع له حراكا ، فلقد تيبس وشل .

---

(١) مركز مدينة اوريل Orel ، في روسيا ، وتقع على نهر الاوكا ، وهي مسقط رأس الاديب المعروف ايفان تورغنييف .

(٢) في القرية الروسية ، المدفأة مكان هام مشيد بالآجر دائم الحرارة ، وفي الشتاء يجعل الفلاحون فراشهم على الجزء الاعلى منها . وغالبا ما يمضي الشيوخ سحابة يومهم في ذاك المكان . في اقصوصة ليون تولستوي الشهيرة « اموات ثلاثة » وصف مسهب لاستعمالها على هذا الوجه .

قرر جدي ، لما رأى انه لن يسعني العمل في الزراعة ، ان يعلمني القراءة . وبما انه لم يكن لدينا كتاب « الف باء » ، كان يستعمل لتدريسي الكتاب المقدس ، هذا الذي معي . فكان يدلني على الاحرف ، ثم يجبرني على تهجئة الكلمات ، ثم على نسخ الاحرف . وهكذا صرت اعرف القراءة على اهون سبيل لكثرة ما رددت وراءه . وفيما بعد ، حين ضعف بصره ، كان يطلب مني قراءة الكتاب المقدس بصوت مرتفع ، فأقرأ ويصحح اخطائي .

وغالبا ما كان كاتب المحكمة ينزل ضيفا على جدي . كان جميل الخط وكنت احب ان اراه يكتب . وبدأت ، من تلقاء نفسي ، برسم الحروف على غراره . فعلمني كيف اعمل واعطاني الورق والمداد وبرى لي اليراع فتعلمت الكتابة كذلك . فسر جدي بذلك وفرح وكان يقول لي : لقد وهبك الله معرفة الحرف ، وستصير رجلا حقا . اشكر الرب واكثر من صلاتك .

وكنا نذهب الى الكنيسة سوية لحضور كافة الخدم ، بل كثيرا ما كنا نصلي في البيت ايضا . كان جدي يطلب الي ان اقول : « يا الله ! ارحمني انا الخاطىء . . . » وكان يركع وجدتي ويسجدان حتى الارض ، او يجثوان اثناء الصلاة على ركبهما . عشت على هذا النحو حتى السابعة عشرة من عمري . وتوفيت جدتي وانا في مقتبل العمر ، فقال لي جدي : ها قد غدونا بلا ربة بيت . كيف لنا ان نتدبر الامر دون امرأة تعتني بنا ؟ ان اخاك البكر لا يصلح لشيء ولسوف ازوجك انت .

فرفضت الزواج بسبب يدي المشلولة ، غير ان جدي الح علي حتى زوجني من فتاة طيبة ورصينة . كانت في العشرين من عمرها . . . وما مضى العام على زواجنا حتى مرض جدي فاشرف على الموت . فدعاني اليه وودعني الوداع الاخير وقال : اني اترك لك البيت وكل ما املك . عش كما يليق ولا تخادع احدا . اجعل الصلاة شغلك الشاغل ، فان كل عطية صالحة من الله تأتي : فلا تتكل الا عليه تعالى . واظب على الكنيسة واقرأ الكتاب المقدس دائما واذكرنا

في صلواتك . هاك الفي روبل فضة ، احتفظ بها ولا تنفقها سدى ، ولكن لا تكن بخيلا شحيحا بل احسن الى الفقـــراء وتصـــدق الى كنائس الله .

توفي جدي فواريته الثرى . واخذ الحســـد يدب في قلب اخي لاني ورثت الفندق ، فجعل يثير متاعب شتى لي . واوغر الشيطان المعاند صدره حتى انه يبيت (بتشديد الياء) قتلي . وفي ذات ليلة ، وبينما نحن نيام ، ولم يكن في الفندق من نزلاء ، تسلل الى غرفـــة المؤن واشعل فيها النار ، بعد ان سطا على كل ما في الصندوق من مال . واستفقنا والنار تلتهم البيت بكامله ، فما كان لنا الا ان نقفز من النافذة ، ولم نأخذ الا ما علينا من ثياب .

وكان الكتاب المقدس تحت الوسادة فأخذناه معنا . وجعلنـــا ننظر الى بيتنا يحترق قائلين : الحمد لله ! لقد سلم الكتاب المقدس من الحرق . سنستطيع على الاقل ان نتعزى فيه عن المصاب الذي حل بنا . هكذا احترق كل ما لنا واختفى اخي من المنطقة . وتفاخر فيما بعد ، وقد شرب ، فعلمنا انه هو الذي سرق الدراهم واشعل البيت نارا .

اصبحنا عراة لا نملك شيئا ، شحاذين بكل معنى الكلمـــة . فاستدنا وعمرنا كوخا حقيرا عشنا فيه عيشة المساكين البؤســـاء . وكانت زوجتي ماهرة لا مثيل لها في الغزل والحياكة والخياطة . كانت تذهب الى بيوت الناس تسألهم ما يريدون ، ثم تعمل ليلا ونهـــارا لتعيلني . فلم يكن بوسعي ، بسبب ذراعي ، حتى صنع الاحذية من الالياف . فكانت ، في اغلب الاحيان ، تغزل او تحيك بينما اقرأ لها الكتاب المقدس وقد جلست قربها ، فتستمـــع الي وتجهش بالبكاء احيانا . ولما كنت اسألها : لماذا تبكين ؟... اننا ، والحمد لله ، لسنا في ضيق او عوز ، كانت تجيب : انا متأثرة لأن الكلام الذي تقرأ في الكتاب المقدس حلو جميل .

لم ننس وصية جدي : فكنا نصوم احيانا كثيرة ونقرأ كل صباح

خدمة مديح العذراء المعروف بالاكاثسطون . واما في المساء ، فكان كل منا يقوم بألف مطانية صغرى (٣) امام الايقونات ، لئلا ندخل في تجربة .

عشنا هكذا بسلام مدة عامين . والمدهش في الامر انه لم يكن لنا اية معرفة بالصلاة الداخلية التي تتلى في القلب . لم نكن قد سمعنا عنها شيئا ، فكان لساننا يصلي وحده ونقوم بالمطانيات بلا فهم . الا ان شهوة الصلاة ، بالرغم من هذا ، كانت فينا ، فلم نكن نستصعب الصلاة العادية الطويلة بل نتممها بفرح . ولا شك في ان معلم المدرسة كان على حق لما قال لي : انه يوجد داخل الانسان قوة عجيبة خفية لا يعرف هو نفسه من اين تأتي ، ولكنها تهيب بكل انسان الى الصلاة حسبما يستطيع ويعرف .

بعد ان عشنا عامين على هذا النحو ، اصيبت زوجتي بحمى شديدة . وفي اليوم التاسع من مرضها توفيت بعد ان تناولت القربان المقدس . وبقيت وحيدا ، ليس من يؤنسني ، ولا بوسعي عمل شيء . ولم يبق لي الا ان استعطي هائما في الارض ، غير اني كنت ارى العار في طلب الصدقة . زد على ذلك ان شقائي عند تفكيري بزوجتي كان عظيما الى حد لم اعرف معه الى اين التفت . فكنت عندما ادخل الكوخ وابصر شيئا من ملابسها او منديلها ، آخذ بالنحيب وانكفىء فاقد الوعي . ولم اعد استطيع احتمال حزني ، اذ اعيش في البيت هكذا . ولذا بعت الكوخ بعشرين روبلا ووزعت على الفقراء ثيابي وملابس زوجتي . واعطيت بسبب ذراعي جواز سفر دائم ، فحملت كتابي المقدس العزيز وانطلقت لا التفت الى ما ورائي .

ولما وصلت الى الطريق العام تساءلت : اين امضي الآن ؟ سأذهب الى « كييف » اولا لأصلي امام ايقونات القديسين واطلب

---

(٣) احناء الراس واعلى الجسم مع رسم اشارة الصليب .

منهم أن يتشفعوا الى الله لكي يعينني . وما صممت على هذا حتى شعرت بتحسن حالي ... ووصلت الى « كييف » وقد انفرجت كربتي . وها قد مضى علي الآن ثلاث عشرة سنة كنت فيها دائم التجوال . ولقد زرت الكثير من الكنائس والاديرة ، غير اني الآن اطوف في البوادي والبراري بنوع خاص . وما ادري اذا ما كان الرب سيسمح لي بالوصول الى مدينة اورشليم المقدسة . وان تكن تلك مشيئة الله فربما يكون قد آن اوان دفن عظامي الحقيرة فيها .

— وما سنك ؟

— ثلاث وثلاثون سنة .

عمر المسيح !

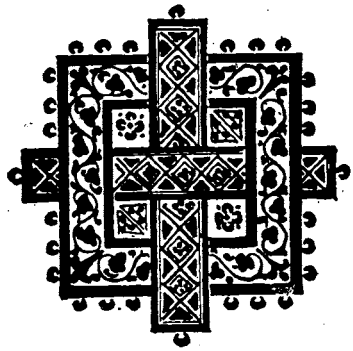

القصة الرابعة

« وانا فحسن لي القرب من الله
وقد جعلت في الرب معتصمي ورجائي » (مز ٧٢ : ٢٨) .

قلت ، وقد عدت الى بيت ابي الروحي : ان المثل القائل « وتقدرون فتضحك الاقدار » لعلى حق . كنت اعتقد انني سأبدأ رحلتي الى مدينة اورشليم المقدسة ، لكنني كان علي ان اغير رأيي . فقد استجد امر لم اكن اتوقعه يقتضي بقائي هنا يومين آخرين او ثلاثة . ولم اطق البقاء دون المجيء اليك لاطلعك على الامر واسألك النصح بصدده . اليك ما جرى :

ودعت الجميع وعدت الى السير مستعينا بالله . وكنت على وشك الخروج من المدينة واذا بي المح ، واقفا بباب اقصى بيوت البلد ، سائحا متقدما لم اره منذ ثلاث سنين . فذهبت اليه وتبادلنا التحية وسألني اين امضي فأجبته : الى اورشليم المقدسة . ان شاء الله .

فقال : حسن ! اني اقترح عليك رفيق درب لك ممتازا .
فقلت : شكرا جزيلا ! افلا تعرف اني لا اتخذ رفيقا ابدا ، واني اسير بمفردي دائما ؟

ـ اجل ! لكن اسمع : انا اعرف ان هذا الرفيق يناسبك ويلائمك . وسيكون كل شيء على ما يرام بالنسبة له معك وبالنسبة

لك بصحبته . ان ابا صاحب هذا البيت ـ وانا اعمل هنا كفاعل ـ قد نذر ان يحج الى اورشليم ، ولن يزعجك شيء برفقته . انه احد تجار البلد ، وهو شيخ طيب ، وهو ، الى ذلك ، اصم لا يسمع حتى ولو صرخت باعلى صوتك . وان اراد منه احد شيئا ، كتبه له على ورقة . انه دائم السكوت ، فلن يزعجك في رحلتك . هذا ، الى ان وجودك كرفيق له لا بد له منه . لقد اعطاه ابنه حصانا وعربة سيبيعهما في اوديسا . والعجوز يريد الذهاب سيرا على قدميه ، اما العربة فسيوضع فيها متاعه وبعض الهدايا لقبر المسيح . وسيكون بوسعك وضع كيسك فيها ... الآن ، فكر . اتظن ان من الممكن ان ندع هذا الشيخ الاصم يسافر وحده ؟ ... بحثنا كثيرا عن سائق ، ولكنهم يطلبون اجرا باهظا . ثم انه من الخطر ان نتركه يذهب مع شخص مجهول ، فان في حوزته مالا وبعض الحاجات الثمينة . الا اني سأكون لك ضامنا وسيسر مني معلمي ، انهم اناس طيبون يحبونني كثيرا . لي سنتان في خدمتهم .

وبعد ان قال هذا ونحن بالباب ، ادخلني على معلمه . ورأيت ان العائلة معتبرة ، فقبلت عرضهم . ولقد قررنا ان نسافر بعد عيد الميلاد بيومين ، ان شاء الله ، بعد حضورنا القداس الالهي .

هذه هي الاحداث غير المنتظرة التي تقع لنا على دروب الحياة ! غير ان من يعمل بواسطة افعالنا ونياتنا انما هو دوما الله تعالى وعنايته الالهية ، كما كتب : « فان الله هو الذي يعمل فيكم الارادة والعمل ... » (فيلبي ٢ : ١٣) .

قال لي ابي الروحي : سر قلبي ايها الاخ الحبيب ، اذ سمح لي الله بأن اعود فأراك من جديد . وبما ان ليس لك ما يشغلك فسأبقيك بعض الوقت تروي لي فيه بعض ما لقيت خلال حياة التجوال التي عشتها ، فلقد طاب لي ان اسمع قصصك السابقة .

فأجبته : بكل سرور . وبدأت اتكلم .

جرى لي من خير الامور ما جرى لي من شرها ، ولا يستطيع المرء ان يروي كل شيء . فان امورا كثيرة قد نسيتها وانا انما

سعيت الى استذكار ما كان من شأنه ان يعيد نفسي الكسولة الى الصلاة . واما كل ما تبقى ، فنادرا ما خطر ببالي ، او بالاحرى حاولت نسيان الماضي ، وفقا لتعليم الرسول بولس وهو القائل : « ... لكن امرا واحدا اجتهد فيه وهو ان انسى ما ورائي وامتد الى ما امامي فأسعى نحو الهدف ... » (فيلبي ٣ : ١٣) . وقد كان السنارتس المغبوط يقول لي ان ما يحول دون بلوغ الصلاة من عقبات قد يأتي من اليمين ومن اليسار (١) اي من المعاند . فان لم يستطع ان يصرف النفس عن الصلاة بالافكار الباطلة او التصورات الآثمة ، بعث فينا ذكريات صالحة او افكارا جميلة لكيما يبعد الذهن عن الصلاة فهو لا يطيق سماعها . ان هذا يدعى التحويل من اليمين : تستخف النفس فيه بالحديث مع الله ، وتبدأ بحديث مستعذب مع ذاتها او مع المخلوقات . ولذا ، فقد علمني الا اترك في ذهني مجالا ، اثناء الصلاة ، لاية فكرة مهما بلغ جمالها وسموها . وان وجدنا ، في آخر النهار ، اننا انفقنا في التأمل او في الاحاديث الروحية من الوقت اكثر مما انفقنا في الصلاة المجردة النقية ، فينبغي اعتبار ذلك من قبيل عدم التبصر او الجشع الروحي الانساني ، خاصة عند المبتدئين الذين يجب ان يفوق ما يمضون من وقت في الصلاة ، الوقت لأوجه النشاط الروحي الاخرى .

لكن المرء لا يمكنه ان ينسى كل شيء . فبعض الذكريات ترسخ في اعماق الذاكرة حتى انها تبقى حية دون ان تستدعى ، كذكرى تلك العائلة البارة ، مثلا ، التي قيض لي الله ان امضي بضعة ايام بين افرادها .

---

(١) انظر : ايفاغريوس البنطي (توفي ٣٩٩) : « رسالة في الصلاة » . « حينما يتوصل العقل الى الصلاة الصافية الحقيقية ، لا يعود الشياطين يقربونه من اليسار بل من اليمين . فيصورون له رؤيا وهمية للسه ، او مرأى مستحبا للحواس ، بصورة تجعله يظن انه اصاب الغاية من الصلاة بالتمام ... » .

عائلة ارثوذكسية تقية

كنت اجتاز مقاطعة « توبولسك » فمررت ذات يوم ببلدة صغيرة . وكان قد انتهى زادي من الخبز تقريبا ، فدخلت احد البيوت لأطلب خبزا . فقال لي رب البيت : جئت في الوقت المناسب ، فان زوجتي اخرجت الخبز من الفرن لتوها . اليك هذا الرغيف الساخن وصل لاجلنا .

وضعت الرغيف في كيسي وانا اشكره ، وراتني ربة البيت فقالت : يا لكيسك المزري ! انه ممزق بال ، دعني اعطيك كيسا غيره . واعطتني كيسا مليحا متينا . وشكرتها من اعماق قلبي وانصرفت . وطلبت عند طرف المدينة قليلا من الملح من احد التجار ، فأعطاني كيسا كاملا ، فاغتبطت للامر وشكرت الله الذي جعلني اتوجه بطلبي الى اناس ابرار طيبين .

قلت في داخلي : ها قد توفر لي زاد اسبوع ، فغدا بوسعي الآن ان انام خالي البال . « باركي يا نفسي الرب ! » (مز ١٠٣ و ١٠٤ : ١) .

وما ابتعدت عن المدينة مسافة خمسة فراسخ حتى لمحت بلدة متوسطة الرقعة فيها كنيسة خشبية صغيرة ، الا انها حسنة الدهان في الخارج ومزينة تزيينا انيقا . وكان الطريق يمر بالقرب

منها ، فاشتهيت ان اسجد امام هيكل الرب . فصعدت درج الكنيسة الصغير وصليت . وكان في مرج يحاذي الكنيسة طفلان صغيران يلعبان ، بين الخامسة والسادسة من العمر . ففكرت انهما ، بالرغم من مظاهر العناية البادية عليهما ، لا شك ابناء الكاهن .

وانهيت صلاتي ، ومضيت ، الا اني ما كدت اخطو عشر خطوات حتى سمعت خلفي من يناديني : انتظر ! انتظر ايها الشحاذ اللطيف !

كان هذا صوت الطفلين يناديانني وهما يركضان مقبلين الي : صبي صغير وبنية ، فتوقفت ، فاسرعا الي وامسكا بيدي :

ـ تعال عند امي ، فهي تحب الشحاذين .
ـ ما انا شحاذا بل عابر سبيل .
ـ وما هذا الكيس ؟
ـ انه خبزي ، زاد رحلتي .
ـ ما عليك ، تعال معنا . ستعطيك ماما نقودا لرحلتك .
ـ واين هي امكما ؟
ـ هناك ، خلف الكنيسة ، وراء الاشجار .

ادخلاني حديقة رائعة ، رأيت في وسطها بيتا كبيرا من بيوت الاغنياء . ودخلنا الردهة . كان كل شيء في غاية النظافة ! وفجأة اقبلت سيدة اسرعت نحونا قائلة : ما اسعدني ! من اين ارسلك الله الينا ؟ اقعد ، اقعد يا عزيزي !

واراحتني من كيسي بنفسها ووضعته على طاولة واقعدتني على كرسي وثير مريح .

ـ اتريد ان تأكل ؟... ان تشرب الشاي ؟... اما لك من حاجة اقضيها ؟

فأجبتها : اشكرك شكرا جزيلا . معي في كيسي ما آكله ، واما الشاي فلا بأس من ان اشرب شيئا منه ... الا اني من الفلاحين

ولست معتادا عليه . ان لطفك وكرمك لاثمن عنـــدي من الطعام والشراب . سوف ابتهـــل الى الرب ان يباركك من اجـــل ضيافتك الانجيلية هذه .

شعرت ، وانا اقول هذا ، برغبة قوية في استجماع افكاري وحواسي . كانت الصلاة تجيش في قلبي وكانت بي حاجة الى الهدوء والسكينة حتى ادع هذا اللهب ينطلق دون قيد فـــلا اخفي معالـــم الصلاة الخارجية ، من دموع وتنهدات وحركات الوجه او الشفتين . ولذا نهضت وقلت :

استميحك عذرا ... يجب ان اذهب . فليكن الرب يســـوع المسيح معك ومع ولديك الصغيرين الظريفين .

ـــ آه !... لا ! الله يخليـــك : لا تذهب !... لن ادعـــك تنصرف . سوف يعود زوجي من المدينة في المساء ، انـــه قاض في محكمة المقاطعة . وسيسر غاية السرور برؤيتك ! انه يعتبر كل سائح مرسلا من الله . ثم ان غدا يوم احد ، وستصلي معنا القـــداس الالهي ، وما يجود به تعالى سوف نأكله سوية . نحن نستقبـــل في بيتنا دائما ، ايام الاعياد ، ما لا يقل عن ثلاثين فقيرا مسكينا ، فالفقير اخو المسيح . وبعد ، انك لم تخبرني عن نفسك ، لا من اين اتيت ولا الى اين تذهب . احك لي ذلك ، فانه يطيب لي الاستماع الى حديث الذين يحبون الرب ... يا ولدي ! خذا كيس السائح الى غرفـــة الايقونات ، فسوف يمضي ليلته فيها .

تعجبت ، عند سماعي هذا ، وقلت في داخلي : اهذه المـــراة كائن بشري ام ملاك تراءى لي ؟

وهكذا بقيت بانتظار رب البيت . وقصصت على السيـــدة شيئا من اخبار رحلتي ، وقلت لها انني ذاهب الى « اركوتسك » .

فقالت : حسن ! ان طريقك تمر « بتوبولسك » ، حيث تقيـــم امي في دير لتترهب . سنحملك رسالة لها ، ولســـوف تستقبلك . كثيرون يقصدونها ويسألونها توجيهات روحية . على كل حـــال ،

سنرسل لها معك كتابا من تاليف القديس يوحنا السلمي (١) اوصينا لها عليه من موسكو . ها قد ترتب كل شيء ، فمـــا احسن تدبير الرب ! .

ولما حان موعد الغداء جلسنا للأكل . وكان هناك اربع سيدات اخر جلسن معنا . وبعد الفراغ من تناول الصنف الاول ، نهضت احداهن وانحنت امام الايقونة ثم امامنـــا وذهبـــت لتأتي بالصنف الثاني . وعند الصنف الثالث ، قامت سيدة غيرهـــا وفعلت نفس الشيء . فقلت محدثا ربة البيت ، وقد رايت هذا :

ـــ هل لي ان اسألك ان كانت هؤلاء السيـــدات من افـــراد عائلتك ؟

ـــ نعم ! انهن اخواتي : الطباخة ، وزوجـــة العربجـــي ، والخادمة وفراشتي . كلهن متزوجات ولا عزباء بينهن .

لما رأيت وسمعت كل هذا زادت دهشتي وشكرت الرب الذي قادني الى بيت جماعة اتقياء ورعين . وكنت اشعر بالصلاة تتصاعد في قلبي بقوة ، ولذا نهضت لكي اختلي وقلت للسيدة : لا شك انكن ترتحن بعد الغداء ، لكني شخصيا الفت المشي واعتدته . انا ذاهب الى الحديقة اتمشى .

فقالت السيدة : كلا ! انا لا ارتاح بعد الغداء . سأرافقك الى

---

(١) يوحنا السلمي (٥٧٩ ـــ ٦٤٨) المدعـــو ايضا يوحنـــا السينائـــي ، هـــو احد كبار الاباء الروحيين . قضى كل ايام حياته في القفر على سفح الجبـــل المقدس ، ما عدا السنين القليلة التي اشرف خلالها على ادارة دير القديسة كاترينا في سيناء .

اشهر مؤلفاته هو « سلم الفردوس » (او سلم الفضائل) وهو مؤلف جزيل البيان في مراحل الحياة الروحية . وفي « سلم الفردوس » هذا نجد اول اشارة الى « صلاة يسوع » : « فلتكن صلاة يسوع وتنفسك امرا واحدا وستعرف ثمرة السكوت والعزلة » .

وقد نشر هذا الكتاب بترجمة عربية جديدة لرهبنة دير مار جرجس الحرف عن منشورات النور (١٩٨٠) .

الحديقة فتقص علي ما فيه فائدة لي وعبرة . ان ذهبت وحدك ، فلن يدعك ولداي ترتاح ، بل سيلازمانك طوال الوقت لانهما يحبان الفقراء اخوة المسيح والسائحين حبا جما .

لم يعد لي في الامر حيلة ، فذهبنا الى الحديقة معا . ولما كنت اود ان الزم الصمت بصورة لائقة ، انحنيت للسيدة وقلت : ارجوك سيدتي ان تقولي لي ان كنت تمارسين حياة الورع هذه منذ زمان طويل . قصي علي كيف توصلت الى هذه الدرجة من الصلاح .

فقالت : ليس الامر بعسير : ان والدتي من احفاد القديس يوشافاط (٢) الذي تكرم بقاياه في مدينة « بلغورود » . كان لنا في هذه المدينة بيت كبير اجرنا جناحا منه لأحد النبلاء القليلي الثروة . وحدث ان توفي النبيل كما ماتت زوجته بعد ان انجبت طفلا اصبح ، بموت والدته ، يتيما لا معيل له . فاحتضنته امي . ثم ولدت في العام الذي تلا ذلك . وترعرعنا سوية ، وكان إنا نفس المعلمين ، وكان لي أخا وكنت له اختا . ولما توفي والدي نزحت والدتي عن المدينة واتت الى هذه القرية تقيم فيها معنا . ولما كبرنا ، زوجتني امي من فليونها (٣) ووهبتنا هذه القرية وقررت دخول الدير . ثم باركتنا واوصتنا بان نعيش عيشة مسيحية ، وان نصلي من كل قلبنا ونحافظ اكثر ما نحافظ على الوصية الاولى : وصية محبة القريب ، وذلك بمساعدتنا الفقراء اخوة المسيح ، وتربية اولادنا بخوف الله ومعاملتنا فلاحينا كاخوة لنا . وها قد مضى علينا عشر سنين نعيش في عزلتنا هذه ساعين الى العمل بنصائح والدتنا . وقد فتحنا مأوى للفقراء ، فيه اكثر من عشرة منهم في الوقت الحاضر ، بين مقعد ومريض . سنزورهم غدا ، ان كنت تريد .

---

(٢) اسمه كعلماني يواكيم كورلينكو . ولد عام ١٧٠٥ وتوفي سنة ١٧٥٤ . ترهب منذ الثامنة عشرة من عمره وترك عدة مؤلفات منها « معركة الخطايا السبع من الفضائل السبع » المنشور في كييف عام ١٨٩٢ .

(٣) الشخص الذي حمل من جرن المعمودية بالنسبة للعراب او العرابة .

سألتها وقد فرغت من حديثها :
ـــ واين كتاب يوحنا السلمي الذي تريدين ارساله الى والدتك ؟
ـــ دعنا نعود الى البيت وسوف اريك اياه .

رجعنا الى البيت ، وما كدنا نبدأ بالقراءة حتى وصل زوجها ، فتبادلنا القبل كأخوة في المسيح ، ثم اصطحبني الى غرفتـــه قائلا : تعال ايها الاخ الى مكتبي وبارك حجرتي . اعتقـــد انهـــا اضجرتك (وكان يشير الى زوجته) . عندما ترى سائحا او مريضا ، يغمرها فرح عظيم بحيث لا تتركه لا ليلا ولا نهارا . انها عادة قديمة توارثها اعضاء عائلتها كابرا عن كابر .

وصلنا مكتبه ودخلناه . ما اكثر ما فيه من كتب ! وكان الى جانب هذه ايقونات رائعة عظيمة وصليب بالحجم الطبيعي وضـــع امامه الانجيل . فرسمت علامة الصليب وقلت : عنـــدك في البيت يا سيدي جنة الله : فها هوذا الرب يسوع المسيح ، وها هي امه الكلية الطهارة ، وها خدامه القديسون الابـــرار ، وهـــا هي ذي اقوالهم وتعاليمهم حية باقية . اظن انك تكثـــر من تمتعك بالتحدث اليهم .

فقال : اجل ! فاني احب القراءة حبا جما .
فسألته : واي نوع من الكتب تقتني ؟

ـــ عندي الكثير من الكتب الدينية : فهذا هـــو الميناون وهـــا مؤلفات يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير (٤) . ولدي ، من جهة اخرى ، الكثير من الكتب الفلسفية واللاهوتية ، والعديد من عظات

---

(٤) رئيس اساقفة قيصرية الكبادوك ، احد « الاقمار الثلاثة » ومن كبار الاباء . ترك مؤلفات عديدة في اللاهوت والحياة الرهبانيـــة وشروحـــات الكتـــاب المقـــدس (٣٣٠ ـــ ٣٧٩) .

الوعاظ المعاصرين . لقد كلفتني هذه المكتبة مبلـغ خمسة آلاف روبل .

فسألته : اعندك يا ترى كتاب يبحث في الصلاة ؟

ـ اني احب الكتب التي تبحث في الصلاة حبا عظيما . هـذا كتيب جديد الفه كاهن من « بطرسبرج » .

واخرج من بين الكتب شرحا للصلاة الربانية واخذنا نقراه . وبعد قليل جاءت زوجته تحمل الشاي بينما حمل الصغـيران سلة ملأى بنوع من الحلوى لم اذق مثله في حياتي .

اخذ السيد مني الكتاب واعطاه لزوجته وقال : سوف تقرا لنا ، انها تتقن القراءة وتجيدها ، ونحن نتغدى اثناء ذلك .

واخذت السيدة بالقراءة . كنت وانا استمع احس بالصـلاة تتصاعد في قلبي . وكلما امعنت السيـدة في القـراءة نمت الصلاة في (بتشديد الياء) وتزايدت وتعاظم سروري . وفجأة لاح لي خيال يجتاز الهواء بسرعة ، خيال كأنه الستارتس المتوفي . فأتيت بحركة ، غير اني قلت ، بغية التمويه : « معذرة ، لقد اغفيت » . وشعرت عندها ان روح الستارتس حلت في روحي وانارتهـا ، واحسست ان في داخلي نورا مشرقا وافكارا متعددة عن الصـلاة . ورسمت علامة الصليب محاولا طرد هذه الافكار فأنهت السيدة قراءتها وسألني السيد هل اعجبني ما قرات . دار الحديث حول هـذا الموضوع فقلت :

ـ انه يعجبني كثيرا ، ان صلاة « ابانا ... » في كل حـال اسمى وافضل من كل ما عندنا من صلوات مكتوبة لان السيد يسوع المسيح قد علمنا اياها بذاته . والشرح الذي قرأناه عنها حسن جيد ولكنه يعنى بأكمله بحياة المسيحي العملية ، بينما قد قرات للآبـاء شرحا يغلب عليه الطابع الصوفي ، موجها ناحية التأمل .

ـ وعند من (بفتح الميم) من الآباء وجدت ذلك ؟

— عند مكسيموس المعترف (٥) مثلا ، وفي الفيلوكاليا ، عند بطرس الدمشقي (٦) .

— وهل تذكر ما قرأت ؟ اعده على مسامعنا ان استطعت .

— بكل سرور . مطلع الصلاة : « ابانا الذي في السموات » ، جاء في الكتاب الذي قرأناه الآن ان هذه الكلمات تعني انه ينبغي ان نحب قريبنا محبة اخ لاننا جميعا ابناء اب واحد . هذا صحيح وحق ، الا ان الآباء يضيفون اليه شرحا يتميز بروحانيته . يقولون : علينا ونحن نتلفظ بهذه الكلمات ، ان نرفع الروح نحو الآب السماوي ، ونتذكر انه علينا ان نكون في كل آن في حضرة الله . واما عبارة : ليتقدس اسمك ، فيفسرها كتابكم بضرورة عدم ذكر اسم الله باطلا ، لكن الشراح الصوفيين يرون فيها طلب المصلي الى الله ان يمنحه صلاة القلب الداخلية ، يعني : لكي يتقدس اسم الله ، يجب ان يكون راسخا داخل القلب ، وان يقدس وينير ، بالصلاة الدائمة ، كل مشاعر النفس وكل قواها . واما قولنا : « ليأت ملكوتك » ، فيشرحه الآباء على هذه الصورة : فليحل في قلبنا السلام الداخلي والراحة والفرح الروحي . يقول كتابكم ان عبارة : « خبزنا الجوهري اعطنا اليوم » تتعلق باحتياجات حياتنا الجسدية وبما هو ضروري لمساعدة القريب .

---

(٥) مكسيموس المعترف (حوالي ٥٨٠ — ٦٦٢) ، اكبر لاهوتيي بيزنطية في القرن السابع . كان اول الامر كاتم سر الامبراطور هيراقليوس ، ثم ترهب في دير خريزوبولس (قرب القسطنطينية) ثم صار رئيسا لهذا الدير . حارب الهرطقات ثم اضطر الى الاعتزال في افريقيا الشمالية ورومية . القي القبض عليه عام ٦٥٣ واعيد الى بيزنطية وعذب من اجل ايمانه . انهى حياته منفيا منسيا في احد الاديرة . شرح رسالة ديونيسيوس الاريوباغي فجرد تعاليمه من كل اثر للافلاطونية الحديثة .

(٦) يدعى ايضا بطرس منصور يختلف العلماء على تحديد تاريخ حياته . وقد يذهب البعض الى القول انه كان اسقف دمشق حوالي عام ٧٧٥ وقد استشهد في العربية . ويقول البعض الآخر انه عاش في القرن الحادي عشر .

لكن مكسيموس المعترف يرى في الخبز الجوهري الخبـــز السماوي الذي يغذي الروح ، اي كلمة الله ، واتحاد النفس به تعالى بالتأمل وبالصلاة القلبية الدائمة .

فتعجب السيد قائلا :

ـــ آه ! ان الصلاة الداخلية امر صعب ، وهي شبه مستحيلة على الذين يعيشون في العالم ، فنحن لولا معونة الرب ومساعدته لما اتممنا حتى الصلاة العادية دون تكاسل .

ـــ لا تتكلم هكذا يا سيدي . فلو كانت الصلاة الداخلية فوق طاقة البشر ، لما اوصى الله بها الجميـــع . « قوتـــي في الضعف تكمل » (٢ كور ١٢ : ٩) ، والآباء يعدون لنا من الوسائل ما يسهل الطريق الموصلة الى الصلاة الداخلية .

فقال السيد : لم اقرا قط شيئا محكما عن هذا الموضوع .

ـــ سأقرا لك ، ان كنت تريد ، فقرات من الفيلوكاليا .

واخذت الفيلوكاليا وبحثت عن مقطع لبطـــرس الدمشقي في الصفحة ٤٨ من الجزء الثالث وقرات ما يأتي :

« يجب التدرب على ذكر اسم الله بقدر ممارستنا التنفس ، في كل حين وفي كل مكان وفي كل ظرف . قال الرسول : « صلوا بلا انقطاع » . وهو يعلم بهذا انه يجب تذكر الله في كل زمان وفي كل مكان وفي كل شيء . ان كنت تصنع شيئا ما ، فعليك التفكير بخالق كل الموجودات . ان رايت النور تذكر ذاك الذي وهبك النور . وان تأملت في السماء والارض والبحر وكل ما فيها فاعجب بها وسبح بحمد ذاك الذي خلقها ومجده . ان اكتسيت برداء ، ففكر بالذي منه اتاك واشكره هو الذي يتدارك وجودك . وصفوة القول : فلتكن كل حركة تأتيها دافعا الى تعظيم الرب ، وهكذا تكون في صـــلاة لا تنقطـــع . وتكون روحك في فرح دائم » .

انظروا ما ابسط هذه الطريقة واسهلها ، كيف انها في متناول ابسط الناس .

واعجبوا بهذا النص كثيرا . وقبلني السيد بحرارة وشكرني ثم نظر الى الفيلوكاليا وقال : لا بد لي من مشترى هـذا الكتاب . سأوصي عليه في « بطرسبرج » . ولكني سأنسخ فورا المقطع الذي قرأته ، لكي اتذكر الامر فلا انسى . امل علي .

وسرعان ما كتبه بخط جميل . ثم هتف : يا الله ! عندي ــ يا للصدفة ــ ايقونة الدمشقي (كانت ، اغلب الظن ، ايقونة القديس يوحنا الدمشقي) (٧) .

وفتح اطار الصورة وعلق الورقة التي كتبها لتوه تحت الايقونة وهو يقول : ان كلمة حية لأحد عباد الله موضوعة تحت صورته ، ستدفعني مرارا الى العمل بهذه النصيحة الخلاصية . ثم ذهبنا نتعشى . عاد الجميع الى المائدة معنا ، نساء ورجالا . ما اشد السكينة الخاشعة والهدوء الذي ساد اثناء الطعام ! وبعد العشاء ، صلينا جميعا ، بما فينا الاطفال وطلب الي قراءة صلاة يسوع الحلو .

وذهب الخدم للنوم فبقينا نحن الثلاثة في القاعة . وعندها جلبت لي السيدة قميصا بيضاء وجوارب ، فانحنيت باحترام وقلت :

ــ سيدتي ، لا استطيع ان آخذ الجوارب ، فما استعملتها في حياتي ، فنحن انما نستخدم لفائف حول الارجل .

فعادت الي بعد لحظة بقميص صفراء قديمة من الجوخ الثمين فلففته لفائف . واعلن السيد ان حذائي لم يعد يصلح لشيء ، فجلب لي زوجا جديدا كان يحتذيه فوق جزمته وقال لي : ادخل هاتيك

---

(٧) ولد في دمشق حوالي ٦٧٢ من عائلة من اشراف المدينة المقربين الى الخليفة يزيد وقد تولى رئاسة ديوان الشورى . ولكن هذا لم يمنعه من المساهمة في الدفاع عن المعقيدة الارثوذكسية ضد الهراطقة . ثم ترك العالم وترهب في دير القديس سابا في فلسطين حيث توفاه الله حوالي سنة ٧٤٩ . ولقد كتب العديد من المؤلفات اللاهوتية التي تركت اثرا عميقا على الاجيال اللاحقة .

الغرفة ، ليس فيها احد ، يمكنك ان تغير فيها ملابسك الداخلية .

فذهبت وغيرت ملابسي وعدت اليهما . فاقعداني على كرسي واخذا في تلبيسي حذائي . وكان السيد يلف اللفائف حول ساقي بينما انهمكت السيدة بنعلي الحذاء . وما كنت اريد اول الامر ان ادعهما يفعلان ، غير انهما اقعداني وقالا : اقعد واسكت ، المسيح غسل ارجل تلاميذه . وما استطعت مقاومتهما واخذت ابكي ، فبكيا هما ايضا .

ذهبت السيدة الى جانب طفليها لتنام بقربهما ، وخرجت مع السيد الى الحديقة نتجاذب اطراف الحديث في مقصورة فيها . واطلنا السهر . استلقينا على الارض وجعلنا نتحدث . واقترب مني فجأة وقال لي :

ـ اجبني بالذمة والحقيقة ، من انت ؟ انك لا شك من النبلاء تتظاهر بغير ذلك . انت تتقن القراءة والكتابة اتقانا تاما ، تفكيرك وكلامك كالمتعلمين ، فانت ، بالتأكيد لم تنشأ نشأ الفلاحين .

ـ لقد حدثتك وزوجتك دون غش ، وكشفت عن اصلي بكل صراحة ولم افكر قط بالكذب او بخداعكما . ولم افعل ذلك ؟ ان ما اقول ليس مني بل من الستارتس الحكيم ومن الآباء الذين قرأت ما اعلم في مؤلفاتهم . والصلاة الداخلية التي تبدد جهلي وتنير ذهني لم اكتسبها بنفسي بل تولدت في قلبي برحمة الله وبفضل تعليم الستارتس . بوسع كل انسان ان يفعل ما افعل ويكفي ان يستغرق المرء في قلبه بهدوء وصمت وان يلهج بذكر اسم يسوع المسيح . وسرعان ما يكتشف النور الداخلي ، فيغدو كل شيء واضحا وضوحا تظهر معه بعض اسرار ملكوت الله . بل انه لسر عظيم ان يكتشف الانسان مقدرته على الغوص في اعماق ذاته ومعرفة نفسه حق المعرفة وان يبكي متئدا على سقطته وعلى فساد ارادته . وليس من الصعب جدا ان يفكر الانسان تفكيرا سليما وان يحادث الناس . انه امر ممكن ؛ فان الروح والقلب وجدا قبل ان توجد المعرفة البشرية

والحكمة الانسانية . ومهما تثقف الانسان بالعلم او بالخبرة فلن تفيده تربيته ان لم يكن لديه الذكاء . والقضية هي اننا بعيدون عن ذواتنا ولا نرغب قط في الاقتراب من انفسنا ، بل نفر دائما لئلا نقابل ذاتنا وجها لوجه ، فنفضل الترهات على الحقيقة ونفكر على هذا النحو : كان بودي ان اعتني بحياتي الروحية وان اشغل نفسي بالصلاة ، ولكن ليس لي من الوقت متسع ، اذ تقف الاشغال والهموم حائلا دون ذلك . ولكن ، ما الاهم وما الاشد ضرورة : الحياة الابدية لنفس تقدست ، او حياة الجسد الفانية التي من اجلها نتعب ونشقى ؟ وهكذا يبلغ الناس اما الحكمة واما الجهالة والحماقة .

ـ اعذرني ايها الاخ العزيز ، لم يكن السبب في كلامي مجرد حب الاطلاع ، بل المحبة المسيحية ، ثم انه عرض لي منذ عامين امر في غاية الغرابة .

وفد علينا ذات يوم فقير مسن خائر القوى . كان معه تذكرة جندي سرح من الخدمة وكان فقره مدقعا حتى انه كان شبه عار . وكان قليل الكلام ، وحديثه يشبه حديث الفلاحين . انزلناه المأوى ، وبعد خمسة ايام من مجيئه مرض فنقلناه الى هذه المقصورة واوليته انا وزوجتي كل عناية . ولما لاح لنا بما لا يقبل الشك انه سوف يتوفى ، عرفه (بتشديد الراء) الكاهن وزوده بالاسرار المقدسة . وعشية وفاته ، نهض من الفراش وطلب مني ورقا وريشة والح كي يبقى الباب مغلقا ولا يدخل احد اثناء كتابته وصيته التي كلفني بارسالها الى ابنه في « بطرسبرج » . واخذني العجب والدهشة لما رأيت انه يتقن الكتابة على احسن ما يكون وان كتابته صحيحة بل جميلة راقية ملأى بالعاطفة . غدا اريك هذه الوصية ، فقد احتفظت بنسخة عنها . اثار كل ذلك عجبي وشديد فضولي فسألته ان يقص علي خبر نشأته وحياته . فجعلني اقسم بألا ابوح بشيء لكائن قبل موته ، ثم قص علي ما يلي لمجد الله :

ـ كنت اميرا غنيا وكنت احيا حياة طيش مرموقة فخمة .

وكانت امرأتي قد توفيت فكنت اعيش مع ابني الذي كان حينذاك قائدا في الحرس الامبراطوري . ثرت غاضبا ذات مساء وكنت اتهيأ للذهاب الى حفلة راقصة كبرى ، غضبت على وصيفي ، وضربته على رأسه وقد نفد صبري وامرت بطرده . حدث هذا في المساء ، وفي الصباح التالي مات الخادم من التهاب اصابه في دماغه. ولم يعلق احد اهمية تذكر على الحادث ، ونسيت القضية نسيانا تاما مع اسفي للجوئي الى العنف . ولكن ما مضت ستة اسابيع حتى اخذ الوصيف يظهر لي في الحلم . كان يأتي لمضايقتي في كل ليلة ويؤنبني مرددا باستمرار : ايها الرجل الذي لا ضمير له ، لقد قتلتني ! ثم رأيته ايضا اثناء يقظتي . وتكررت الرؤيا وزاد ظهورها ، حتى كان الخادم آخر الامر امامي في كل حين . واخيرا صرت ارى بنفس الوقت الذي يظهر لي فيه خادمي اموانا غيره : رجالا اهنتهم بفظاظة او نساء اغويت . وكانوا جميعا يوجهون الي اللوم فلم تبق لي من راحة ، حتى اني اصبحت لا استطيع النوم ولا الاكل ولا القيام باي عمل . خارت قواي وتهدمت صحتي فلصق جلدي بعظمي . ذهبت جهود نطس الاطباء عبثا ، فرحلت استشفي في الخارج ، ولكني لاحظت بعد ستة اشهر ان ليس من تحسن في حالتي ، بل على العكس تزايدت الرؤى الرهيبة ظهورا امامي . فعادوا بي الى منزلي ميتا اكثر مني حيا . لقد عرفت روحي قبل انفصالها عن جسدي عذابات الجحيم كلها وآلامه ، فصرت اعتبارا من ذلك الوقت اؤمن بالجحيم فقد عرفت ما هي .

وفهمت ، وانا وسط تلك العذابات ، ما انا عليه من قباحة ، فندمت واعترفت بخطاياي واعتقت كل خدمي ونذرت بان امضي ما تبقى من عمري في اقسى الاعمال وان اتنكر بثياب الفقراء لكي اكون احقر خادم لادنى الناس مرتبة . وما صممت على هذا وعزمت عليه حتى زالت الرؤى . وولدت في (بتشديد الياء) مصالحتي مع الله فرحا عظيما وتعزية لا يعبر عنهما بالحقيقة . وفهمت عندئذ ايضا بالاختبار ما هو النعيم وكيف ان ملكوت الله كامن في قلوبنا .

وسرعان ما شفيت شفاء تاما ، فباشرت بتنفيذ خطتي . فتزودت ببطاقة هوية لجندي سابق وتركت مسقط راسي سرا . وها قد مضى علي الآن خمسة عشر عاما اطوف في انحاء سيبيريا . وقد كريت نفسي احيانا للفلاحين لاقوم ببعض الاعمال التي تسمح لي بها قواي ، واستعطيت احيانا باسم المسيح . ما اعظم السعادة التي عرفتها وانا وسط الحرمان هذا ! يا للغبطة ويا لراحة الضمير ! ولن يفهم هذا الا امرؤ انتشلته الرحمة الالهية من جحيم من العذاب لتنقله الى فردوس الله . وعندما قال هذا سلمني وصيته لارسالها الى ابنه ، وفي غداة ذلك اليوم توفي .

ـ خذ ، لدي نسخة من الوصية في الكتاب المقدس الذي احمله في كيسي . سأريك اياها ان كنت تريد . ها هي !

فنشرت الورقة وقرات :

« المجد للثالوث القدوس غير المنقسم كل حين . يا ولدي الاعز ، ها قد مضى عليك خمسة عشر عاما لم تر والدك خلالها ، ولكنه كان احيانا ، في حياته المتخفية يتلقى شيئا من اخبارك ، ولكن لك في قلبه محبته الابوية . وهذه المحبة هي التي تدفعه الى كتابة هذه الكلمات الاخيرة ، لعلها تكون لك عبرة في الحياة ودرسا .

انت تعلم مقدار ما تعذبت في سبيل تكفيري عن حياتي الآثمة الطائشة ، ولكنك لا تعلم مقدار ما جنيته من ثمار الندم ، خلال حياتي المجهولة في الطواف ، من سعادة وغبطة .

انا اموت بسلام في بيت محسن الي هو ايضا محسن اليك ، لان الخيرات الممنوحة للاب ينبغي ان تبلغ الابن الحنون . فاظهر له امتنانك بكل ما في امكانك من وسائل .

اترك لك بركتي الابوية حائا اياك على تذكر الله والعمل بما يمليه عليك ضميرك . كن طيبا وحريصا ومتعقلا . عامل الادنى منك بالحسنى ، لا تزدر الفقراء او السائحين متذكرا ان الفقر وحياة التشرد فقط هي التي سمحت لوالدك بان يحظى بالسلام .

اسأل الله ان يهبك نعمته واغلق جفني بسلام على رجاء

الحياة الابدية برحمة فادينا يسوع المسيح » .

على هذا النحو دار الحديث بيني وبين ذاك السيد الطيب . قلت له فجأة : اعتقد ، سيدي ، ان المأوى يسبب لكم الكثير من المتاعب والعناء . فان العديدين من اخوتنا لا يصبحون من السائحين الا لتقاعسهم او كسلهم ، فيشردون في الطرقات على غير هدى ، وقد رأيت الكثير من ذلك .

فأجاب السيد : كلا ! قلة كان امثال هؤلاء . فاغلب الذين نؤاويهم سائحون حقيقيون . ولكن ، عندما لا يوحي مظهرهم بالثقة فنحن نعاملهم بلطف زائد ونستبقيهم بعض الوقت في المأوى . فانهم ، باحتكاكهم بفقرائنا اخوة المسيح ، كثيرا ما يصطلحون ويستقيمون ، فيرحلون عنا بقلب كله تواضع ورقة . عرض لي منذ مدة غير طويلة امر اذكره لك على سبيل المثال : تدنى احد تجار مدينتنا في سلم الرذيلة الى حد ان الجميع كانوا يطردونه بالضرب والعصي ، فما كان احد يجود عليه حتى بكسرة الخبز ، وقد افتقر وراح يستعطي . وكان سكيرا ميالا الى العنف مشاغبا . يجمع الى هذه القبائح كلها انه كان يسرق . وفد علينا ذات يوم ، وقد ساقه الينا الجوع فطلب خبزا وشيئا من العرق ، فقد كان يدمن الشرب ايضا . رحبنا به ورفقنا وقلنا له :

— ابق عندنا ، وسنعطيك ما تشاء ، ولكن على شرط واحد : ان تذهب للنوم بعد الشرب مباشرة ، وان انت اتيت ادنى منكر فلن نكتفي بطردك نهائيا بل سأطلب من حاكم المقاطعة ان يسجنك لتشردك . فقبل ذلك وبقي عندنا . فشرب ، خلال اسبوع او يزيد ، ما طاب له الشراب ولكنه كان ، برا بالعهد الذي قطعناه عليه وربما خوفا من ان يحرم العرق ، يذهب فيستلقي في فراشه او يتمدد بهدوء منزويا في احد اركان الحديقة . ولما كان يعود الى رشده ، كان اخوتنا الذين في المأوى يكلمونه ويحرضونه على الاعتدال في الشرب . وهكذا بدأ بالتقليل من الشرب ، وبعد ثلاثة اشهر ، اصبح لا يذوق للخمرة

طعما . وهو الآن يعمل لا ادري اين وما عاد يأكل خبز غيره . ولقد زارني اول امس .

ففكرت في ذاتي : يا لحكمة هذا النظام تسيرهـا المحبـة ! وهتفت : مبارك الله ، الذي تظهر رحمته بين جدران بيتك !

غفونا قليلا ، بعد كل هذه الاحاديث ، واستيقظنا على صوت الجرس يدق لصلاة الصبح ، فذهبنا الى الكنيسـة حيث وجدنـا السيدة مع ولديها ، وصلينا صلاة السحر ثم القداس الالهي . كنت مع السيد وابنه الصغير في الهيكل وكانت السيدة مع ابنتها قـرب الباب الملوكي لتشاهدا عن كثب رفع القربان المقدس . بالله ! ما كان اجمل صلاتهم جميعا ، وكم ذرفوا من دمـوع الفـرح ! كانت وجوههم بهية مشرقة اشراقا جعلني ابكي لجلاله .

وبعد الصلاة جلس السيدان والكاهن مع الخدم وكافة فقراء المأوى حول مائدة واحدة للطعام . كان عدد الفقراء اربعين او يزيد ، من مقعدين ومرضى واطفال . ولكن السكون والصمت كانا عميقين حول المائدة . فاستجمعت شتات شجاعتـي وقلت للسيـد بصوت خافت : في الاديرة ، تقرأ حياة القديسين اثناء الطعام ، وبوسعكم ان تفعلوا هذا ما دام الميناون بكامله عندكم . فالتفت رب البيت الى زوجته وقال : انه ليجب ان نباشر بهذا ، يا مريم . فهو شيء ممتاز لنا جميعا . سأبدأ بالقراءة لاول مرة ، وفي المرة الثانية تقرئين انت ، ثم ابونا الكاهن واخوتنا ، كل بدوره وبقدر معرفته .

فتوقف الكاهن عن الطعام وقال : ان استمع ، بكل سرور ، اما ان اقرأ فحاشا ! ليس في وقتي ادنى فراغ . فلا اكاد ادخـل البيت حتى احار من كثرة ما علي فعله فـلا اجد سـوى الاعمـال والمتاعب : ينبغي ان افعل هذا الامر ، ينبغي ان افعل ذلك ، جحفل من الاطفال والدواب في الحقول . ويمضي النهار على هذه الترهات لا اجد دقيقة فيها متسع لي للقراءة او الدرس . وكل ما تعلمته في الدير ، نسيته منذ زمان طويل .

وارتعشت لهذه الكلمات ، الا ان السيدة امسكت بيدي وقالت

لي : ابونا يتكلم على هذا النحو لتواضعه . انه يغض من قيمته الشخصية ، لكنه رجل فاضل تقي . ولقد ترمل منذ عشرين عاما ، وهو يقوم بتربية كل احفاده . وهو ، الى جانب اعماله كلها ، يكثر من خدمة الكنيسة وقداديسه .

ذكرتني هذه الكلمات بما قاله نيسيتاس ستيثاتوس (٨) في كتاب الفيلوكاليا من ان : « المرء انما يقدر طبيعة الاشياء تبعا لاستعداد نفسه الداخلي » ، اي ان فكرة الانسان عن الآخرين تأتي وفقا لما يكون عليه هو . وقال ايضا في موضع آخر : « ان من بلغ درجة الصلاة والمحبة الحقيقية لا يعود يفرق بين الاشياء ، فلا يميز صالحها عن طالحها ، بل يحب كل الناس محبة واحدة ، ولا يدين اخوته ، كما ان الاب السماوي يطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين » (متى ٥ : ٤٥) .

وساد الصمت من جديد . كان يجلس مقابلي احد فقراء المأوى ، اعمى لا يرى ولا يبصر . وكان السيد يطعمه وينتزع له الحسك من السمك ، ويملأ كأسه ماء . وامعنت النظر فيه ، فلاحظت تحرك لسانه باستمرار داخل فمه المفتوح قليلا بصورة دائمة ، مما دعاني الى التساؤل هل كان يتلو الصلاة ، وزدت فيه امعان النظر . وحدث ان امرأة مسنة توعكت حالها في نهاية العشاء ، أصابها ضيق نفس واخذت تئن . فحملها السيد وزوجته ووضعاها في غرفة نومهما ومدداها على الفراش ، وبقيت السيدة بجانبها تعتني بها ، بينما ذهب الكاهن يجلب القربان المقدس تحسبا. وامر السيد باعداد العربة ليذهب بسرعة الى المدينة يستدعي الطبيب . وتفرق الجميع .

---

(٨) هو راهب بيزنطي من دير السوتديون عاش في عهد البطريرك القسطنطيني ميخائيل كرولاريوس وساهم في الجدال اللاهوتي الذي دار بين الشرق والغرب ابان الانشقاق الكبير في اوائل القرن الحادي عشر .

كنت وكأن بي جوعا الى الصلاة ، شعرت بحاجة ماسة الى تركها تنطلق، وقد مضى علي يومان لم احظ فيهما بالصمت والسكينة. كنت احس كأن في قلبي فيضا يوشك ان يطفح فيسري في كل اعضائي، ولكني كبته فاذا بألم في قلبي شديد ولكنه الم مفيد ما دام يدفعني الى الصلاة والصمت . عند هذا فهمت لماذا كان معتنقو الصلاة المستديمة يهجرون العالم ويستخفون بعيدا عن اعين الناس ، وفهمت ايضا لماذا قال المغبوط ايزيخيوس ان اي حديث ، مهما سما ، ليس الا ثرثرة ، ان طال اكثر مما ينزم . وذكرت قول القديس افرام السرياني (٩) : « الكلام الجيد من فضة ، ولكن السكوت من الذهب الصرف » . وصلت وانا افكر بكل هذا الى المأوى . وكان جميع من فيه نام بعد الطعام . صعدت الى الهري وهدأت من اضطرابي وارتحت وصليت قليلا . ولما استيقظ الفقراء قصدت الاعمى وقدته الى الحديقة ، وقعدنا في ركن منزو واخذنا في التحدث .

ـ قل لي ، بحق الله ، لخير نفسي ، هل تتلو صلاة يسوع ؟

ـ انا اصليها منذ زمان دون انقطاع .

ـ ما تتركه في نفسك من اثر ؟

ـ انني فقط لا استطيع ان استغني عنها لا ليلا ولا نهارا .

ـ كيف كشف لك الله عنها ؟ احك لي ذلك بالتفصيل يا اخي العزيز .

---

(٩) القديس افرام السرياني (٣٠٦ ؟ ـ ٣٧٣) هو احد معلمي الكنيسة ومن اقدم الكتبة السريان . ولد في نينوى (نصيبين) من والدين وثنيين واعتمد على يد الاسقف يعقوب ، فنظم قصائده العديدة والف شروحا للكتاب المقدس . اعتزل في الرها حيث توفي في التاسع من حزيران عام ٣٧٣ . كان واسع الاثر كما تشهد به ترجمات مؤلفاته العديدة الى اليونانية والعربية والارمنية . وقد عرف غريغوريوس النيصصي هذه المؤلفات وكتب مرثية في صاحبها . انه على الاخص ، شارح للكتاب المقدس ، ونادرا ما يصول في التأملات اللاهوتية . ومن مواضيع عظاته المفضلة الدينونة .

ـ كنت من اصحاب المهن في هذه المنطقة وكنت اكسب قوتي بممارسة الخياطة ، فكنت اذهب الى المقاطعات الاخرى مارا بالقرى اخيط ثيابا للفلاحين . وحدث اني بقيت طويلا في احدى القرى عند احد الفلاحين لكي اصنع ثيابا لكل افراد عائلته . وفي يوم من ايام الاعياد ، وما كان لي ما اعمله ، رأيت ثلاثة كتب عتيقة على اللوحة الموضوعة تحت الايقونات فسألت : هل في بيتكم من يقرأ ؟

فأجابوني : لا احد . هذه الكتب كانت لعمنا الذي كان يحسن القراءة والكتابة .

تناولت احد الكتب وفتحته على ما اتفق وقرأت الكلمات الآتية التي ما زلت اذكرها :

« ان الصلاة المستديمة هي ان نذكر اسم الرب دون انقطاع في حالة القعود او القيام ، اثناء الطعام او العمل . ففي كل ظرف وفي كل مكان وزمان ، ينبغي ذكر اسم الرب » .

وفكرت في ما قرأت ووجدت ان هذا يناسبني ويلائمني ، ولذا جعلت اردد الصلاة ، وانا اخيط ، بصوت منخفض ، مما سبب لي غبطة فائقة . ولاحظ ذلك الذين كانوا يعيشون معي في العزبة وهزئوا بي قائلين : افأنت ساحر حتى تتمتم بلا توقف ؟

فلم اعد احرك شفتي ، تسترا ، واخذت اتلو الصلاة بتحريك لساني وحده ، حتى اني اعدت هذا بحيث صار لساني يتلوها نهارا وليلا ، مما اولاني خيرا عميقا .

وواصلت العمل مدة طويلة ، ثم اصبحت ذات يوم واذا بي اعمى لا ارى شيئا . جميعنا في العائلة مصابون بالماء الازرق . ونظرا لفقري الشديد فقد وجدت لي بلديتنا مكانا في مأوى توبولسك ، وانا ذاهب اليه ، غير ان السيدين هنا اخراني لانهما يريدان اعطائي عربة توصلني الى « توبولسك » .

ـ ما اسم الكتاب الذي قرأت ؟ اليس الفيلوكاليا ؟

ـ لعمري لست ادري . لم انظر الى العنوان .

فجئت بفيلوكاليتي ، وفي الجزء الرابع فتحت اقوال البطريرك كاليستوس التي رددها لي محدثي عن ظهر قلب وبدأت بقراءتها . فهتف الاعمى : هذه هي بعينها : اقـرأ ، اقـرأ يا اخي ، فانهـا جميلة جدا .

لما بلغت المقطع الذي فيه : ينبغي ان نصلي بالقلب ، سألني ما معنى هذا وكيف نمارسه ، فقلت له ان كل ما يتعلق بصلاة القلب من تعليم وارد بالتفصيل في هذا الكتاب ـ الفيلوكاليا ـ فطلب مني ، بالحاح ، ان اقرأ له كل ما يتصل بهذا الموضوع . فقلت له : ذلك ما سوف نفعل . متى قررت الذهاب الى « توبولسك » ؟

فأجاب : للحال ، ان كنت تريد .

ـ اسمع ، بودي ان ارحل غدا . وما علينا الا ان نذهب معا ، وسأقرأ لك اثناء المسير كل ما يتصل بصلاة القلب ، وسوف اقول لك كيف يتسنى لك الوصول الى قلبك وولوجه . فقال : والعربة ؟

ـ دع عنك العربة ! فالمسافة من هنا الى توبولسك لا تزيد على المئة والخمسين فرسخا ، وسنسير على مهل ، والسير اثنين على طريق مقفرة من احسن ما يكون ، كما ان المشي انسب للقراءة والكلام عن الصلاة .

وعلى هذا اتفقنا . وفي المساء اتى السيد بنفسه يدعونا للعشاء فاخبرناه بعد الطعام اننا عزمنا الرحيل واننا لسنا بحاجة الى عربة ، لاننا نرغب في قراءة الفيلوكاليا . فقال لنا السيـد : لقد اعجبتني الفيلوكاليا ايما اعجاب ، ولقد كتبت رسالة اطلبها فيهـا ، وهيأت ثمنها ، وسأرسل الرسالة والثمن الى بطرسبرج وانا في طريقي الى المحكمة ، حتى تأتيني الفيلوكاليا باول بريد يجيء .

انطلقنا في الغداة صباحا بعد ان اجزلنا الشكر للسيد وزوجته لمحبتهما ورقتهما المثالية ورافقانا معا مسافة فرسـخ ، ثم ودعنا بعضنا بعضا .

الفلاح الاعمى

كنا نتمهل انا والاعمى بالسير ، فلم نجتز اكثر من عشرة فراسخ او خمسة عشر في اليوم الواحد ، وفيما تبقى من الوقت ، كنا نقعد في الاماكن المنعزلة ونقرأ الفيلوكاليا . قرأت له كل ما يتصل بصلاة القلب ، متبعا في ذلك الترتيب الذي عينه لي الستارتس ، اي اني بدأت بقراءة كتب الراهب نيكفورس وغريغوريوس السينائي ... وهلم جرا . ما كان اشد انتباهه وغيرته على سماع كل هذه الاقوال ! وما كان اشد غبطته وتأثره ! وكان ، وهو يستمع الي بانتباه ، يطرح علي احيانا من الاسئلة حول الصلاة ما لم يستطع عقلي الاجابة عليه كله .

وبعد ان فرغت من القراءة ، طلب مني الاعمى ان اعلمه طريقة عملية للوصول الى قلبه بالروح ، لادخال اسم يسوع المسيح الالهي فيه فيتيسر له بهذه الصورة ان يصلي صلاة داخلية . فقلت له : انك لا ترى البتة ، بالطبع ، ولكنك تستطيع ان تتخيل بذهنك ما رأيت قبل ان تعمى : رجلا مثلا ، او حاجة ما او عضوا من اعضائك كذراعك او ساقك ، فهل يمكنك تصوره بوضوح كما لو كنت تنظر اليه ، وهل يمكنك ، بالرغم من كونك اعمى ، ان توجه بصرك نحوه ؟

فأجاب الاعمى : يمكنني ذلك .

ـ اذن تخيل قلبك ، وادر عينيك كانك تنظر اليه مخترقا صدرك ، واستمع بكل اذنيك كيف ينبض خفقة خفقة . وحينما تجد نفسك قد اعتدت ذلك ، اجتهد على ان تطابق على كل خفقة من

خفقات قلبك ، وانت ما تزال تنظر اليه ، كلمات الصلاة . يعني : تقول مع اول خفقة وتفكر : ايها الرب ، ومع ثاني نبضة : يسوع ، ومع الثالثة : المسيح ، ومع الرابعة : ارحمني ، ومع الخامسة : انا الخاطىء . . . ردد هذا التمرين ما استطعت ، ولن يصعب عليك، لان لديك استعدادا لتقبل صلاة القلب . وبعد ان تعتاد هذا ، ابدأ بتلاوة صلاة يسوع من قلبك على وتيرة التنفس. اي قل او فكر، اثناء استنشاقك الهواء : ايها الرب يسوع المسيح ، واثناء الزفير : ارحمني انا الخاطىء ! وان رددت فعل هذا مدة كافية فستشعر ، بسرعة ، بألم خفيف في قلبك ، ثم يتولد فيه ، شيئا فشيئا ، دفء منعش . وهكذا تتوصل بعون الله الى ان تفعل الصلاة داخل قلبك بصورة مستديمة . ولكن حذار من كل تخيل ومن كل صورة قد تتكون في ذهنك وانت تصلي . اطرح عنك كل التصورات فان الاباء يوصونا بان نحتفظ بعقلنا خاليا من كل تصور اثناء الصلاة ، لئلا نسقط في الاوهام .

وتدرب الاعمى ، وقد اصغى الي بانتباه ، بجد واندفاع على ما قلته له ، وكان في الليل ، اثناء توقفنا ، يقضي ساعات طوالا في ذلك . وشعر بعد خمسة ايام بدفء في قلبه عظيم وبغبطة لا توصف ، ثم انه كان به ، بالاضافة الى ذلك ، رغبة شديدة في القيام دون انقطاع بالصلاة التي كشفت له ما كان يكن من حب ليسوع المسيح . وكان يرى فورا في بعض الاحيان ولكن دون ان يظهر له شيء قط ، ولما كان يلج قلبه كان يبدو له انه يرى فيه نور شمعة كبيرة يشع ، ويفيض خارجا فينيره بكليته ، حتى ان هذا النور جعله يرى اشياء بعيدة عنه ، كما حدث ذات مرة .

كنا نجتاز غابة ، وكان مستغرقا في الصلاة بصمت ، وفجأة قال لي : يا للمصيبة ! ان الكنيسة تحترق ولقد تهدمت قبة الجرس ! فقلت له : كفاك تفكير بهذه الصور الفارغة ، فانها تجربة الشيطان . يجب ان تدفع عنك كل تخيل باسرع ما يمكن فكيف لك ان ترى ما يحدث في المدينة ؟ انها لا تزال على بعد اثني عشر فرسخا منا .

وعمل بنصيحتي ، وصمت وقد عاد الى الصلاة . وصلنا المدينة عند المساء ، وبالفعل رأيت العديد من البيوت قد احترق ، وقبة الجرس قد انهارت — وكانت مبنية على عمد خشبية — وكان الناس حولها يتحدثون ويعجبون من ان القبة لم تؤذ بسقوطها احدا . وقد حدثت الكارثة ، على ما فهمت ، في الوقت الذي تكلم فيه الاعمى في الغابة . واذا بي اسمعه يقول : كانت رؤياي ، بحسب رأيك ، باطلة ، ولكن الامر صحيح . افلا يليق بنا ان نشكر الرب يسوع المسيح ونحبه هو الذي يكشف نعمه للخطأة وللعميان والقليلي الفهم ! شكرا لك انت ايضا ، فقد علمتني الصلاة الداخلية !

فأجبته : تريد ان تحب يسوع المسيح : هذا حق وواجب ، ولكن اياك ان تعتبر الرؤى العادية كشفا مباشرا للنعمة ، فان ذلك كثيرا ما يحدث بصورة طبيعية لا تخالف نواميس الكون المألوفة . وليست النفس البشرية مرتبطة بالجسد ارتباطا كليا ، فبوسعها ان ترى في الظلام ، وحتى الاشياء البعيدة ، رؤيتها الاشياء القريبة . غير اننا لا نذكي مقدرة النفس هذه ، بل نثقلها بوزن جسدنا الغليظ او بتشويش افكارنا المشتتة الطائشة . واما ان ركزنا حواسنا وجمعناها منطوين على انفسنا ، وان تجردنا وابتعدنا عن كل ما يحيط بنا وشحذنا ذهننا ، فعندها تعود النفس بتمامها الى ذاتها وتفعل بكل ما تطيق من قوة ، ويكون فعلها هذا طبيعيا عاديا . قال لي الستارتس ان اهل الصلاة ليسوا وحدهم يرون ، بل هنالك مرضى او اناس ذوو احساس خاص ، يرون النور الصادر عن كل شيء عندما يكونون في غرفة مظلمة ويشعرون بوجود القرينة ويدركون ما يجول ببال الغير من خواطر . لكن المفاعيل المباشرة لنعمة الله اثناء صلاة القلب على حد كبير من العذوبة لا تستطيع معه اية لغة ان تفي بوصفها . فمن المستحيل تشبيهها بأي شيء مادي ، وذلك لان العالم الحسي يبدو دنيئا اذا قيس بما تبعثه النعمة في القلب من احاسيس .

استمع الاعمى بانتباه الى هذه الاقوال وازداد تواضعا وكانت

الصلاة تتردد في قلبه دون انقطاع فتسبب لـــه غبطة لا توصـــف . واغتبطت نفسي لذلك وشكرت الرب الذي جعلني المس هذه التقوى عند احد خدامه الصالحين .

ووصلنا « توبولسك » آخر الامر ، فقدته الى المأوى ، وبعد ان ودعته وداع الصديق عدت الى السير وحدي .

سرت مدة شهر دون تعجل وكنت اشعر بعظم فائدة الامثلة الحية وخيرها . وكثيرا ما كنت اقرأ الفيلوكاليا اتحقق فيهـــا من صحة ما قلته للاعمى . وقد كان لي عبرة الهبتني غيرة وزادت من اخلاصي للرب ومن حبي له . واسعدتني صلاة قلبي سعادة اعتقدت معها ان لا مزيد عليها عـــلى الارض وتساءلت كيف لمـــلاذ ملكوت السموات ان تفوقها . بل كان العالم الخارجي يبدو لي ايضا بمظهر خلاب ، يدعوني كل شيء فيه الى محبة الله وتسبيحه . فكان الناس والاشجار والنباتات والحيوانات ، كل شيء بدا وكأنه قريب الي . وفي كل مكان وجدت صورة اسم يسوع المسيح . وكنت احيانا اشعر باني خفيف لدرجة اعتقدت معها انه لم يعد لي من جسد وظننت اني اطير في الهواء . وكنت احيانا اخرى ادخل الى ذاتي دخولا عميقا ، فكنت ارى داخلي بوضوح ، واعجب بذاك البنيان المدهش الا وهو جسم الانسان . وكنت مرات اخرى اشعر بفرح عظيم كما لو كنت صرت ملكا . كنت ارجو الله وسط اسباب الهناء هذه كلها ان يسمح بموتي باسرع ما يمكن لكي يتيسر حمدي له وشكراني بالانصباب على قدميه في عالم الروح .

وربما تلذذت اكثر مما ينبغي بهـــذه الاحاسيس ، او لعل الله شاء ذلك ، فخالج قلبي بعد حين ما يشبه الخـــوف والرعشـــة . فتساءلت : اتراها مصيبة جديدة او محنة كتلك التي قاسيت بسبب الفتاة التي علمتها صلاة يسوع في الكنيسة ؟ وثقلت علي الهمـــوم وكأنها السحب المتلبدة وذكرت ما قال المغبوط يوحنا اسقف جزيرة كرباتوس من ان من يعلم الصلاة يتعرض للاهانـــة والخـــزي ، ويتحمل الشدائد والمحن من اجل الذين اعانهم روحيـــا . وبعـــد ان

حاربت هذه الافكار ، استغرقت في الصلاة التي لاشتها وبددتها ، وشعرت باني اتقوى واتشدد ، فقلت في نفسي : فلتكن مشيئة الله ! انا على استعداد لان اتحمل كل ما سوف يأتي من يسوع المسيح لاكفر عن كبريائي وقساوة قلبي . على كل حال ، انا ليس لي من فضل في ما فعلت ، فقد كان كل الذين كشفت لهم مؤخرا عن خفايا الصلاة الداخلية ممن هيئوا قبلا ، هيأهم فعل الله العجيب قبل ان يجتمعوا بي . وهدأت هذه الفكرة من روعي ، فجعلت اسير اسعد من ذي قبل تفيض في قلبي الصلاة ويتجلى الفرح . وبقي الطقس ممطرا مدة يومين ، كانت الطريق خلالهما موحلة ، حتى انه كان يتعذر علي التخلص من ورطاتها وردغاتها . فسرت في البوادي المقفرة ، لم اصدف مكانا مأهولا بعد مسيرة خمسة عشر فرسخا . واخيرا ، لمحت عند المساء فندقا على الطريق ، ففرحت : فسيمكنني الاستراحة فيه ، على الاقل ، وقضاء ليلتي . واما الغد ، فعلى الله !... ربما تحسن الطقس .

مركز البريد

رأيت ، حين دنوت من المكان ، رجلا مسنا يرتدي معطف الجنود . كان جالسا على منحدر امام الفندق ، فلاح لي انه سكران ، فسلمت عليه قائلا : هل يمكنني ان اطلب من احد السماح لي بقضاء ليلتي هنا ؟ فهتف الشيخ : ومن يمكنه السماح لك بالدخول غيري ؟ انا الآمر هنا والناهي . اني ناظر مركز البريد ، فههنا محطة تبديل الخيل والاستراحة .

ـ اسمح لي اذن يا سيدي بالمبيت عندك .

ـ هل لديك جواز سفر على الاقل ؟ ارني اوراقك ! فناولته جواز سفري ، واذا به ، وكان الجواز بيده ، يأخذ بالصراخ : اين جواز سفرك ؟

فأجبت : هو معك ، في يدك .

ـ طيب ! هيا بنا داخل البيت . ووضع نظارتيه وتأمل جواز سفري ثم قال : كل هذا ، على ما ارى نظامي ، يمكنك ان تبقى هنا . ارأيت ؟ انا انسان طيب . اسمع ، سأجلب لك كأس خمر . فأجبته : انا لا اشرب ابدا !

ـ لا بأس ! ولكن تعش معنا على الاقل ! وجلس للطعام مع الطباخة ، وكانت امرأة فتية ، قد شربت من الخمر غير قليل ايضا . وجلست معهما . وما توقفا ابدا ، ونحن نأكل ، عن التخاصم والعتاب ، وتطور هذا ، آخر الامر ، الى شجار حقيقي . وذهب

الناظر لينام في بيت المؤونة ، وبقيت الطباخة تغسل الصحون والملاعق وهي تلعن رفيقها وتشتمه .

كنت ما ازال جالسا ، وادركت انها لن تهدأ بوقت قصير فقلت لها : اين يمكنني النوم يا اختي ؟ قد نال مني التعب لطول ما سرت .
ـ لحظة ! سأهيء لك فراشا يا عم .

ووضعت بنكا الى جانب البنك المثبت تحت النافذة الامامية وفرشت عليهما حراما من لباد مع وسادة . فاستلقيت واغلقت عيني متظاهرا بالنوم . وطال بعد هذا غدو الطاهية ورواحها في القاعة ، واخيرا انهت عملها فأطفأت الضوء واقتربت مني . وفجأة ، انهارت كل النافذة الموجودة في زاوية الواجهة بصوت مرعب : اطارها والزجاج والاصداغ تناثرت حطاما ، وفي نفس اللحظة سمعنا في الخارج انينا وصراخا وجلبة وعراكا . فركضت المراة الى وسط الغرفة لشدة هلعها وهوت على الارض . واما انا فقفزت من فراشي احسب ان الارض انشقت تحتي . وفجأة رأيت سائقي خيل يحملان الى العربة رجلا تلطخ بالدماء حتى ان وجهه ما كان يرى لغزارة ما سال عليه من دماء ، مما زاد من شعوري بالقلق . كان الرجل حامل بريد الدولة الرسمي ، وكان عليه تغيير خيله هنا . الا ان سائق العربة لم يوجه الخيل كما يجب ان توجه للدخول الى الاستراحة ، فخرق جدار العربة النافذة ، وكان هناك حفرة امام العربة ، فانقلبت المركبة وانجرح رأس الرسول على وتد مسنن في اسفل المنحدر . وطلب الرسول شيئا من الماء والكحول لغسل جرحه ، ثم بلله بالعرق وشرب كأسا منه ونادى : الي بالاحصنة !

فاقتربت منه وقلت له : كيف يمكنك السفر وانت على هذه الحال ؟ فأجاب : ليس امام رسول الملك متسع يكون فيه مريضا . وانصرف .

جر السائقان المراة الى ركن من اركان الغرفة ، قرب المدفأة وغطياها بحصيرة وقال احدهما : انه الخوف افقدها الرشد .

اما ناظر المحطة ، فصب شيئا من الخمر في كأس شربه ثم عاد الى نومه ، وبقيت انا وحدي .

نهضت المراة بعد قليل وراحت تتمشى من طرف الغرفة الى طرفها الآخر كمن يسير في اثناء نومه ، ثم خرجت من مبنى مركز البريد . فصليت وغفوت قبل الفجر بقليل وقد احسست بالتعب .

وفي الصباح ، ودعت ناظر المحطة وسرت على الطريق رافعا صلاتي بايمان ورجاء وشكران نحو اب المراحم والتعزية الذي نجاني من شر مستطير .

ومضت على هذا الحادث ست سنوات ... مررت يوما بعدها بدير للراهبات ، فدخلت كنيسته للصلاة . واستقبلتني الرئيسة بلطف ومحبة ، بعد الصلاة ، وقدمت لي الشاي . واذا بمن يخبرها بقدوم ضيوف عابرين ، فاعتذرت وذهبت للاقاتهم وتركتني مع الراهبات اللواتي كن مقيمات بالخدمة . وشاء فضولي ان اسأل احداهن ، وقد رأيتها تصب الشاي بتواضع : اانت في هذا الدير منذ زمان يا اخت ؟

فأجابت : خمس سنين . ولم اكن سليمة العقل عندما اتوا بي الى هذا المكان ، لكن الله تراف بي . وقد جعلتني الأم الرئيسة بقربها ، اعيش معها في حجرتها ، وقدمت النذور على يديها .

فسألتها : وكيف فقدت عقلك ؟

ـ من شدة الخوف . كنت اعمل في احد مراكز البريد وبينما كنت نائمة ، في احدى الليالي ، حطمت احصنة عربة البريد احدى النوافذ ، فجننت لما اصابني من رعب شديد . ولقد قادني اهلي طوال عام الى كثير من الاماكن المقدسة ، الا اني لم اشف الا هنا .

فاغتبطت داخليا لسماعي هذه الكلمات ومجدت الله الذي يحول كل الاشياء الى ما فيه خيرنا .

كاهن قروي

قلت ، موجها حديثي الى ابي الروحي : حدث لي اشياء اخرى كثيرة . وانا ، لو اردت سرد كل ما وقع لي متصلا متسلسلا لاقتضى مني ذلك اكثر من ثلاثة ايام . سأروي لك واقعة اخرى ، ان كنت تريد .

لاح لي ، في احد ايام الصيف المشمسة ، على مسافة من الطريق ، مقبرة ، او بالحري مركز رعوي ، اي كنيسة مع بيوت من يقوم بالخدمة فيها ، ومقبرة . وكانت الاجراس تقرع للصلاة ، فاسرعت الخطى نحو الكنيسة . وكان اهالي الجوار يقصدونها ايضا . غير ان كثيرين منهم كانوا مستلقين على العشب ، استلقوا قبل بلوغهم الكنيسة . ولما رأوني احث الخطى قالوا لي : لا تستعجل ! فأمامك من الوقت متسع . الصلاة هنا بطيئة جدا ، فالكاهن مريض ثم انه يتمهل بصلاته اي تمهل !

وبالفعل ، لم يكن القداس يصلى بسرعة ، فقد كان الكاهن — وهو شاب ، الا انه نحيل الجسم ، شاحب اللون — يخدم القداس ببطء شديد ، بخشوع وتحسس . وفي نهاية الصلاة ، القى عظة بليغة عن الوسائل التي تمكن الانسان من الحصول على محبة الله .

دعاني الكاهن ، بعد الصلاة ، لتناول الطعام في بيته . قلت له اثناء الاكل : انت ، يا ابانا ، تخدم القداس بورع عظيم ولكن ببطء شديد ايضا .

فأجاب : صحيح ! وهذا لا يرضي رعيتي قط ، والمصلون يتذمرون احيانا . ولكن لي من وراء ذلك مقصدا ، فاني احب ان

اتأمل كل كلمة من كلمات القداس الالهي وان ازينها قبل ترتيلها ، فلا قيمة للكلمات ان تجردت من هذا الاحساس الداخلي لا بالنسبة لمرتلها ولا للمستمعين اليها . والمهم في الصلاة هو ان نحياها من داخل وان نفهمها ونعيها . ثم اردف : ما اقل ما يعنى الناس بالحياة الداخلية ! فهم ، لانهم لا يريدون ذلك ، لا يهتمون بالاستنارة الروحية الداخلية .

سألته مجددا : ولكن كيف السبيل الى بلوغها ؟... ان الوصول اليها امر جد عسير !

ـ كلا ! اطلاقا ! فلكي يحظى المرء بالاستنارة الروحية ، ويصبح انسانا داخليا روحيا ، ما عليه الا ان يختار نصا من الكتاب المقدس ويركز عليه انتباهه اطول وقت ممكن . بهذا يكشف المرء استنارة الذكاء . واما لكي نصلي ، فينبغي ان نفعل نفس الشيء ايضا . ان اردت ان تكون صلاتك نقية مستقيمة ومفيدة ، فعليك ان تختار صلاة مقتضبة ، تواظبها بضع كلمات قصيرة ، على ان تكون جزلة ، وان ترددها طويلا وفي احيان كثيرة ، فانما يعتاد المرء الصلاة بهذه الصورة .

اعجبني تعليم الكاهن هذا كثيرا لانه عملي بسيط وعميق حكيم في آن واحد . وشكرت الله في سري لانه جعلني اتعرف على احد رعاة كنيسته الحقيقيين .

قال لي الكاهن وقد انتهينا من الاكل : خذ لك قسطا من الراحة ، فعلي ان اقرأ كلام الله واهيء عظتي ليوم غد .

فذهبت الى المطبخ . لم يكن فيه سوى طباخة مسنة تقوس ظهرها وانحنى ، تسعل في احدى الزوايا . فجلست تحت الطاقة واخرجت الفيلوكاليا من كيسي ، واخذت اقرأ لنفسي بصوت منخفض . وتحققت بعد لحظات ان العجوز الجالسة في الزاوية كانت تتلو صلاة يسوع دون توقف ، فاغتبطت لسماعي ذكر اسم الرب القدوس ، وقلت لها : يجمل بك ، يا خالتي ، ان تتلي الصلاة هكذا ! انه افضل الاعمال التي يمكن ان نقوم بها واكثرها مطابقة

لتعاليم المسيح !

فأجابت : نعم يا عم ! انها تعزيتي في آخرتي هذه . فليرحمني الله !

— وهل مضى عليك زمان طويل كنت فيه تصلين هكذا ؟

— منذ حداثتي ، يا عم . انا لا استطيع الحياة بدونها ، فقد انقذتني صلاة يسوع من المصائب والموت .

— وكيف ذلك ؟... ارجوك ان تخبريني اكرامـــا لله ولصلاة يسوع القديرة .

اعدت الفيلوكاليا الى مكانها في كيسي ، وقعدت قرب المرأة ، فبدأت قصتها . قالت :

« كنت شابة فتية جميلة . خطبني اهلي ، وفي ليلة الزفاف كان خطيبي على وشك دخول بيتنا ، واذا به — ولم يكن باقيا له الا عشر خطوات ليصل بيتنا — سقط فجأة على الارض جثة هامدة .

واخافني هذا كثيرا حتى انني صممت على البقاء عذراء اقصد الاماكن المقدسة اصلي فيها . الا اني كنت اخـــاف ان اســـير في الدروب وحدي ، فربما اعتدى علي بعض الاشرار بالنظر لصباي . وعلمتني امرأة طاعنة في السن ، كانت تعيش منذ زمان طويل حياة التطواف ، علمتني انه ينبغي ان نتلو صلاة يســـوع دون توقف ، وطمأنتني مؤكدة لي مشددة على ان هذه الصلاة ستقيني كل غوائل الطريق . وصدقت ما قالت وعملت بما اوصتنيبه فلم يحدث لي ابدا ان صادفني امر مكروه ، حتى في الاصقاع النائية ، وكـــان اهلي ، اثناء ذلك ، يمدونني بالمال اذا ما احتجت اليه .

ثم اني مرضت عند شيخوختي ، ولكن الكاهن هنا رجل الله محسن لحسن الحظ ، وهو يوفر لي الغذاء ويعيلني » .

استمعت الى حديث المرأة بسرور ولم ادر كيف اشكر الرب على هذا النهار الذي تكشف عن نماذج سامية للحياة البناءة .

وبعد ان طلبت من ذاك الكاهـــن الورع القديس ان يباركني تابعت طريقي وقد غمرني الفرح والحبور .

على طريق كازان

اتيح لي ، منذ مدة غير طويلة ، وقد كنت اجتاز مقاطعة « كازان » للمجيء الى هنا ، معرفة آثار صلاة يسوع ومفاعيلها . فهي ، حتى بالنسبة لمن يمارسها دون انتباه ، اضمن الوسائل واسرع ما يوصل الى الخيرات الروحية .

اضطررت ذات مساء الى التوقف في احدى قرى التتار . ورايت ، وانا ادخل شارع القرية الوحيد ، عربة وسائقها الروسي ، وكانت الجياد محلولة القيود طليقة ترتعي الى جانب العربة . ففرحت وقررت ان اسأل هل يسمح لي بالمبيت في هذا المنزل ، الذي انا وجدت فيه على الاقل اناسا مسيحيين . فاقتربت وسألت السائق عمن كان يوصل في عربته . فاجاب بان معلمه مسافر من كازان الى القرم . وبينما انا اتكلم مع السائق ، ازاح السيد ستارة البوابة الجلدية والقى الي بنظرة وقال : سأمضي الليلة هنا ، ولكني لن ادخل بيتا للتتار لان منازلهم قذرة وسخة ، ولذا تراني مصمما على النوم في العربة .

خرج السيد ، بعد حين ، ليتمشى قليلا — وكانت الامسية جميلة — وتبادلنا الحديث . تطرقنا الى الكثير من المواضيع ، اذكر منها ما قاله لي محدثي كما يلي على وجه التقريب :

« كنت حتى الخامسة والستين من عمري اخدم في الاسطول الامبراطوري بصفتي قبطان مركب . ولكني اصبت في كبري بداء النقرس ، وانا الآن متقاعد في القرم ، على ارزاق تملكها زوجتي . وكنت دائما ، تقريبا ، مريضا . كانت زوجتي مولعة بحفلات

الاستقبال ومغرمة باللعب بالورق . وانتهى بها الامر الى ان سئمت العيش الطويل مع رجل عليل ، فذهبت الى كازان ، عند ابنتنا المتزوجة هناك من احد الموظفين . واخذت امراتي كل شيء معها ، حتى الخدم ، وتركت لي كخادم خاص صبيا عمره ثماني سنوات ، وكان فليوني .

عشت هكذا وحيدا مدة ثلاث سنوات . وكان الصبي واسع الحيلة : فكان يرتب غرفتي ويشعل النار ويطبخ لي الجريشة ويسخن « الساموار » . ولكنه كان في ذات الوقت عنيفا ملآن حيوية . فكان يركض ويصرخ ويلعب ويخبط اينما اتفق ، مما كان يزعجني ايما ازعاج . وانا ، بسبب مرضي وفراغي ، احب قراءة المؤلفات الروحية . كان لدي منها كتاب ممتاز لغريغوريوس بالاماس عن صلاة يسوع . كنت اقراه باستمرار تقريبا ، واتلو الصلاة بعض الشيء . وكانت الجلبة التي يحدثها الصغير تنفرني وتزعجني . الا انه ، مهما اتخذت بحقه من تدابير او مهما عاقبته ، لم يكف عن العبث وتعكير صفو بيتي . فكان لا بد لي من مخرج ، وفقت اليه آخر الامر : كانت الطريقة الوحيدة الناجحة في تلافي ازعاجي ان اجبره على الجلوس على مقعد صغير في غرفتي ، آمره بان يردد صلاة يسوع دون انقطاع . وساءه هذا ، اول الامر ، الى ابعد الحدود ، فكان يلزم الصمت تهربا منه .

ولكني وضعت بعض القضبان في غرفتي لكي الزمه على تنفيذ امري . فلما كان يتلو الصلاة ، كنت اقرأ بهدوء او استمع الى ما يقول . ولكن ، ما ان يسكت ، حتى اريه العصي فيعود الى الصلاة وقد تملكه الخوف من ان يضرب . وكان في هذا خير لي كبير ، فان السكينة استتبت آخر الامر في بيتي . ولاحظت ، بعد مضي وقت قصير ، انه لم يعد هناك من حاجة الى العصي ، فقد صار الصبي يعمل باوامري بمزيد من الفرح والغيرة . بل ان طبعه تغير بعد ذلك تغيرا كليا ، فغدا دمث الخلق هادئا ، واخذ يتمم اعمال المنزل احسن

بكثير من ذي قبل . فبعث في (بتشديد الياء) هذا الامـــر الرضى والانشراح واطلقت للغلام حرية كبرى في تصرفه . اتدري ما كانت النتيجة ؟ لقد اعتاد الفتى على الصلاة والفها حتى انه كان يرددهـــا دون توقف بلا ادنى ارغام من قبلي . ولما حدثته في الامر اجابني ان به رغبة في تلاوة الصلاة لا تقاوم .

ـــ وبماذا تشعر ؟

ـــ ليس من احساس خاص ... ولكني اشعر بالانشراح اثناء ترديدي الصلاة .

ـــ ماذا تعني بالانشراح ؟

ـــ لا ادري كيف اشرح ذلك يا سيدي ...

ـــ هل تشعر بالمرح ؟

ـــ نعم ... بالمرح .

وكان في الثانية عشرة عندما اندلعت حرب القرم . فرحلت الى «كازان» واخذته معي عند ابنتي حيث انزلناه المطبخ مع باقي الخدم. فكان تعسا حزينا لانهم كانوا يمضون وقتهم بالتسلية واللعب بعضهم مع بعض وبالهزء به ايضا ، مما كان يعوقه عن الاهتمام بالصلاة . ومضى عليه ثلاثة اشهر على هذه الحال ... ثم جـــاء الي في احد الايام وقال :

ـــ انا راجع الى البيت ، فلست اطيق الحياة هنا تحيط بي هذه الضجة الكبرى .

ـــ كيف لك ان تقطع كل هذه المسافة وحـــدك وفي قســـوة الشتاء ؟... انتظر حتى اعود وسوف ترافقني .

الا ان الطفل اختفى في اليوم التالي . ارسلنا الخدم يبحثون عنه في كل الجهات ، ولكن دون جدوى . وفي احد الايام ، جاءني كتاب من القرم : كان حراس البيت هناك يخبروني انهـــم ، في الرابـــع من

نيسان — وكان اثنين الباعوث — (١) قد وجدوا الغلام ميتـــا في البيت وقد خلا من سكانه . كان ممددا على الارض في غرفتي وقـــد تصالبت يداه فوق صدره . وكانت قبعته الصغيرة تحت رأســـه ، لا رداء له يدفىء اوصاله الا تلك القميص التي كانت دوما على بدنه لاتقاء غائلة البرد ، وقد فر بها . ودفن في الثياب التي وجد فيها في حديقة منزلي .

لما جاءني هذا الخبر ، دهشت للسرعة التي وصل بها الطفل الى هناك . فلقد ذهب في الرابع والعشرين من شهر شباط ووجد في الرابع من نيسان . اي انه قطع مسافة ثلاثة آلاف فرسخ في مدة شهر واحد ! هذه المسافة لا يكاد الخيال يجتازها بمثل هـــذا الزمن القصير : مئة فرسخ في اليوم ! يزيد في صعوبة السير ان الغلام كان يلبس ثيابا خفيفة ، وليس معه اوراق هوية ، ولا قرش في جيبه . فلنفرض انه وجد عربة للسفر : فلن يكون هذا الا بمشيئة الله .

قال السيد مختتما كلامه : هكذا تذوق خادمي الصغير ثمـــار الصلاة ، اما انا ، حتى في آخر حياتي ، فلم ابلغ من العلو والسمو ما بلغ هو .

قلت للسيد عندها : انني اعرف كتاب غريغوريوس بالاماس الممتاز الذي قرأته . ولكن البحث فيه يدور حول الصلاة الشفهية خاصة . عليك بقراءة ذلك الكتاب المسمى « فيلوكاليا » ، ففيه تجد كل ما يتعلق بصلاة يسوع في الروح والقلب ودروسا وتعاليم .

واريته في نفس الوقت كتاب الفيلوكاليـــا خاصتي . فاقتبـــل نصيحتي بفرح ظهر على محياه وقال لي انه سوف يبتاع الكتاب .

فقلت في نفسي : الله ! ما اعجب مظاهر القدرة الالهية التي

---

(١) اثنين الفصح . يعيننا هذا على تحديد تاريخ الواقعـــة : فليس في التقويـــم الشرقي بين سنة ١٨٥٠ و ١٨٧٠ سنة وقع فيها الفصح في الثالث من نيسان الا عام ١٨٦٠ .

تتكشف عنها هذه الصلاة ! ما اعمق ما رواه لي هذا الرجل وما احفله بالعبرة : فقد تعلم الغلام الصلاة خوفا من العصي ، فقادته رغم ذلك الى السعادة . او ليست المصائب والاحزان التي نصادفهـــا في درب الصلاة ، اليست عصي الله ؟ وعليه ففيم الخوف حين ترينا يد الله العصي ؟ انه تعالى مليء نحونا بمحبة لامتناهية ، وهذه القضبـــان انما تعلمنا الصلاة بمزيد من النشاط فتقودنـــا الى الافـــراح التي لا توصف .

لما فرغت من احاديثي هذه ومن اقاصيصي قلت لابي الروحي : سامحني بحق الله ، فلقد اطلت الثرثرة . ويقول آباء الكنيسة ان الحديث ـــ وان يكن روحيا ـــ ليس الا باطلا ان استطال اكثر ممـــا ينبغي . وقد آن لي ان امضـــي الى من سيرافقني في طريقـــي الى اورشليم . صل لاجلي انا الخاطىء الحقير لكي يوفق الله برحمتـــه طريقي ويسهل خطواتي .

فأجاب : ارجو لك ذلك من صميم الفؤاد ، ايها الاخ الحبيب بالرب . الا فلتنر نعمة الله الغزيرة امامك السبيل ، ولترافقك في سيرك كما سار الملاك روفائيل مع طوبيا !

القصة الخامسة

الستارتس : كان عام قد مضى على آخر لقاء لي بالسائح ، واذا ــ اخيرا ــ قرع مكتوم على الباب وصوت متوسل يبشران بوصول هذا الاخ المتلىء ورعا .

ــ ادخل ايها الاخ العزيز ، ولنشكر الله معــا اذ قــد بارك مسيرك واعادك الينا .

السائح : المجــد والحمد للآب العلي على صلاحه في كل شيء، فليأمر بما يشاء ، وامره دوما لما فيه خيرنا نحن السائحين والغرباء في ارض غريبة . ها انذا ، انا الخاطىء ، الذي تركك العام الفائت والذي فكر مجددا ــ بنعمة الله ــ ان من الخليق به لقاء ترحيبك انباش وسماعه . ولا شك في انك تتوقع مني وصفا كاملا لمدينة الله المقدسة اورشليم ، التي كانت نفسي بشوق اليها ، وحيث كنت انوي الذهاب بحزم . لكن رغائبنا لا تتحقق دائمــا وهــذه كانت حالي . وليس في الامر من عجب : فكيــف يمكــن التفكير ــ وانا خاطىء ــ باني استحق ان اطأ تلك الارض المقدسة التي تركت قدما سيدنا يسوع المسيح اثرهما فيها ؟

تذكر (بضم الكاف والراء) ــ يا ابت ــ اني تركت هذا المكان ، في العام الفائت بصحبة شيخ اصم ، وانه كان معي رسالة تاجر من اركوتسك الى ابنه في مدينة اوديسا يسأله فيهــا ان يرسلني الى

القدس . ولقد بلغنا اوديسا من غير عثرات ، في زمن قصير ، وسرعان ما حجز رفيقي لسفره الى القسطنطينية ، ثم سافر . اما انا ، فأخذت افتش عن ابن التاجر ، على عنوان الرسالة . ولم يطل بي الوقت حتى وجدت بيته ، غير اني فوجئت وحزنت اذ علمت ان من احسن الي لم يعد على قيد الحياة . فلقد توفي منذ ثلاثة اسابيع على اثر مرض لم يمهله . هبط هذا من عزمي الا اني سلمت امري لقدرة الله تعالى .

كان البيت كله غارقا في الحزن ، وكانت الارملة ، الباقية مع اولاد ثلاثة ، على شيء من الاسى كثير بحيث كانت تبكي طوال الوقت ، وكان يغمى عليها مرارا في اليوم الواحد لشدة الحزن . كان حزنها هذا شديدا بحيث بعث على الظن انها هي الاخرى لن تعيش طويلا . لكنها ، في غمرة هذا كله احسنت ضيافتي ، غير انها لم تستطع ارسالي الى القدس بسبب ما آلت اليه اعمالها من حال . سألتني ان امكث معها زهاء الاسبوعين حتى يجيء حموها الى اوديسا ، كما وعد ، لكي ينظم الشؤون المالية للاسرة المنكوبة ، فبقيت . ومضى اسبوع ، ثم شهر ، فشهر ثان ، ولكن التاجر ، بدلا من ان يحضر ارسل بكتاب يقول فيه ان اعماله هو لم تكن لتسمح له بالتنقل ونصح الارملة بأن تصرف مستخدميها وتذهب اليه حالا الى مدينة اركوتسك . فدبت في البيت الحركة والصخب . ولما لاحظت اني ما عدت اثير الاهتمام ، شكرت لهم ضيافتهم واستأذنت بالانصراف ، مرة جديدة ، اجول عبر روسيا .

كنت افكر واعيد التفكير . الى اين عساي اذهب بعد اليوم ؟ قر رأيي ، في النهاية ، انه يناسب ان اذهب اولا الى مدينة كييف التي لم ازرها لسنين عديدة . وعلى هذا انطلقت في السير . وبديهي انه كان يزعجني ، اول الامر ، عدم تمكني من وفاء نذر لي للحج الى القدس . لكني رأيت ، بعد تفكير ، ان هذا بالذات لم يحدث بدون عناية الهية ، فهدئت آملا ان يقبل الله المحب البشر النية بدل

العمل ، والا يترك رحلتي هذه المبتورة من غير فائدة روحية . ولقد كان الامر كذلك ، اذ التقيت اناسا علموني الكثير مما كنت اجهله ، وانارو جوانب نفسي المظلمة ، لما فيه خلاصي . ولو لم تضطرني الضرورة الى هذه الرحلة لما كنت التقيت هؤلاء المحسنين الي روحيا .

كنت اسير نهارا بمعية صلاة يسوع ، وفي المساء ، عندما اتوقف للمبيت ، كنت اقرأ فيلوكاليتي لاوطد النفس واحثها في صراعها ضد اعداء الخلاص غير المنظورين .

في اثناء المسير ،وعلى نحو سبعين فرسخا من اوديسا ، تيسر لي مشاهدة امر عجيب . كان ثمة قافلة طويلة من العربات المحملة بضائع ، وكان عددها ثلاثين ، على اقل تقدير . تجاوزتها . كان السائق الاول ، رئيس القافلة ، يسير بقرب حصانه ، يتبعه الاخرون زرافات على مسافة قصيرة منه . كانت الطريق تحاذي مستنقعا يتخلله تيار ، فكان جليد الربيع الذائب يجيش ويتراكم على الضفة بصوت رهيب .

فجأة اوقف السائق الامامي — وهو فتى يافع — حصانه ، فتوقفت ايضا بقية العربات كلها . وتراكض السائقون التابعون نحوه ، ورأوا انه اخذ يتجرد من ثيابه فسألوه ما السبب . فأجاب بأنه يشتهي السباحة في المستنقع . فجعل بعضهم — وقد دهشوا — يسخرون منه ، والبعض الآخر يلومه وينعته بالجنون ، فيما حاول اكبرهم سنا — وهو اخوه — ان يمنعه من السباحة ، دافعا اياه ليجعله يعود الى السير . فامتنع الفتى ورفض الانصياع الى ما طلب منه . وعمد كثيرون من السائقين الشبان الى ملء الدلاء التي يغسلون بها الخيل من ماء المستنقع ، ورشقوا بها الرجل الذي كان يريد السباحة ، على رأسه تارة ، والظهر طورا قائلين : « اليك ، سنقوم نحن بتغسيلك » . وما ان لامس الماء جسمه حتى هتف : « آه ما احسنه ! » وجلس ارضا ، فيما استمروا هم في القاء الماء عليه . ثم استلقى بسرعة ومات .

فأخذهم كلهم الخوف ، وهم لا يعلمون سبب حصول ما حصل . بقيت معهم ما يقارب الساعة ، ثم عدت الى المسير . وبعد زهاء خمسة فراسخ ، ابصرت بقرية يمر بها الطريق العام ، وحين دخولي اليها التقيت كاهنا مسنا يسير في الشارع . ارتأيت ان من المناسب ان اقص عليه ما رأيت لتوي لأسأله رأيه فيه ، فاصطحبني الكاهن الى منزله ، ورويت له الواقعة وسألته تعليل هذا الحدث .

قال : لا يسعني ايها الاخ العزيز ، الا ان اقول ان في الطبيعة امورا كثيرة غريبة لا يمكننا فهمها . واظن ان هـذا من تدبير الله الذي يبرز قدرته وعنايته في الطبيعة باحداثه احيانا في نواميسها تغييرات مفاجئة تخرق العادة . ولقد وقع لي ذات مرة ان شهدت حالة مشابهة لما حدثتني به . بالقرب من قريتنا واد عميق شديد الانحدار ، ليس بعريض لكن عمقه يبلغ زهاء السبعين قدما ، او اكثر ، والمرء يخاف النظر الى قعره المظلم . بني عليه جسر خشبي يعبره الناس. ثارت في صدر فلاح ، من ابناء رعيتي ، وهو رب عائلة وقور محترم — رغبة لا تقاوم (بفتح الواو) في ان يلقي بنفسه من اعلى هذا الجسر الصغير الى اعماق الهوة . فكافح هذه الفكرة وقاوم ما به من دافع طيلة اسبوع . لكنه لم يعد في امكانه — آخر الامر — ان يضبط نفسه . فنهض مبكرا ، وخرج مندفعا وقفز في الخلاء . وسرعان ما سمعت (بضم السين) اناته (بتشديد النون) ، واخرج من الوادي بمشقة . كانت ساقاه مهشمتين . ولما سئل عن سبب سقوطه اجاب انه بالرغم مما يقاسي من الم شديد ، فقد هدأ باله اذ نفذ الرغبة التي لا تقاوم والتي كانت هاجسه لمدة اسبوع ، هاجسا خاطر من اجله بحياته .

امضى هذا الرجل عاما كاملا في المستشفى قبل شفائه الناجز . ذهبت لأعوده ، وكثيرا ما التقيت الاطباء يحيطون به . وكنت مثلك الآن راغبا في الوقوف على سبب الحادثة . اجاب الاطباء بالاجماع انها نوع من « الهيجان » . ولما سألتهم تفسيرا علميا لهذا « الهيجان» وكيف ينتاب الانسان ، لم استطع الحصول على اكثر

من قولهم ان هذا من اسرار الطبيعة التي ليس تفسيرها في متناول العلم . اما انا فقد رأيت انه اذا ما اخذ المرء ، المواجه لأحد غوامض الطبيعة المماثلة ، يتضرع الى الله ويطلب مشورة الروحانيين ، فان هذا « الهيجان » — على حد تعبير الاطباء — لن يتمكن في النهاية من الفوز . والحق اننا نجد في الحياة البشرية اموراً كثيرة لا يمكننا ان نفهمها بجلية ووضوح .

وفيما كنا نتكلم ، حل الظلام وبت ليلتي عنده . وفي صبيحة اليوم التالي ، اوفد المختار امين سره ليطلب من الكاهن دفن الميت في المقبرة ، وليقول ان الاطباء لم يجدوا ، بعد تشريح الجثة ، ايا من مظاهر « الهيجان » وان الوفاة سببها نوبة قلبية مفاجئة .

فقال لي الكاهن : ها انت ذا ترى ان علم الطب لا يمكنه ان يعلل هذا الدافع الذي لا يقاوم نحو الماء باي تعليل دقيق .

وعلى هذا ، ودعت الكاهن وعدت الى سابق مسيري . وبعد سفر عدة ايام ، بلغت — وقد شعرت بالتعب الشديد — مدينة تجارية هامة اسمها « بييلا تسيركوف » . ولما كان المساء قد اتى ، جعلت اسعى الى وجدان مكان ابيت فيه ليلتي . والتقيت في السوق رجلا بدا عليه انه سائح ايضا كان يستعلم اصحاب الدكاكين عن عنوان انسان يقطن هذه المدينة . ولما رآني اتى الي قائلا : « يبدو انك سائح انت ايضا . فلنسع معا باحثين عن انسان اسمه « افرينوف » يقيم في هذه المدينة . انه مسيحي صالح ، يدير نزلا فخما ويحسن ضيافة السائحين . انظر ، معي ههنا شيء مكتوب عنه» . رحبت بالفكرة وسرعان ما وجدنا بيته . ومع ان رب البيت لم يكن شخصيا في منزله ، فان زوجته — وهي عجوز صالحة — استقبلتنا ببشاشة ، وانزلتنا مخدعا منفردا في الاهراء لنصيب فيها الراحة .

قال لي رفيقي انه كان تاجرا في بلدة « موغيليف » وانه قضى عامين في احد اديرة « بيسارابيا » بصفة مبتدىء ، لكن ذلك كان

بجواز موقت . وهو الآن في طريق عودته للحصول على موافقة هيئة التجار على دخوله نهائيا حياة الرهبنة . واضاف : « ان الاديرة ، هناك ، وقوانينهـا وطريقتهـا والحيـاة المتشـددة للستارتس العديدين الاتقياء ، كل ذلك يـروق لي » . واكـد لي ان اديـرة « بيسارابيا » هي ، بالقياس الى اديرة روسيا ، كالجنة مقارنـة بالارض . والح علي لكي احذو حذوه .

وفيما كنا نتحدث في هذه الامور ، احضر نزيل ثالث الى غرفتنا . كان هذا النزيل ضابط صف عائدا الى بيته في اجازة . رأينـا ان سفره قد انهك قواه . فتلونا صلواتنا معا واستلقينا ننام . ونهضنا في فجر الغداة ، وكنا نستعد للرحيل . وكنا على وشك الذهاب لشكر مضيفتنا عندما سمعنا قرع الاجراس لصلاة السحر . فتساءلنا — انا والتاجر — عما علينا نفعل . فكيف نرحل ، بعد سماع الاجراس ، من غير الذهاب الى الكنيسة ؟ كان من الافضـل ان نبقى لصـلاة السحر ، نتلو صلواتنا في الكنيسة ، وبعدئذ يمكننا الرحيـل بسرور اعظم . ولما عزمنا على هذا ، دعونا ضابط الصف . لكنه قال لنا : « ما معنى الذهاب الى الكنيسة عندما يكون المرء على سفر ؟ مـا اهمية هذا عند الله ؟ فلنرحل ، وسنتلو صلواتنا من ثم . اذهبـا انتما ، ان شئتما ، اما انا فلست بذاهب . ففـي الـوقت الذي ستمضيانه في صلاة السحر ، سأكون على بعد خمسة فراسـخ من هنا ، او ما يقارب . اريد ان اصل الى بيتي باسرع ما يمكنني » . فرد التاجر على ذلك : « يا اخي ، لا تسرع بالعدو في مشاريعك من غير ان تعلم ما هي مقاصد الله ! » . فذهبنا الى الكنيسة ، وانطلق هو في رحلته .

وبقينا لصلاة السحر ولخدمة القداس الالهي . ثم عدنـا الى مخدعنا لاعداد كيسينا والرحيل ، ولكنه وجدنا مضيفتنا في الغرفة ، وفي يدها سماور . قالت : « الى اين انتما ذاهبان ؟ اليكمـا اولا بفنجان شاي . اجل ، وعليكما ايضا تناول الوجبة الصباحية معنا . لا يسعنا ان ندعكما الذهاب وانتما جائعان » . فبقينا . وما كـان

مضى على جلوسنا حول السماور نصف ساعة حتى وصل صاحبنا ضابط الصف راكضا ، لاهثا ، وقال : « اني اعود اليكم بائسا ، وبسرور في آن معا » . فسألناه : « ما الخبر ؟ » . اليكم ما قال :

عندما تركتكما وذهبت ، خطر ببالي ان اقصد المقهى لأرى اذا كان بوسعي الحصول على « فراطة » ولكي اتناول ايضا طعاما يساعدني على السفر . فذهبت اليه . وحصلت على الفراطة ، وتناولت بعض الطعام وانطلقت كالطير . وبعد اجتيازي قرابة الفراسخ الثلاثة ، فكرت في عد النقود التي اعطانيها القهوجي . فجلست على حافة الطريق ، واخرجت محفظتي وفحصت محتواها بهدوء كلي . ثم اكتشفت فجأة ان جواز سفري ليس فيها . ولم اجد الا بعض الاوراق ، والنقود . فأصابني الهلع كأنني فقدت صوابي . وادركت في مثل لمح البرق ما حصل : كان الجواز قد سقط بالتأكيد ، عندما دفعت ما علي في المقهى . كان علي ان اسرع واعود الى المقهى . فركضت وركضت . وخطرت ببالي فكرة ثانية مرهبة : ماذا لو لم يكن الجواز في المقهى ؟! سأكون امام مأزق ! واندفعت الى الرجل الجالس وراء الصندوق في المقهى وطلبته منه . قال : اني لم اره ! فانهرت انهيارا .

واخذت افتش حولي وابحث في كل مكان : حيث جلست ، وحيث تسكعت . اوتصدقون ؟ كان لي من الحظ ما جعلني اجد جواز سفري . كان هناك ما يزال مطويا ، على الارض بين القش والغبار وقد وطئته الارجل في القذارة . الحمد لله ! لقد كنت سعيدا . كنت وكأن جبلا انزاح عن كتفي . بالتأكيد ، كان الجواز متسخا يغطيه الوحل . وسيجلب لي ذلك بعض المتاعب ، لكن لا اهمية لهذا . مهما يكن ، باستطاعتي ان اذهب الى بيتي واعود منه نظيف اليدين . لكني اتيت لاروي لكم الخبر . وانكى ما في الامر ان قدمي ، لكثرة ما ركضت مرعوبا ، كالنار حرارة ، وانا لم اعد قادرا على المشي . ولقد جئت اطلب شيئا من المرهم لتضميد رجلي .

شرع التاجر يقول له : هكذا يا اخي . كان كل ذلك لانك لم تشأ سماع كلامنا والمجيء معنا الى الكنيسة . كنت تريد ان تسبقنا بمسافة كبيرة ، وبالعكس ها انت قد عدت « مخلعا » . لقد قلت لك الا تتسرع في مشاريعك ، والآن انظر الى ما انت فيه . لم يكن عدم مجيئك الى الكنيسة من العظائم ، ولكن الم تقل : « ماذا يهم الله ان نصلي ؟ » . قولك هذا ، يا اخي ، كان شرا . من البديهي ان الله ليس بحاجة الى صلواتنا نحن الخطأة ، ولكنه على هذا ، لحبه ايانا ، يرغب في ان نصلي . وما يرضيه ليس الصلاة المقدسة التي يساعدنا الروح القدس ذاته على تقديمها ، ويثيرها فينا ، بل كل توثب فينا وكل فكرة نقدمها لمجده . وفي المقابل تجزينا رحمة الله اللامتناهية جزاء سخيا . محبة الله تهب النعمة الف مرة اكثر مما تستحقه الاعمال البشرية . ان انت اعطيته تعالى ادنى فلس فسيدفع لك بالمقابل ذهبا . ان انت فكرت وحسب بالذهاب الى الآب فسيأتي الى لقائك . قل فقط كلمة صغيرة ، وبلا قناعة : « تقبلني ، ارحمني » ، وسيندفع ويعانقك . هكذا يحبنا الآب السماوي ، مهما نكن عديمي الاستحقاق . ولمجرد هذا الحب يغتبط بكل من خطواتنا ، وان كانت صغيرة ، نخطوها نحو الخلاص .

اما انت فتفكر هكذا : « اي مجد لله في هذا ؟ وما الفائدة لنا ، ان نحن صلينا قليلا ، ثم عادت افكارنا الى الضلال ، او ان نحن قمنا بعمل صالح ، كأن نتلو صلاة ترافقها خمس سجدات او ست ، او نتنهد مخلصين ذاكرين اسم يسوع ، او نعير اهتمامنا لفكرة صالحة ، او ان نباشر في قراءة روحية او ان نصوم عن الطعام ، او ان نحتمل اهانة بصمت ؟ » . كل ذلك لا يبدو لك كافيا لخلاصك ، ويظهر لك بالتالي ان لا جدوى من ممارسته . كلا ! ان ايا من هذه الافعال الصغرى لا يفعل سدى ، فان الله الذي يرى كل شيء سيدخله في الحساب ويجزيك عليه مئة ضعف ، لا في الحياة الثانية وحسب ، بل في هذه الحياة . يؤكد القديس يوحنا الذهبي الفم ان « اي عمل صالح مهما كان نوعه

ومهما كان صغيرا لن يرذله الديان الالهي العادل . ان كانت الخطايا يبحث عنها بدقة كبرى الى حد اننا نسأل (بضم النون) عن كل كلمة وكل رغبة وفكرة ، فكم بالاحرى الاعمال الصالحة ، مهما تكن صغرى ، فستؤخذ بالاعتبار ويكون لها حساب امام ديانا المتلىء محبة ! » .

سأحكي لكم حادثة رايتها بنفسي في العام الماضي : كان في دير بيسارابيا الذي كنت اعيش فيه ستارتس راهب يحيا حياة قداسة . في ذات يوم جابهته تجربة : اشتهى اكل السمك المجفف شهوة كبرى . ولما كان من المستحيل الحصول عليه في الدير ، في تلك الفترة ، خامرته فكرة الذهاب الى السوق لشراء شيء منه . كافح هذه الفكرة طويلا ، واعمل عقله مفكرا ان على الراهب ان يكون قانعا بالطعام العادي المهيأ للاخوة ، وان عليه بكل الوسائل تجنب ارضاء شهواته . اضف ان التجول في السوق وسط جمهور من الناس قد يكون ، لراهب ، مصدر تجارب ، وما هو اكثر : امرا غير لائق .

وفي النهاية تغلبت اكاذيب الشيطان على اعتراضاته ، فاستسلم لرغبته وذهب ليشتري سمكا . وبعد ان غادر الدير ، وفيما هو يسير في الشارع ، لاحظ ان سبحته لم تكن في يده واخذ يفكر : « اتراني امضي كجندي من غير سيفه ؟ » . وهم بالعودة لجلبها ، واذ بحث في جيبه وجدها فيه . فأخرجها ، ورسم اشارة الصليب ، ومضى بهدوء وسبحته في يده . وعند اقترابه من السوق رأى حصانا اوقف قرب دكان مع عربة محملة براميل ضخمة . وفجأة اجفل هذا الحصان لسبب لا ادري ما هو ، فانطلق على حين غرة وعدا متجها صوب الراهب ، ملامسا كتفه بحيث القاه ارضا دون ان يؤذيه كثيرا . ثم انقلب الحمل ، على خطوتين منه ، وتحطمت العربة قطعا قطعا . فنهض بخفة ونفض عنه جزعه متعجبا كيف ابقى الله على حياته ، اذ لو ان الحمل وقع نصف ثانية قبل وقوعه

لمزقه اربا كالعربة . وبدون ان يطيل التفكير ، اشترى السمك وعاد الى الدير ، واكله ، وتلا صلواته واستلقى لينام .

نام نوما خفيفا ، وفي منامه هذا ظهر له ستارتس سمح المحيا لم يكن هو يعرفه ، وقال له : انا شفيع هذا الدير وبودي ان اعلمك لكيما تفهم وتذكر العبرة التي اعطيتها . ان عدم جهادك ضد فكرة المتعة ، وتكاسلك في تمييزها وضبط نفسك اعطى الشيطان فرصته لمهاجمتك . لقد كان هيأ لك هذه الهزيمة . لكن ملاكك الحارس شعر بها واوحى اليك بالصلاة وبتذكرك سبحتك . ولانك استمعت لايحائه وطبقته عملا ، فان هذا خلصك من الموت . ارايت حب الله للبشر ، وجزاءه السخي لادنى نظرة تلتفت اليه تعالى ؟

وعلى هذه الكلمات ، اختفى ستارتس الرؤيا بسرعة من الحجرة . وركع الراهب ، وبركوعه استيقظ ليجد نفسه لا على فراشه بل على ركبتيه ساجدا على عتبة الباب . وروى قصة رؤياه لما فيه الفائدة الروحية للكثيرين غيره ، وانا منهم .

ان محبة الله لهي بلا حدود لنا نحن الخطأة . اوليس من الرائع ان عملا صغيرا كهذا — نعم ، مجرد اخراج السبحة من جيبه وحملها في يده وذكر اسم الله مرة واحدة — قد يعيد الحياة لانسان ، وان فترة قصيرة تقضى في ذكر اسم يسوع يمكن ان تكافىء ، في ميزان الدينونة ، ساعات عديدة من الكسل ؟ الحق ان هذا هو الدفع بالذهب مقابل الفلس الحقير . انظر ، يا اخي ، سلطان الصلاة ، وسلطان اسم يسوع عندما نذكره . يقول يوحنا الكرباتي في الفيلوكاليا ان في صلاة يسوع ، حينما يذكر الاسم المقدس قائلين : « ارحمني انا الخاطىء » ، على كل نداء يجيب صوت الله سرا : « يا بني مغفورة لك خطاياك » . ويضيف : اننا حين نتلو صلاة يسوع ، لا شيء يميزنا عن القديسين والمعترفين والشهداء . وذاك ، على ما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم : « مهما كانت الخطايا تكسونا ، فاننا ، عندما ننطق بالصلاة ، تطهرنا للحال . ان رحمة الله نحونا عظيمة ، بالرغم من اننا ، نحن

الخطأة ، لا مبالون ، بالرغم من اننا لا نريد حتى منح الله ساعة واحدة للشكر ، واننا نستبدل بالمشاغل ومتاعب الحياة الصلاة وهي اهم من اي شيء آخر ، ناسين الله وواجبنا . ولذا فكثيرا ما نصطدم بالمصائب والشدائد التي تستعملها المحبة اللامتناهية للعناية الالهية، في اي حال ، لارشادنا ورفع قلوبنا نحو الله » .

عندما انتهى التاجر من الكلام الى ضابط الصف ، قلت له : « يا للراحة التي جلبتها ايضا الى نفسي الخاطئة ، سيدي . بامكاني الانطراح بطيبة خاطر على قدميك » . ولما سمع هذه الكلمات اخذ يحدثني . قال : يبدو انك هاو كبير للنوادر الدينية . انتظر ، سأقرأ لك نادرة ثانية كالتي رويتها لتوي . معي هنا كتاب يصحبني في سفري ، عنوانه « اغابيا » او « خلاص الخطأة » . وهو يحوي العديد من الامور المذهلة .

واخرج الكتاب من جيبه وبدأ بقراءة قصة رائعة حول « اغاثونيس » الذي كان والداه التقيان قد علماه منذ طفولته ان يتلو كل يوم امام ايقونة والدة الاله الصلاة التي تبدأ هكذا « افرحي ايتها العذراء ، يا من تلد الاله » . وكان دوما يفعل هذا . وفيما بعد ، وقد كبر ، استغرق في مشاغل الحياة واضطراباتها ولم يتل تلك الصلاة الا نادرا ، ثم تخلى عنها في نهاية الامر .

وفي ذات يوم ، آوى لليل سائحا قال له انه ناسك في صحراء مصر وانه رأى رؤيا تلقى فيها امرا بالذهاب الى انسان يدعى اغاثونيس لتأنيبه على تخليه عن صلاة والدة الاله . فاعتذر اغاثونيس انه تلا الصلاة خلال سنوات كثيرة من غير ان يحصل على اية نتيجة ، فقال له الناسك :

ـ اذكر ايها الاعمى ناكر الجميل كم مرة ساعدتك هذه الصلاة وانقذتك من الكارثة . اذكر انك في شبابك انقذت باعجوبة من الغرق . الا تتذكر ان وباء قضى على الكثيرين من اصدقائك فيما احتفظت بعافيتك ؟ اتذكر انك كنت توصل صديقا فسقطتما من

العربة وكسر هو ساقه اما انت فبقيت سالما ؟ الا تعرف ان شابا من معارفك كان معافى قويا هو الآن مستلق ضعيفا مريضا ، فيما تنعم انت بالصحة الجيدة بلا آلام ؟

وذكر (بتشديد الكاف) اغاثونيس بكثير من الامور غيرهـا ، وقال له آخر الامر : اعلم ان هذه الشدائد جميعا قد صرفت عنك بحماية ام الله الكلية القداسة بسبب هذه الصلاة القصيرة التي كانت يوميا تصل قلبك بالله . فاحترس الآن ، وعد اليها ولا تتخل عن مديح ملائكة السموات ، خوفا من ان تتخلى هي عنك .

لما انتهى من القراءة ، نادونا للغداء ، وبعده شكرنا مضيفنا ، وقد استعدنا قوانا ، وبدانا المسير . وافترقنا ، فذهب كل من ناحية، كما حلا له .

سرت خمسة ايام تقريبا وقد شدد عزيمتي ذكرى القصص التي سمعتها من تاجر بييلا تسيركوف الطيب ، وصرت قريبا من مدينة « كييف » . وفجأة ، ومن غير سبب بدأت اشعر بالحزن والثقل ، وامتلأت افكاري عتمة وخورا في العزيمة . واتت الصلاة بصعوبـة واستولى علي شبه نعاس . ورأيت غابة ملأى بادغال العليق الكثيفة على حافة الطريق ، فدخلتها لاصيب فيها شيئا من الراحة باحثا عن مكان منعزل يمكنني الجلوس فيه تحت عليقة وقـراءة فيلوكاليتي وذلك لتشديد نفسي المستضعفة ومحاربة خوري . ووجدت مكانا هادئا واخذت بقراءة كاسيانوس الروماني (١) ، في الجزء الرابع من الفيلوكاليا حول الافكار الثماني . كنت اقرأ بمتعة من زهـاء نصف الساعة لما لاحظت بصورة غير منتظرة بالمرة طيف رجل على نحو مئة متر مني ، في داخل الغابة . كان راكعا ، بلا حراك . اسعدتنـي رؤيته ، اذ استنتجت انه كان يصلي وعدت الى القراءة . وبقيت

---

(١) القديس يوحنا كاسيانوس هو راهب روماني عاش في الشرق وتتلمذ على ايدي رهبانه الكبار ونقل تعاليمهم الى الغرب (اواخر القرن الرابع ــ اوائل القرن الخامس) .

اقرأ مدة ساعة او اكثر ، وعدت الى القاء نظرة . كان الرجل مـــا يزال هناك راكعا ، ودون ادنى حركة . اثر هذا في (بتشديد الياء) بالغ الاثر وفكرت : « ما اكثر عبيد الله الاوفياء ! » .

وفيما كنت افكر في هذا ، فجأة سقط الرجل على الارض وظل مستلقيا بهدوء . فدهشت . واذ كنت لم ار وجهه ـــ لانه كان يدير لي ظهره عندما كان راكعا ـــ شعرت بفضول يدفعني الى الاقتراب منه لارى من كان . لقد كان فتى من الريف ، شابا في حوالي الخامسة والعشرين . وكان صبيح الوجه ، جميل الهيئة ، غير انه شاحب . وكان يلبس « غنباز » فلاح يشده في الوســـط حبـــل من اليـــاف الزيزفون بمثابة الحزام . ولم يكن معه اي شيء آخر ذو طبيعـــة خاصة . ولم يكن يحمل جرابا ولا حتى عصا . نبهه صوت اقترابي فنهض . وسألته من هو ، فقال لي انه فلاح من فلاحي الدولة ، من مقاطعة « سمولنسك » ، وانه آت من « كييف » . فسألت : والى اين انت الآن ذاهب ؟

اجاب : لا اعرف هذا انا نفسي ، الى حيث تسوقني يد الله .

ـــ هل مضى زمن طويل على تركك بيتك ؟

ـــ نعم ، اكثر من اربع سنين .

ـــ واين عشت خلال هذه الفترة الطويلة ؟

ـــ ذهبت من مزار الى مزار في الاديرة والكنائس . لم يكن من معنى لبقائي في بيتي . انا يتيم ولا اقرباء لي . زد ان لي رجلا شوهاء ولذا فانا ماض اضرب في الارض .

فقلت : يبدو ان انسانا يخاف الله قد علمك الا تتجول اينمـــا اتفق ، بل ان تزور اماكن مقدسة . اجاب : حسنا ، ترى ، بما اني بلا اب ولا ام ، كنت اذهب ، وانا طفل مع رعاة القطعـــان ، وكنت سعيدا حتى سن العاشرة . ثم ، في ذات يوم ، عدت بالقطيع الى البيت ، من غير ان الاحظ ان افضل خروف من خرفان المختار لم يعد معي . كان مختارنا فلاحا قاسيا لا انسانيا . عندما عاد الى بيته في

ذلك المساء ورأى ان خروفه قد ضاع ، انهال علي شاتما مهددا ، واقسم انه سيضربني حتى الموت ان انا لم اجده وقال : « سأكسر لك يديك ورجليك » . ولعلمي بمبلغ شراسته ، انطلقت باحثا عن الخروف ، عائدا الى الامكنة التي رعى فيها اثناء النهار . وبحثت ، وبحثت اكثر من نصف الليلة ، ولكني لم اقع على اي اثر له في مكان .

وكانت الليله حالكة السواد ايضا، اذ كنا نشارف على الخريف. ولما توغلت في داخل الغابة — والغابات شاسعة في مقاطعتنا — هبت عاصفة على حين غرة . فكأن الاشجار لهب في مهب الريح ، ومن بعيد ، اخذت الذئاب تعوي . فأخذني الرعب بحيث وقف شعر راسي . وكان كل شيء يتعاظم هولا حتى بت على وشك الانهيار خوفا ورعبا .

وعندئذ خررت على ركبتي ورسمت اشارة الصليب وقلت من كل قلبي : « ايها الرب يسوع المسيح ارحمني » . وما ان قلت هذا حتى شعرت بسلام تام ، للحال ، كما لو كنت لم اشعر بأدنى قنوط . وزال كل ما كان بي من رعب وشعرت بالسعادة في قلبي ، كما لو رفعت الى السماء . اوترى : كان بي فرح كبير ، ولم اتوقف لحظة عن ترداد هذه الصلاة . وحتى اليوم انا لا اعرف ان كانت العاصفة قد دامت طويلا ، ولا كيف مضى الليل . رأيت نور النهار يرتفع ، وكنت ما ازال هنا ، راكعا في المكان . ونهضت بهدوء، وفهمت انني لن اجد الخروف ابدا ، وعدت الى البيت . ولكن كل شيء في قلبي كان على ما يرام ، وكنت اتلو صلاة يسوع لما فيه مسرة قلبي .

ومذ بلغت القرية ، رأى المختار اني لم ارجع الخروف ، فضربني حتى اصبحت نصف ميت ، وخلع هذه الرجل كما ترى . وبقيت في الفراش اكاد لا استطيع الحراك مدة ستة اسابيع ، بعد ذلك القصاص . وكل ما كنت اعرفه هو اني كنت اتلو صلاة يسوع وانها كانت تشدد قواي . ولما شعرت بتحسن ، اخذت اضرب في

الارض . ولما كنت لا اعنى بمصاحبة الجمهور بصورة مستمرة ، وهي فرصة ارتكاب الكثير من الخطايا ، عقدت النية على الرحلة من مكان مقدس الى مكان ، وفي الغابات . هكذا امضيت مدة ستبلغ الخمس سنين قريبا .

عند سماعي هذه القصة ، امتلأ قلبي فرحا اذ اعتبرني الله مستحقا للقاء رجل بهذا الصلاح ، وسألته : وهل تستعمل صلاة يسوع الآن كثيرا ؟ فأجاب : لن استطيع العيش بدونها. ترى : ان انا تذكرت كيف سقطت على ركبتي في تلك المرة الاولى ، في الغابة ، حسبت وكأن احدا يدفعني مجددا على ركبتي ، واباشر في الصلاة . وانا لا اعرف ان كانت صلاتي الحقيرة ترضي الله ام لا . وذلك لاني اشعر احيانا ، اذ اصلي ، بغبطة كبرى ، كأنها خفة في الروح ، شبه ملء فرح . ولكني ، في احيان اخرى ، احس بثقل حزين وضعف روحي . وفي اي حال انا راغب في الاستمرار في الصلاة حتى الموت . فقلت له : لا تكتئب يا اخي العزيز . فكل شيء يرضي الله ويفيد لخلاصنا ، كل شيء بلا استثناء مما يطرأ اثناء الصلاة . هذا ما يقوله الآباء القديسون . ان كانت خفة القلب او تثاقله ، فهذا حسن . وليس من صلاة ، جيدة كانت او سنية ، غير كافية في نظر الله . فالخفة والحرارة والسرور تبين ان الله يكافئنا ويعزينا عن المجهود ، اما الثقل والظلمة والجفاف فتعني ان الله يطهر النفس ويقويها ، وبهذه المحنة يفديها ، مهيئا اياها ، في التواضع ، لتقبل المسرات الآتية . اثباتا لذلك ، سأقرأ لك شيئا كتبه القديس يوحنا السلمي .

ووجدت المقطع وقرأته ، فاستمع اليه بانتباه وسر به . ثم شكرني عليه كثيرا . وعلى هذا افترقنا . فاتجه مباشرة نحو اعماق الغابة وعدت الى الطريق . وتابعت المسير شاكرا الله اعتباره اياي ، على كوني خاطئا ، مستحقا لتلقي تعليم كهذا .

وفي اليوم التالي ، وصلت الى « كييف » بعون الله تعالى .

وكان اول ما اردت فعله في هذه المدينة المقدسة واهمه الصيام قليلا ، والاعتراف والمناولة . ونزلت على مقربة من القديسين (٢) لان ذلك كان انسب للذهاب الى الكنيسة . اصطحبني شيخ من الكوزاك، ولما كان يعيش وحيدا في كوخ ، وجدت عنده الهدوء . وبعد اسبوع قضيته في الاستعداد للاعتراف ، خطر ببالي ان اقوم باعتراف مفصل قدر المستطاع . فجعلت اتذكر كل ما ارتكبت من خطايا منذ صباي واتفحصها ، بدقة : ولكي لا يفوتني شيء منها دونت كل ما استطعت تذكره مع ادق التفاصيل ، مما ملأ ، ورقة كبيرة بكاملها .

وبلغني ان في « كيتاييفا بوستينا » على قرابة السبعة فراسخ من « كييف » ، كاهنا متزهدا ذا تمييز وعمق نظر كبير . من ذهب يعترف اليه وجد لديه جوا من الرفق الرقيق ، وعاد بتعليم مفيد لخلاص النفس وسلامها . كنت شديد السعادة لمعرفتي الامر ، وانطلقت حالا نحوه . وطلبت منه مساعدته ، وتجاذبنا الحديث فترة، ثم اعطيته ورقتي . قرأها بكاملها وقال اي :

يا صديقي العزيز ، ان قسما كبيرا مما كتبت لهو لغو . اسمع : اولا ، لا تعترف بخاطايا سبق لك ان ندمت عليها وغفرت لك . لا تعد اليها ، فان هذا يعني التشكك في سر التوبة . وثانيا ، لا تعد الى ذاكرتك الاشخاص الآخرين الذين شاركوا في خطاياك ، لا تدن الا نفسك . وثالثا ، يحرم الآباء القديسون علينا ذكر كافة ظروف الخطايا وملابساتها ، ويقولون لنا ان نقر بها بعبارات عامة بحيث نبعد التجربة عنا وعن الكاهن في آن معا . ورابعا ، اتيت لتقوم بفعل الندامة وانت لا تندم على عدم معرفتك الندم ، اعني ان ندامتك فاترة مهملة . وخامسا ، تبسطت في هذه التفاصيل كلها ، ولكن الاهم لم تحفظه : لم تبح بأخطر خطاياك ، لم تقر ولم تكتب انك لا تحب الله ، وانك تمقت قريبك ، وانك مجبول بالتكبر والطمع . ان جذور

---

(٢) اي في دير الكهوف حيث يدفن الرهبان القديسون .

الشر متأصلة في هذه الخطايا الاربع التي يكمن فيها انحلالنا الروحي كله . انها الجذور الرئيسية ، التي منها تنبع كل الخطايا التي نتردى فيها .

دهشت جدا لسماعي هذا وقلت : سامحني يا ابت ، ولكن كيف يكون من الممكن عدم حب الله خالقنا ومخلصنا ؟ وباي شيء يمكن الايمان ما لم يكن في كلمة الله ، الذي فيه كل حقيقة وكل قداسة ؟ اني اتمنى الخير لكل الناس فلماذا اكرههم ؟ وليس لي ما يمكنني من التكبر . وعلى كل ، ليس لي ، وقد امتلأت بالعديد من الخطايا ، ما يستحق المديح . وماذا عساي اشتهي مع حقارتي وصحتي الضعيفة ؟ من المؤكد انني لو كنت متعلما وغنيا ، لكنت ـ بلا شك ـ مذنبا بالخطايا التي حدثتني عنها . فقال : من المؤسف يا عزيزي ان تكون اسأت فهم ما قلت الى هذا الحد . فلنر ! ستتعلم بصورة اسرع فيما لو اعطيتك هذه الملحوظات . انها كتابات افيد منها دوما لاعترافي الشخصي . اقراها بكاملها ، وسترى بوضوح الدليل على صحة ما قلته لك لتوي .

اعطاني الملحوظات واخذت في قراءتها . ها هي ذي :

«اعتراف يقود الانسان الداخلي الى التواضع»

تحققت بالاختبار ، وقد ادرت انظاري بانتباه الى ذاتي وتفحصت استعدادات ضميري ، اني لا احب الله ، واني لا احب اقربائي ، وان ليس لي الايمان وانني ممتلىء بالتكبر والطمع . كل هذا اجده حقا في ذاتي ، عقب امتحان مفصل لعواطفي وتصرفي . وهكذا :

١ ـ انا لا احب الله

اذ لو كنت احب الله ، لفكرت باستمرار فيه بسرور عميق . وكانت كل فكرة بالله اعطتني لذة ورغائد . وعلى العكس ، فانا افكر

بصورة غالبة وبحرارة في امور الدنيا ، والتفكير بالله هو لي مجهود وجفاف . لو كنت احب الله ، لكان الكلام اليه ، في الصلاة ، غذائي وسروري ، وكان جرني الى شركة معه لا تنقطع . ولكني ، بالضد ، ليس فقط اني لا اجد في الصلاة اية متعة ، بل انا اجد انها مجهود . وانا اكافح بنفور ، وقد اضعفني الكسل ، وانا مستعد لأن اسارع الى اي امر تافه ، بلا اهمية ، ان كان فيه تقصير لفترة الصلاة وصرف عنها . ويطير وقتي في مشاغل تافهة ولكني اذ انشغل مع الله ، اذ اضع نفسي في حضرته تبدو لي كل ساعة سنة . ان من يحب احدا يفكر فيه طوال اليوم دون توقف ، ويتخيل صورته ، يعتني به ، ولا يغيب المحبوب عن افكاره في اي من الاحوال . اما انا ، فأني اكاد لا اخصص حتى ساعة لأستغرق في ذكر الله ، لالهب قلبي لأجله ، فيما انا أبقي (بضم الهمزة) باستعجال ثلاثا وعشرين ساعة في قرابين حارة لاصنام اهوائي . ولا اطلب الا الحديث في موضوعات باطلة وفي امور تفسد النفس . ان هذا يسرني . ولكن ان كانت القضية التأمل في الله ، فذلك هو القحط والضجر والكسل .

وحتى فيما لو جرني آخرون ، بصورة لا ارادية ، الى موضوع روحاني ، فاني اسعى بسرعة الى تغيير مجرى الحديث بحيث يوافق رغائبي. ان بي فضولا لا يشبع ازاء الطرائف والاحداث السياسية ، واسعى بحمية الى ارواء حبي للمعرفة العلمية والفنية . لكن درس ناموس الله ، ومعرفة الله والايمان قليلة الجاذبية لي ولا توافق حاجة في نفسي . وليس اني اعتبرها كمشاغل غير جوهرية للمسيحي وحسب بل اني اعدها ايضا احيانا كأمر لا طائل فيه ربما عنيت به في اوقات فراغي الضائعة . وفي النهاية ، ان كنا نعرف حب الله من العمل بوصاياه (قال سيدنا يسوع المسيح : ان كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي) ، فاني لا اقتصر على عدم العمل بها ، بل اني لا اسعى جادا الا قليلا للأخذ بها . والحق انه يظهر من هذا ، بالنتيجة ، اني لا احب الله . هذا ما يقوله باسيليوس الكبير : « ان

الدليل على ان انسانا لا يحب الله ومسيحه يكمن في انه لا يعمل بوصاياه » .

٢ ــ اني لا احب قريبي ايضا

اذ ليس اني غير قادر على التضحية بحياتي من اجله فحسب (كما يطلب الانجيل) ، بل اني لا اتخلى حتى عن سعادتي وراحتي ورفاه حالي لما فيه خير قريبي . ولو كنت احبه كنفسي ، كما يأمر به الانجيل ، لأحزنتني مصائبه وابهجتني سعادته . ولكني بالضد ، اسمع عن قريبي اخبارا مدهشة محزنة ولست احزن . لا اتكدر لها قط ، او اني ــ وهذا اسوأ ــ اجد فيها شيئا من المتعة . وسوء تصرف اخي ، بدلا من ان اموهه بمحبة ، اعلنه ناصبا نفسي رقيبا عليه . وراحته وافراحه لا تسرني كما لو كانت لي ولا اشعر لها بأية لذة كما لو كانت غريبة عني كل الغربة . بل اكثر من هذا ، انها تثير في (بتشديد الياء) الحسد او الازدراء .

٣ ــ ليس لي اي ايمان ديني

لا بخلود النفس ولا بالانجيل . لو كنت مقتنعا قناعة راسخة لا شك فيها ان وراء القبر الحياة الابدية والجزاء على اعمال هذه الدنيا لفكرت بذلك دون انقطاع . بل ان فكرة الابدية كانت ملأتني خشية ، وكنت امضيت حياتي هذه كغريب يتهيأ للعودة الى موطنه الاصلي . وبالعكس ، فانا لا افكر في الابدية مجرد تفكير واعتبر نهاية حياتي هذه على الارض كغاية وجودي . تولد في (بتشديد الياء) هذه الفكرة سرا : من يدري ماذا يحصل ساعة الموت ؟ وان قلت اني اؤمن بالخلود فان هذا مجرد توكيد ذهني ، وقلبي بعيد جدا عن ان يكون مقتنعا قناعة راسخة . يؤيد ذلك بوضوح تصرفي وهمي الدائب على ارضاء حياة الحواس . لو كان في قلبي ايمان بالانجيل المقدس ،

ككلمة الله ، لعناني هذا باستمرار ؛ ولكنت درست الانجيل ووجدت فيه ملذاتي ، ولعلقت عليه انتباهي بورع عميق . ان الحكمة والنعمة والمحبة مخبوءة فيه ، ولجعلت فرحي ليل نهار دراسة شريعة الله . وبه تعالى كان يكون غذائي ، خبزي اليومي ، ولحافظ قلبي تلقائيا على نواميسه . واي شيء على الارض ما كان له قدرة على صرفي عنه . والامر بالضد : ان انا قرات او سمعت كلمة الله من حين لآخر ، فليس ذلك الا لضرورة او لما في النفس من حب للمعرفة. ومن جهة ثانية ، انا لا اوليها انتباها شديدا واجدها كالحة لا تسترعي الاهتمام . وابلغ نهاية قراءتي — عامة — من غير اية فائدة ، وانا على استعداد دائم لأن ابدلها بقراءة عالمية اجد فيها متعة اكبر وموضوعات جديدة شيقة .

٤ — كلي تكبر وانانية حواس

ان رأيت في (بتشديد الياء) شيئا صالحا رغبت في ابرازه او جعلت منه موضوع تكبري امام الآخرين او في نفسي لكيما انال الاعجاب على هذا الصلاح . ومع اني اظهر بمظهر التواضع ، فاني اعزوه بالكلية الى استحقاقي الخاص واعتبر نفسي فوق الآخرين ، او ، في الاقل ، اني لست دونهم . ان لاحظت عيبا في (بتشديد الياء)، احاول معذرته وتمويهه قائلا : « هكذا جبلت » او « لست انا من يلام في ذلك » . واغضب على الذين لا يعاملوني باحترام واقرر انهم غير اهل على تقدير الناس على حقيقة امرهم . واباهي بمواهبي ، اما فشلي في عمل ما فاعتبره اهانة شخصية . اجد متعة في مصيبة اعدائي . وان انا جهدت في عمل صالح فان ذلك يكون بغية مجد اناله ، او رضى روحي او تعزية ارضية . وبعبارة موجزة ، اجعل من نفسي صنما اخدمه دون انقطاع ، ساعيا في كل شيء الى ما يذكي اهوائي ورغائبي .

عند امتحان هذا كله ، ارى اني متكبر فاسد ، قليل الايمان

وبلا محبة لله واني اكره قريبي . فاي حال يمكن لها ان تكون مذنبة اكثر من هذه ؟ ان وضع الارواح الشريرة افضل من حالي . فانها ، بالرغم من عدم محبتها لله وكرهها للبشر وعيشها المتكبر تؤمن وترتعد خوفا . وانا ؟ ايمكن ان يكون ثمة مصير ارهب من المصير المعد لي ، واي قضاء تراه يكون اقسى من القضاء الذي سيدين الحياة اللامبالية العابثة التي اعرف انها حياتي ؟

***

عند قراءتي نموذج الاعتراف هذا الذي اعطاني اياه الكاهن ، من اوله الى آخره ، شعرت بالهول وفكرت : « يا للسماء ! اية خطايا قبيحة تكمن في (بتشديد الياء) وانا لم الاحظها الى الآن ! » . ودفعتني الرغبة في التطهر منها الى ان اطلب من هذا الاب الروحي الحق ان يطلعني على اسباب هذه الآفات كلها وعلاجاتها . فأخذ في تعليمي . قال :

اوترى ، يا اخي العزيز ، ان عدم محبة الله يأتي من قلة الايمان ، وسبب هذا النقص هو الامتناع عن دراسة العلم الحقيقي والمقدس وعدم الاهتمام بشؤون الروح . وبكلمة موجزة ، لا يمكنك ان تحب ان لم يكن لك الايمان . ان لم تكن مقتنعا لا يمكنك ان تحب، ولكيما تصل الى الاقتناع ينبغي لك معرفة تامة دقيقة بالمسألة . وعليك ، بالتأمل وبدراسة كلمة الله وبملاحظتك لاختباراتك الخاصة، عليك ان تثير في نفسك الظمأ والشوق او — كما يسميه البعض — « الدهشة » التي تولد (بتشديد اللام وكسرها) رغبة لا تروى في معرفة الاشياء ، عن كثب وبصورة اتم ، وذلك للتوغل في طبيعتها توغلا اعمق .

يتكلم كاتب روحاني عن هذا بقوله : « ان الحب ينمو ، عامة ، مع المعرفة ، وكلما كان عمق المعرفة ورقعتها اكبر ، كان الحب اكبر، وخضع القلب بسهولة اكبر وانفتح على حب الله ، متأملا بانتباه

ملء عالم الله وجماله ؛ وحب **الله اللامتناهي** للناس » .

ترى ، اذن ، ان سبب هذه الخطايا هو رفضنا الكسول للتأمل في الامور الروحية ، وهو كسل يخنق حتى الشعور بالحاجة الى هذه التأملات . وان كنت تريد ان تعرف كيف تتغلب على هذا الخطأ ، فاسع الى انارة الروح بكل ما في يدك من وسائل ، وتوصل الى ذلك بالدراسة الدائبة لكلمة الله وآباء الكنيسة ، وعن طريق التأمل والارشادات الروحية وبأحاديث من هم حكماء في المسيح . اواه يا اخي العزيز ، يا لعظم شقائنا بسبب تكاسلنا وحده عن البحث عن نور النفس في كلمة الحق . نحن لا ندرس شريعة الله ليل نهار ، ولا نصلي باجتهاد ودون توقف لمعرفتها . ولذا كان انساننا الداخلي جائعا وبردان . انه يعاني الحرمان الى حد انه لا يقوى على القيام بخطوة شجاعة في سبيل الفضيلة والخلاص ! وهكذا ، ايها الحبيب ، فلنعقد النية على استخدام هذه السبل ولنشغل ذهننا ، ما امكننا ذلك ، بالتفكير في الاشياء السماوية . وسيلتهب فينا الحب المنسكب في قلوبنا من عل . سنفعل هذا ، اذن ، وسنصلي ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، اذ ان الصلاة هي اولى الوسائل ، واهمها ، من اجل تجددنا وصلاح حالنا . سنصلي بالعبارات التي تعلمنا اياها الكنيسة المقدسة : « يا الله ، اجعلني قادرا على ان احبك الآن كما احببت الخطيئة في الماضي » .

استمعت الى هذا كله بانتباه . وطلبت الى هذا الاب القديس، وقد تأثرت عميقا ، ان يستمع الى اعترافي ويناولني القربان المقدس. وفي صبيحة الغداة ، بعد ان حصلت على نعمة المناولة ، عقدت النية على العودة الى « كييف » بزادي المقدس هذا . لكن هذا الاب البار، الذي كان ذاهبا الى دير الاكهاف لقضاء يومين ، تكرم بضيافة صومعته ولكيما اتمكن من الانصراف بحرية ، في سكينتها ، الى الصلاة . امضيت هذين اليومين كما لو كنت في الفردوس . كنت انعم ، انا غير المستحق ، بالسلام الكامل بفضل صلوات

الستارتس . كانت الصلاة تنبع في قلبي بيسر وسرور كبيرين الى حد اني ــ في تلك الفترة ــ نسيت ، على ما اظن ، كل شيء ، ونفسي. لم يكن في فكري الا يسوع المسيح ، والاه وحده .

عاد الكاهن ، آخر الامر ، وسألته نصحه وارشاده : « الى اين امضي الآن في مسيرتي كسائح ؟ » ، فباركني قائلا : اذهب الى « بوشاياف » لتكرم هناك الاثر العجائبي لقدم والدة الله الكلية الطهارة ، ولسوف ترشد خطاك في درب السلام .

فاخذت بنصيحته ، وانطلقت بعد ثلاثة ايام نحو « بوشاياف » . كانت الطريق على مسافة زهاء المئتي فرسخ ، تقوم فيها بكثرة الفنادق والقرى اليهودية ، ولم يقع لي الا نادرا ان اجد بيتا مسيحيا . ولاحظت ، في احدى الدساكر ، وجود نزل مسيحي . فدخلته لمبيت ليلة ، ولطلب زاد الطريق من الخبز ، لان مؤونتي شارفت على النفاد . ورأيت مضيفي ، وهو شيخ وسيم الوجه ، وعرفت انه في الاصل من مقاطعتي ، مقاطعة «اورلوف» . دخلت الغرفة مباشرة ، وكان اول اسئلته : ما ديانتك ؟ فأجبت اني مسيحي ارثوذكسي . قال ضاحكا : ارثوذكسي حقا ! انتم لستم ارثوذكسيين الا قولا ، اما فعلا فلستم الا وثنيين . انا اعرف كل شيء عن دينك ، يا اخ . اغراني كاهن مثقف ، ذات مرة ، وقد جربته . دخلت كنيستكم وبقيت ارثوذكسيا ستة اشهر ، عدت بعدها الى عادات طائفتي . ان دخول كنيستكم مجرد وهم يغر به . فالقراء يهمهمون الخدمة على هواهم ، يحذفون اشياء ، ويتلون اشياء لا تفهم . وليس الترتيل افضل مما يسمع في مقهى . ويقف الناس رجالا ونساء معا ، وهم يتكلمون اثناء الخدمة ، ويتلفتون وينظرون حولهم ، ويتمشون جيئة وذهابا ولا يدعون لك هدوءا او سلاما لتصلي . اي انواع العبادة هذه ؟ انها خطيئة ، هذه ما هي . اما عندنا ، فلأن الخدمة ورعة فيمكنك سماع ما يقال ، ولا يحذف شيء ، والترتيل في غاية الروعة ، فيما يبقى الشعب هادئا : الرجال

من جهة والنساء من جهة ثانية . وكل يعرف الانحناءات التي يجب القيام بها في الوقت المناسب وفقا لتعاليم الكنيسة المقدسة . حقا وصدقا ، يشعر المرء لدى دخوله احدى كنائسنا ان الله يعبد (بضم الياء) فيها ، اما في كنيسة من كنائسكم ، فلا يعرف الانسان ان كان في الكنيسة ام في السوق .

فهمت من هذا كله انه من اتباع « المؤمنين القدامى » المتشددين . لكن كلامه كان سديدا بحيث لم يكن في وسعي لا مناقشته ولا هدايته . غير اني قلت في نفسي انه سيكون من المستحيل هداية المؤمنين القدامى الى الايمان الصحيح ما لم تنظم الطقوس لدينا تنظيما حسنا ، وما لم يضرب رجال الدين المثل الصالح . فان المؤمنين القدامى لا يعرفوا شيئا عن الحياة الروحية ، وهم يعتمدون على الاشياء الخارجية ، ونحن انما نهمل هذه .

ولذا قررت الذهاب ، وصرت فعلا في مدخل المكان واذا بي ارى ، بدهشة كبرى ، خلال باب غرفة خاصة ، رجلا تدل هيئته على انه غير روسي ، وكان يقرأ مستلقيا على سرير . اشار الي (بتشديد الياء) اشارة ، وسألني من اكون ، فقلت له . فأخذ يحدثني. قال : اسمع يا صاح . الن تقبل العناية بمريض... فلنقل لاسبوع، الى ان تتحسن حالي بعونه تعالى ؟ انا يوناني ، راهب من جبل آثوس . وانا في روسيا بغية جمع صدقات لديري . واصابني المرض وانا في طريق العودة . ان ساقيي تؤلماني الى حد لا استطيع السير معه . لا تقل لا يا عبد الله ، سأدفع لك اجرك . فقلت : لا حاجة بك الى ان تدفع لي شيئا . سأقوم بالعناية بك على افضل ما استطيعه ، لوجه الله .

فبقيت معه . وتعلمت منه اشياء كثيرة تتصل بخلاص نفوسنا. وحدثني عن آثوس ، الجبل المقدس ، وعن كبار الزهاد فيه وعن

النساك المتوحدين الكثيرين . وكان معه نسخة يونانية من الفيلوكاليا وكتاب لاسحق السرياني . فقرأنا معا وقارنا النص السلافوني الذي ترجمه « باييسي فيليتشكوفسكي » (١) بالنص اليوناني الاصلي . فأعلن انه يستحيل تأدية الفيلوكاليا بدقة وامانة اكبر مما نقلت فيه الى السلافونية بقلم باييسي .

لاحظت انه كان في حالة صلاة دائمة ، وحاذقا جدا في صلاة القلب الداخلية ، ولما كان يتقن الروسية اتقانا ، سألته اسئلة في هذا الموضوع . فقال لي للحال الكثير فيه واستمعت اليه بانتباه . بل اني دونت ملحوظات كثيرة خطيا . وهكذا ، مثلا ، اطلعني على امتياز صلاة يسوع وعظمتها بهذه الكلمات : « حتى شكل صلاة يسوع يظهر ما اعظم هذه الصلاة . وهي في قسمين ، في القسم الاول : « ايها الرب يسوع المسيح ، يا ابن الله » توجه افكارنا نحو سر يسوع المسيح ، وكما يقول الآباء القديسون ، انها خلاصة للانجيل .

وفي القسم الثاني ، « ارحمني ، انا الخاطىء » تضعنا الصلاة امام واقع طبيعتنا الساقطة . ومن الملاحظ ان رغبة نفس مسكينة متواضعة والتماسها لا يمكنهما ان يعبر عنهما بعبارة احكم واوضح وادق من هذه العبارة : « ارحمني » . لن يمكن لاية صيغة غيرها ان تكون بكمالها وبقدرتها على بعث الرضى . لو كنا نقول ، مثلا : « سامحني ، امح خطاياي ، طهرني من معاصي ، تجاوز عن اهاناتي » ، لكان هذا كله لا يعبر الا عن التماس ليس هو

---

(١) راهب روماني (١٧٢٢ — ١٧٩٤) عاش في جبل آثوس حيث تدرب على حياة الصلاة المستديمة . وبرجوعه الى رومانيا ترجم الفيلوكاليا الى السلافونية . راجع المقدمة .

الا طلب العفو من العقاب ، وخوف نفس ضعيفة لا حول لها . اما قولنا : « ارحمني » فلا يعبر عن الرغبة في العفو خوفا وحسب ، بل هو الصرخة الصادقة للمحبة البنوية التي جعلت املها في رحمة الله واقرت بتواضع بكونها في غاية الضعف لتحطيم ارادتها الذاتية والسهر على نفسها . انه نداء رحمة ــ نداء نعمة اذن ــ سيتجلى بالقوة التي سيمنحنا الله ليجعلنا قادرين على مقاومة التجربة والانتصار على ميلنا الى الخطيئة . كما لو كان مدين عاجز عن الدفع يطلب من دائنه ــ وهو صديقه ــ لا ان يؤجل له موعد الدفع وحسب ، بل ان يشفق ايضا على فقره المدقع ويتكرم عليه بما تجود يده . هذا ما تعبر عنه هذه الكلمة العميقة : « ارحمني » . فكأنك تقول : « ايها السيد الرحيم اعف عن خطاياي وساعدني على تقويم نفسي ، ايقظ في نفسي رغبة حارة في اتباع وصيتك . انشر نعمتك بمسامحتك خطاياي الحاضرة ، وبتوجيه افكاري وارادتي وقلبي اللامبالين نحوك وحدك » .

وعلى هذا ، عجبت لحكمة كلامه ، وشكرته لتعليمه نفسي الخاطئة . وتابع يعلمني اشياء رائعة . قال :

ــ ان اردت (وفهمت انه عالم ، اذ كان درس في اكاديمية اثينا) حدثتك الآن عن اللهجة التي تقال بها صلاة يسوع . والواقع اني سمعت مسيحيين كثيرين يخافون الله يتلون هذه الصلاة شفهيا ، كما امر كلمة الله ووفقا لتقليد الكنيسة المقدسة . وهم يلجأون اليها لا في صلواتهم الخاصة وحسب بل في الكنيسة . وان انت استمعت بانتباه وكصديق الى التلاوة الهادئة لهذه الصلاة ، للاحظت ، لفائدتك الروحية ، ان لهجة الصوت المصلي تختلف تبعا للأشخاص . وهكذا نرى البعض يشددون النبرة على الكلمة الاولى ويقولون « **ايها الرب يسوع المسيح** » ثم ينهون بقية الجملة كلها بلهجة واحدة . ويبدأ البعض الآخر بلهجة واحدة ، ويشددون النبرة ، في منتصف الصلاة ، على كلمة **يسوع** ، كما في جملة

تعجبية ، وينهون الصلاة من ثم باللهجة ذاتها الموحدة ، كما فعلوا في البداية . وآخرون غيرهم يبدأون الجملة ويستمرون فيها من غير نبرة حتى الكلمة الاخيرة — **ارحمني** — حيث يرفعون صوتهم بقوة . واخيرا هنالك من يتلون الصلاة كلها « ايها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني انا الخاطىء » بنبرة شديدة على عبارة **« ابن الله »** وحدها .

اسمع الآن . ثمة صلاة واحدة فقط . وللمسيحيين الارثوذكسيين عقيدة واحدة فقط ، وكلهم يعلمون ان هذه الصلاة السامية اكثر من غيرها تحوي شيئين : الرب يسوع والنداء الموجه اليه . والجميع يقرون بهذا . فلماذا ترى لا يتلفظون بها بالطريقة ذاتها ، باللهجة ذاتها ؟ لماذا تصلي كل نفس بطريقتها الخاصة ؟ لماذا تعبر النفس عن ذاتها بنبرة خاصة لا في الموضع بذاته للجميع ، بل في مكان بعينه بالنسبة الى كل شخص ؟ يقول كثيرون ان هذا ربما كان وليد العادة او المحاكاة ، او ان هذا رهن بتأويلات متباينة للكلمات تبعا لوجهات نظر فردية ، او — اخيرا — انها الطريقة التي تأتي باكبر سهولة، بصورة طبيعية لكل واحد. لكن رأيي مختلف . بودي ان اجد سببا اسمى ، شيئا يكون مجهولا لا لدى سامع الصلاة وحسب بل لدى المصلي نفسه ايضا . الا يكون ثمة احتثاث خفي من الروح القدس الذي يتوسط من اجلنا بأنات لا يستطيع اختراعها الذين لا يعرفون لماذا ولا كيف يصلون ؟ وان كان كل امرىء يذكر اسم يسوع بالروح القدس ، حسب قول الرسول ، فان الروح الفاعل في الخفاء ، والمعطي الصلاة لمن يصلي ، يهب هذا المرء عطية خاصة ، بالرغم من تخاذل قوته .

وهكذا فقد يمنح الروح القدس انسانا خوفا لله موقرا ، ويمنح آخر المحبة ، ويمنح ثالثا رسوخ الايمان ، وآخر التواضع المشبع نعمة ، وهكذا . . .

وان كان الامر كذلك ، فان الذي تلقى نعمة توقير قدرة الضابط

الكل ومديحها سيسعد بصورة خاصة بلفظ كلمة **رب** التي يشعر فيها بعظمة خالق العالم وقدرته . والذي اعطي سيل الحب الخفي في قلبه يغتبط ويمتلىء سرورا اذ يتعجب قائلا : **يسوع المسيح** ، تماما كذلك الستارتس الذي ما كان يستطيع ان يسمع اسم يسوع ، حتى في حديث عادي ، من غير ان يشعر بدفق خاص من المحبة والفرح . والذي يؤمن ايمانا لا يتزعزع في الوهة يسوع المسيح ، المساوي للآب في الجوهر ، يوهب ايمانا احر لدى تلفظه بكلمتي **ابن الله** . ومن وهب (بضم الواو) هبة التواضع ، وكان يعي ضعفه الخاص وعيا عميقا يشعر بالتواضع والندامة عند قوله **ارحمني** ، وهو يفتح قلبه في خاتمة صلاة يسوع هذه . وهو يحب الامل الذي يعقده على رحمة الله المحب للبشر ويمقت سقوطه الشخصي في الخطيئة .

ورأيي انه ينبغي ، في هذا ، البحث عن اسباب اللهجات المتباينة التي تنطق بها صلاة اسم يسوع . ويمكنك ان تتعرف فيها ، لدى الاستماع اليها ، لما فيه مجد الله وعبرتك الخاصة ، الى اي انفعال ينفعل به هذا او ذاك من المصلين ، واية موهبة روحية اعطيت له . قال لي كثيرون ، بهذا الصدد : لماذا لا تظهر علامات هذه المواهب الروحية الخفية ، لماذا لا تظهر معا ، مجتمعة ؟ عندئذ ستكون لا بعض كلمات الصلاة ... بل كلها مشبعة بانجذاب روح واحدة . اجبت بهذه الصورة : ما دامت نعمة الله تنثر مواهبها بحكمة على كل حسب قوته ، كما نرى في الكتاب المقدس ، من تراه يستطيع ان يسعى ، مع عقله المحدود ، الى الدخول في حالات النعمة جميعا ؟ اليس الفخار في يد الخزاف بالكلية ، اولا يمكنه ان يصنع منه اي شيء يريد حسب مشتهاه ؟

قضيت خمسة ايام مع هذا الستارتس ، وبدأ يشعر بتحسن كبير . ولقد كان هذا الزمن مفيدا لي كثيرا حتى اني لم احس بالسرعة التي انقضى فيها . اذ اننا في تلك الغرفة الصغيرة ، في عزلتنا

الساكنة لم يكن لنا من هم سوى ذكر اسم يسوع بصمت ، او الحديث في موضوع واحد هو الصلاة الداخلية .

وفي ذات يوم اتى سائح يزورنا . كان يشكو بمرارة من اليهود ويشتمهم . فلقد مر في قراهم وعانى ، لا شك ، من عداوتهم وحيلهم. وكانت مرارته كبيرة منهم الى حد انه كان يلعنهم ، حتى انه قال انهم لا يستحقون الحياة بسبب عنادهم وقلة ايمانهم . واعلن ، اخيرا ، ان كرهه لهم كبير بحيث لم يعد قادرا على السيطرة عليه .

فقال الستارتس : لا يحق لك ، يا صاح ، ان تشتم اليهود وتلعنهم بهذه الصورة . فقد خلقهم الله كما خلقنا نحن ، ويجب عليك ان تكن لهم الاحترام وان تصلي من اجلهم لا ان تلعنهم . صدقني ، ان الاشمئزاز الذي تشعر به نحوهم يأتي من كونك غير متأصل في حب الله ، وان ليس عندك الصلاة الداخلية . سأقرأ لك مقطعا من كتابات آباء الكنيسة حول هذا الموضوع . اسمع ، هذا ما كتبه مرقس الزاهد : « ان النفس المتحدة داخليا بالله تصبح ، بسبب فرحها الكبير ، كطفل بسيط طيب ، لا يدين احدا لا يونانيا ولا وثنيا ولا يهوديا ولا خاطئا ، لكنه يعتبرهم جميعا بنظرة واحدة مطهرة . ويجد فرحا في العالم كله ، ويشتهي ان يمجد الجميع الله ــ يونانيين ويهودا ووثنيين » . ويقول مكاريوس الكبير المصري ان المتأمل يحترق بحب كبير الى حد انه ، لو كان من الممكن ، لجعل من نفسه مسكنا للجميع ، من غير تمييز بين الاخيار والاشرار .

هذا ، يا اخي العزيز ، ما يفكر به الآباء بهذا الصدد . اوصيك اذن ان تتخلى عن عنفك وان تنظر الى كل شيء تحت سمة العناية الالهية العليمة بكل شيء ، وعندما تشعر بالانزعاج ادن نفسك بنفاد الصبر وبقلة التواضع .

اخيرا مضى اسبوع ، وشفي صاحبي الستارتس ، فشكرته من صميم القلب على كل التعاليم المباركة التي لقنني ، ثم ودع كل منا الآخر . انطلق هو في المسير بغية العودة الى بلده وتابعت انا خط

السير الذي كنت قد رسمته ، فكنت اقترب من « بوشاياف » . ولم اكن قد اجتزت اكثر من المئة فرسخ حين لحق بي جندي . فسألته الى اين هو ذاهب . فقال لي انه عائد الى مسقط رأسه « كامينتسك بودولسك » . وسرنا زهاء العشرة فراسخ من غير ان نتبادل كلمة واحدة ، ولاحظت انه يتنهد تنهدا عميقا ، كما لو ان شيئا يثقل صدره، وكانت ملامح وجهه قاتمة . فسألته عما يحزنه الى هذا الحد . قال : يا صاح ما دمت قد لاحظت حزني ، فان انت حلفت بأقدس ما عندك انك لن تبوح به لأحد ، فسأروي لك حكايتي كاملة . فأني على وشك الموت ، ولا احد لدي احدثه .

فطمأنته اني ، كمسيحي ، لم يكن بي ادنى حاجة الى كشف الامر لأي كان ، واني ، بفعل المحبة الاخوية ، سيسعدني ان اسدي اليه اية نصيحة يمكنني اسداؤها .

فشرع يحكي قائلا : اليك قصتي : جندت كجندي من بين فلاحي الدولة . وبعد زهاء الخمس سنين باتت الخدمة لا تطاق ، وبالفعل جلدت مرارا عديدة بسبب اهمالي والسكر . وصممت على الفرار ، وفررت ، وقد عشت هذه السنين الاخيرة الخمس عشرة فارا . خلال ست سنين ، اختبأت حيثما استطعت . وكنت اسرق من المزارع والعنابر والمستودعات . كنت اسرق الخيل . وكنت اسطو على دكاكين . وتابعت هذا النوع من الاعمال على حسابي الخاص . وكنت اتخلص من المسروقات بطرق مختلفة . وكنت اعاقر الخمرة بثمن المبيعات ، واعيش حياة منحلة وارتكب ما امكن من الخطايا . لكن روحي وحدها لم تهلك . وكنت اتدبر امري على خير ما يرام . لكن الامر انتهى بي الى ان القيت في السجن بسبب التشرد من غير جواز سفر . غير اني هنا ايضا وجدت فرصة للهرب . ثم اجتمعت ، من غير سابق موعد ، بجندي مسرح من الخدمة ، كان عائدا الى بيته في مقاطعة نائية . ولما كان مريضا لا يمشي الا بشق النفس ، طلب مني ان اوصله الى اقرب قرية يمكنه ان يجد فيها مأوى . فأوصلته .

وسمحت لنا الشرطة ان نبيت ليلتنا في اهراء ، فوق القش ، واستلقينا هناك . وعند استيقاظي ، في صبيحة الغداة ، القيت نظرة الى صاحبي الجندي ، فكان هذا جثة هامدة . فبحثت بسرعة عن جواز سفره — او بالاحرى عن وثيقة تسريحه — وبعد ان وجدتها مع مبلغ محترم من المال ، وفيما كان الجميع ما يزالون نياما ، غادرت الاهراء باسرع ما امكنني ، ودخلت الغابة وهربت . وعند قراءتي جواز السفر وجدت انه في ذات سني تقريبا ، والعلامات الفارقة عينها . فاستبشرت بهذا وقصدت بقدم ثابتة مقاطعة « استراخان » . هنا ، اخذت في التعقل قليلا ، وحصلت على عمل . كنت مع شخص مسن يملك بيتا ويتعاطى تجارة الماشية . وكان يعيش لوحده مع ابنته المترملة . بعد عام امضيته عنده ، تزوجت ابنته . ثم توفي الشيخ . ولم يكن بوسعنا الاستمرار في اعماله . وعدت الى معاقرة الخمرة ، وزوجتي كذلك ، وبعد عام كنا قد بذرنا كل ما تركه الشيخ من مال . ثم مرضت زوجتي وتوفيت . وعندئذ بعت كل ما تبقى مع البيت ، وسرعان ما وجدت نفسي وقد نفد كل مالي . لم يكن لي شيء اعتاش به ، لا شيء آكله . فعدت الى تجارتي القديمة : بيع المسروقات ، بجراة اكبر مما دمت الآن امتلك جواز سفر .

وهكذا عدت الى حياتي السابقة مدة عام تقريبا . ثم جاءت فترة طويلة لم يكن فيها النجاح قط حليفي . سرقت فرسا عجوزا حقيرا لفلاح بلا ارض ، وبعته الى الحطاب بثمن لقمة خبز . اخذت المال الى المقهى وجعلت اشرب الخمر . كان في نيتي الذهاب الى قرية يحتفلون فيها بعرس ، يحدوني الامل بسرقة كل ما استطعت اليه سبيلا ، بعد ان ينام الجميع عقب الاحتفال . ولما كانت الشمس لم تغب بعد ، ذهبت الى الغابة في انتظار الليل . واستلقيت ونمت نوما عميقا .

فرايت حلما ، رايت فيه نفسي واقفا في مرج كبير

وجميل . وفجأة ارتفعت في السماء سحابة مخيفة ، ثم قصفة رعد رهيب الى حد ان الارض زلزلت تحت قدمي ، وشعرت وكأن احدا يدفعني بضربة الى كتفي في باطن الارض التي كانت تحيط بي ضاغطة من كل الجهات . وكان رأسي وحده مع يدي خارج التراب . وعندئذ رأيت وكأن تلك السحابة الرهيبة حطت على الارض ، وخرج منها جدي المتوفي منذ عشرين سنة . لقد كان رجلا مستقيما جدا ، وكان وكيل الكنيسة طوال ثلاثين سنة في ضيعتنا . اتى الي والغضب والوعيد يبدوان على سيمائه ، مما جعلني ارتعد . ورأيت حولي ، في كوم متعددة ، الاشياء التي سرقتها في فترات مختلفة . فتضاعف رعبي . اتى جدي الي ، واشار باصبعه الى الكومة الاولى قائلا : ما هذا ؟ هلم ! فأخذت الارض من حولي تضيق علي بشدة كبيرة بحيث لم اكن استطيع تحمل الالم ، ولا اصابني الاغماء ، رغم شدته . فأننت وهتفت : « ارحمني » ، لكن عذابي استمر . وعندئذ اشار جدي الى كومة ثانية وقال ايضا : وما هذا ؟ اسحقيه سحقا اقوى ! فشعرت بألم وقلق عنيفين من الشدة بحيث لا يمكن ان يقارن بهما اي تعذيب على وجه الارض . واخيرا ، ساق جدي قريبا مني الحصان الذي سرقته في العشية وصرخ : وما هذا ؟ هلم باقوى ما تستطيعين . كان ألمي شديدا في جسدي كله الى حد لا يمكن وصفه . كان ألما قاسيا مريعا مدمرا ! بدا لي وكأن عضلاتي كلها تسحق سحقا ، وكان هذا الالم الفظيع يخنقني . وشعرت ان هذا العذاب لو دام وقتا اطول لفقدت الوعي . لكن الحصان رفسني وجرح خدي . وعند تلقي هذه الضربة ، استيقظت .

كنت في غاية الرعب وكانت الرعدة تنتاب جسدي كله. ورأيت ان النهار طلع وان الشمس كانت تشرق . واذ رفعت يدي الى خدي احسست بالدم يسيل متدفقا ، واجزاء بدني التي كانت في الحلم مدفونة ، كانت ، ماذا اقول ؟... متخدرة ، موجوعة وبها دبيب النمل . وكان رعبي شديدا بحيث صعب علي النهوض والعودة

الى منزلي . وآلمني خدي زمنا طويلا . انظر ! بوسعك ان ترى الندبة . لم تكن هنا من قبل . ومنذ ذلك اليوم ، يستولي علي الخوف والذعر في احيان كثيرة لمجرد ذكرى ما قاسيت في ذلك الحلم ، وهما من القوة بحيث لا ادري ما اصنع بنفسي . وانكى ما في الامر ان هذه الفترات تزايدت ، وصرت آخر الامر اخاف الناس واشعر بالعار كما لو كان الجميع يعرفون ماضي (بتشديد الياء) المعيب. فقدت حب الشراب والاكل والنوم بسبب هذا العذاب . وغدوت خرقة بالية . ولقد فكرت في العودة الى كتيبتي في الجيش وفي الاعتراف بكل ما في قلبي مخففا . فلربما عفا الله عن خطاياي ان انا تقبلت قصاصي . لكن الخوف اصابني ، والتفكير في امكانية جلدي ثبطت عزيمتي . فنفد صبري واردت ان اشنق نفسي . لكنه خطر ببالي انني ، في كل حال ، لم يبق لي الكثير اعيشه ، وسأموت عما قريب لاني فقدت قواي كلها . ولذا اردت العودة الى بلدتي لاودع الوداع الاخير واموت . ما زال لي ابن اخ ، وقد مضى علي الى الآن ستة اشهر وانا اسير . وفي كل حين انوء بعبء العذاب والخوف بصورة بائسة . ما قولك يا صاح ؟ ماذا علي ان افعل ؟ حقا اكاد اكون منتهيا .

عند سماعي هذا كله عرتني دهشة كبرى وحمدت حكمة الله وصلاحه اذ رأيت باي السبل يتلفان خاطئا . وقلت له : يا اخي العزيز ، كان عليك خلال هذا الخوف وهذا القلق ان تصلي الى الله . انه العلاج الاعظم لكل مشقاتنا . فقال لي : ابدا ! كان يبدو لي اني لو اخذت في الصلاة ، لحطمني الله فورا . فقلت : لا معنى لقولك هذا ، يا اخي ، ان ابليس هو الذي يدخل في رأسك افكارا كهذه . لا حد لرحمة الله ، انه يتحنن على الخاطىء ويسامح بسرعة كل الذين يتندمون . ربما كنت تجهل صلاة يسوع : « ايها الرب يسوع المسيح ، ارحمني انا الخاطىء » ، هذه الصلاة التي يكررها المرء بلا انقطاع .

ـ انا طبعا اعرف هذه الصلاة ! وكنت اتلوها احيانا

لأحافظ على شجاعتي اذ كنت على وشك ارتكاب سرقة .

ـــ اسمع اذن . لم يهلكك الله عندما كنت في سبيل عمل شرير اذ تلوت الصلاة . اتراه يفعل ان جعلت تصلي وانت في سبيل الندامة ؟ أنك ترى تماما ان افكارك من الشيطان تأتي . صدقني ، يا اخي العزيز ، ان اردت تلاوة الصلاة من غير ان تشغل بالك ابدا بالافكار التي تخطر لك ايما كانت ، فستشفى بسرعة كبرى . سيزول كل خوف وكل قلق ، وفي النهاية ستعيش بسلام تام . وستصبح انسانا تقيا ، وستزول عنك كل الاهواء الآثمة . اؤكد لك ذلك لاني رايت امثلة كثيرة عنه في حياتي . ثم حدثته عن عدة حالات تجلى فيها اثر صلاة يسوع في الخطأة . واخيرا اقنعته بمرافقتي الى دير والدة الاله في « بوشاياف » ، ملجأ الخطأة ، وبالاعتراف هناك وتناول القربان المقدس قبل العودة الى بلده .

استمع الجندي الى هذا كله بانتباه وفرح ، على ما استطعت ملاحظته ، وقبل كل ما عرضته عليه . وذهبنا معا الى «بوشاياف» ، بشرط الا يوجه احدنا الكلام الى صاحبه وان نتلو صلاة يسوع طوال الوقت . مشينا بصمت نهارا بكامله . وقال لي في الغداة انه يشعر بتحسن كبير ، وكان من الواضح ان نفسه اهدأ من ذي قبل . وبلغنا « بوشاياف » في اليوم الثالث ، وحثثته ايضا على عدم قطع الصلاة نهارا او ليلا ، ما دام مستيقظا ، مؤكدا له ان اسم يسوع الكلي القداسة ، الذي لا يطيق اعداؤنا الروحيون سماعه سيكون له سلطان تخليصه . وقرأت له في الفيلوكاليا انه ، بالرغم من ان علينا تلاوة الصلاة كل حين ، فانه من الضروري ، بصورة اخص ، تلاوتها باكبر ما يمكن من عناية حين نتهيأ للمناولة .

وهذا ما فعل ، ثم اعترف وتناول . وبالرغم من ان افكاره القديمة عادت اليه تعذبه بين الحين والحين ، فانه لم يصعب عليه تبديدها بصلاة يسوع . ومساء الاحد ، نام ابكر من عادته وهو يتابع تلاوة صلاة يسوع ، وذلك حتى يستطيع النهوض بسهولة اكبر لصلاة السحر . وبقيت جالسا في ركني ، اقرأ فيلوكاليتي على ضوء

شمعة . وانقضت ساعة . نام صاحبي ، واخذت في تلاوة الصلاة . وبعد عشرين دقيقة تقريبا ، وفجأة اجفل وافاق ، وقفز بسرعة من سريره ، واتى راكضا الي ، دامعا ، وقال وهو في غاية السعادة : آه يا اخي ، ليتك تعلم ما رأيت لتوي ! يا للسلام ، يا للفرح ! اعتقد ان الله رحيم للخطاة ، وهو لا يعذبهم . المجد لك يا رب ، المجد لك !

فدهشت ، وسعدت ورجوته ان يقص علي بدقة ما حدث له . فقال : اليك قصتي : ما كدت انام حتى وجدت نفسي مجددا في ذلك المرج الذي عذبت فيه . واصابني الرعب اول الامر ، ولكني رأيت ان الشمس مشعة ، بدل السحابة ، وكانت تشرق ، وان نورا رائعا يتألق على المرج كله . ورأيت ازهارا جميلة وعشبا . وفجأة اتى الي جدي ، وهو اجمل ما يكون ، وحياني بلطف وقال لي : « اذهب الى « جيتومير » ، الى كنيسة القديس جاورجيوس . وستأخذك الكنيسة تحت حمايتها . امض فيها بقية عمرك وصل بلا انقطاع . وسيكون الله لك كثير الافضال » . وعلى هذا رسم علي اشارة الصليب واختفى . لا يمكنني ان اعبر لك عن السعادة التي شعرت بها : لكأن عبئا ازيح عن كتفي ، وكأني طرت محلقا في السماء . وهنا افقت ، وقد حل السلام في نفسي وقلبي ، وامتلأت فرحا الى حد اني ما كنت ادري ما انا فاعل . ماذا يجب ان افعل الآن ؟ سأنطلق حالا الى « جيتومير » ، كما قال لي جدي . وسيكون هذا سهلا ، برفقة صلاة يسوع .

ـ لحظة ، يا اخي ، كيف يمكنك الذهاب في منتصف الليل ؟ ابق حتى صلاة السحر ، قل صلواتك ثم اذهب يصحبك الله .

لم ننم بعد هذه المحادثة . ذهبنا الى الكنيسة ، فبقي لصلاة السحر بأكملها وصلى صادقا باكيا ، وقال انه يشعر بالسلام ، وانه سيتابع بفرح تلاوته لصلاة يسوع . وفي القداس ، تناول القربان ، وعندما افطر رافقته حتى طريق « جيتومير » حيث افترقنا وفي عينينا دموع الفرح .

اخذت افكر عندئذ في شؤوني الخاصة . الى اين اذهب الآن ؟ قررت آخر الامر ان ارجع الى « كييف » . جذبتني اليها تعاليم كاهني الحكيمة . اضف انني لو بقيت معه فقد يجد صديقا للمسيح وللبشر يجعلني على طريق اورشليم او على الاقل ، جبل آثوس . وبقيت اسبوعا آخر في « بوشايف » ، اقضي وقتي في تذكر كل التعاليم التي تلقيتها في رحلتي هذه ، وفي تدوين ملحوظات حول عدد معين من الاشياء . ثم تهيأت للسفر ، واخذت جرابي وذهبت الى الكنيسة لاضع نفسي في رعاية والدة الاله . وبعد القداس تلوت صلواتي وبت مستعدا للانطلاق . كنت اقف في اقصى الكنيسة عندما دخل رجل ذو ثياب وان لم تكن ثمينة جدا على انها تدل على كونه من النبلاء ، وسألني اين تباع الشموع . فأريته المكان . وبعد نهاية القداس ، بقيت اصلي امام المذبح . وعند فراغي من صلواتي اخذت في المسير .

وبعد فترة رأيت ، محاذيا الشارع ، نافذة بيت مفتوحة ورجلا يقرأ كتابا . وكانت الدرب تمر بالضبط بالقرب من هذه النافذة ورأيت ان الرجل كان ذاك الذي سألني عن الشموع في الكنيسة . فرفعت قبعتي ، اذ جزت به ، وعندما رآني اشار الي ان اذهب اليه وقال : اظن انك سائح . اجبت : نعم . فرجاني في الدخول واراد ان يعرف من انا والى اين اذهب . فقلت له كل ما يتصل بي من غير ان اخفي شيئا . وقدم لي الشاي وجعل يخاطبني ، قال : اسمع ، يا عزيزي الصغير . انصحك الذهاب الى دير « سولوفيتسكي » الواقع في احدى جزر « سولوفيتس » في البحر الابيض . فهناك منسك يخيم عليه الهدوء وشديد العزلة اسمه « آنزرسكي » . انه اشبه بآثوس ثان ، ويرحبون فيه بكل انسان يذهب اليهم . وللمبتدىء فقط ان يقوم بهذا : ان يقرأ في دوره كتاب المزامير في الكنيسة اربع ساعات من الاربع والعشرين ساعة . وانا بنفسي اذهب الى هناك ، ولقد نذرت ان اذهب مشيا على قدمي . وبوسعنا ان نذهب معا . سيكون الامر آمن معك ، اذ يقال

ان الطريق خالية من المسافرين . وانا ، من جهة ثانيـــة ، املـــك المال ، وبامكاني تأمين معيشتك اثناء الرحلـــة . اني اعرض عليك هذه الشروط : سيسير واحدنا على بعد عشرين خطوة من الآخر ، وهكذا لن نضايق بعضنا بعضا وسنتمكن من القراءة او التأمل طوال الطريق . فكر في الامر ، يا اخي ، واقبل ، ارجوك : فهـــو جديـــر بالاهتمام والقبول .

اعتبرت هذه الدعوة غير المتوقعة كعلامة ارسلتها والدة الاله التي طلبت منها ان ترشدني الى طريق الغبطة . ومن غير ان اطيل التفكير قبلت . وانطلقنا في اليوم التالي . وخلال ايام ثلاثة ، سرنـــا كما اتفقنا : واحدنا وراء الآخر . كان يقرأ كتابا طـــوال الوقت ، كتابا ما فارق يده لا ليلا ولا نهارا . وكان حينا ينصرف الى التأمل . ووصلنا اخيرا الى مكان توقفنا فيه للعشاء . فتناول طعامه وكتابـــه مفتوح امامه ، ومن غير ان تفارقه عيناه . ورأيت ان هذا الكتاب كان نسخة من الاناجيل فقلت له : اتسمح لي ، يا سيدي ، بان اسألك لماذا تحتفظ ليل نهار بالاناجيل في يدك ؟ لماذا تأخذهـــا وتحملها معك دائما ؟

فاجاب : ذاك لاني اتعلم دون انقطاع منها ، ومنها وحدها . فأضفت : وماذا تتعلم ؟ فقال : الحيـــاة المسيحيـــة التي تتلخص في الصلاة . اني ارى ان الصلاة اهم وسائل الخلاص والحها ، وانها الواجب الاول لكل مسيحي . والصلاة هي الخطوة الاولى في الحياة الروحية ، وهي ايضا غايتها التي تتوجها ، ولذا امرنـــا الانجيـــل بممارسة الصلاة الدائمة . وقد خصص وقت معين لباقي اعمـــال التقوى ، اما الصـــلاة فـــلا وقت الا وهو مناسب لها . ويستحيل ، من غير صلاة ، ان تفعل اي عمل صالح ، كما يستحيل ، من غير الاناجيل ، تعلم كيف يحسن ان نصلي . ولذا فان جميع الذين نالوا الخلاص عن طريق الحياة الروحية : القديسون الذين بشروا بكلمة الله والنساك والمتوحدون ، وفي الحقيقة كل المسيحيين المتقين الله ،

كلهم قد تلقوا تعليمهم من انشغالهم الدائب الذي لا يمل في اعماق كلام الله ، ومن قراءة الانجيل . وكان الكثيرون دائمي الحمل للأناجيل في يدهم ، وفي تعليمهم عن الخلاص يسندون هذه النصيحة : « اجلس في سكينة حجرتك واقرأ الانجيل ، واعد قراءته » . هذا هو السبب الذي من اجله تراني متعلقا بالانجيل دون سواه .

فأعجبني تفكيره هذا كثيرا ، كما اعجبتني حميته في الصلاة . ثم سألته في اي انجيل ، على وجه التخصيص يجد تعاليم حول الصلاة . فأجاب : في الاربعة ، من غير تمييز ، في العهد الجديد بأكمله ، بقراءته على الترتيب . وانا اقراه منذ امد مديد متشربا معناه ، وقد دلني هذا ان ثمة تدرجا وتسلسلا منتظما من التعاليم حول الصلاة في الانجيل المقدس ، بدءا بأول انجيل ، وبانتظام حتى الاخير ، حسب منهج معين . ففي اولها ، مثلا ، تهيئة وتوطئة لدراسة الصلاة ، ثم شكلها او التعبير الخارجي عنها بكلمات . وفيما بعد ، نجد الشروط اللازمة لرفع الصلاة ، والوسائل الكفيلة بتعلم هذا مع امثلة . واخيرا نقع على العبرة الخفية للصلاة الداخلية والروحية الدائمة لاسم يسوع المسيح ، وهي مبينة كصلاة اسمى واجدى للخلاص من الصلاة الخارجية . ثم يأتي بيان ضرورة تلاوتها وثمرها المبارك ، وهكذا ... وبعبارة وجيزة ، يجد المرء في الانجيل معلومات وافية مفصلة عن ممارسة الصلاة في نظام او في تسلسل نهجي من بداية الانجيل الى نهايته .

دفعني هذا الجواب الى ان اطلب منه ايضاح ذلك تفصيلا ، فقلت له : لما كنت احب سماع الحديث حول الصلاة اكثر من اي شيء آخر ، فسيسعدني جدا ان المس سلسلة التعاليم هذه الخفية حول الصلاة في كافة تفاصيلها . كرمى لله ارني ذلك كله في الانجيل ذاته . فقبل بطيب خاطر قائلا : افتح انجيلك ، وانظر فيه ، ودون ما اقوله لك . واعطاني قلما .

قال : تجمل وانظر هذه الملحوظات التي دونتها . والآن انظر اولا في انجيل القديس متى ، الاصحاح السادس ، واقرأ الآيات من الآية الخامسة الى التاسعة . سترى ان لدينا هنا الاعداد او التوطئة التي تعلم انه ينبغي علينا ان نباشر بالصلاة لا حبا بالظهور ، وبصورة صاخبة بل في مكان منعزل ، وفي السكينة . وانه انما ينبغي لنا الصلاة طلبا لمغفرة الخطايا وللاتحاد بالله وحسب ، من غير ان نضيف عددا من الطلبات بلا جدوى حول امور دنيوية مختلفة ، كما يفعل الوثنيون . ثم تابع قراءة الاصحاح ذاته ، واقرأ من الآية التاسعة الى الآية الرابعة عشرة . تجد هنا شبكل الصلاة ، باي كلمات يجب ان نعبر عنها ، تجد هنا ، مجموعة بغزير الحكمة ، كل العناصر اللازمة والمرغوب فيها لحياتنا . وبعد هذا ، تابع قراءة الآيتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من الاصحاح ذاته ، وستجد الشروط اللازمة لكيما تكون الصلاة فعالة . اذ اننا لو كنا لا نغفر لمن اساء الينا ، فلن يغفر الله لنا خطايانا . انتقل الآن الى الاصحاح السابع ، وستجد في الآيتين السابعة والتاسعة كيفية الحصول على ثمرة الصلاة ، كيفية الرجاء الشجاع : اطلب ، ابحث ، اقرع . ان هذه العبارات القوية تصف تواتر الصلاة وضرورة ممارستها ، بحيث لا نكتفي بملازمة الصلاة لاعمالنا كلها ، فتسبقها ايضا . انها الخاصة الاساسية للصلاة .

وانت واجد تمثيلا لذلك في الاصحاح الرابع عشر من انجيل القديس مرقس ، من الآية الثانية والثلاثين الى الآية الاربعين ، حيث نرى يسوع نفسه يردد تكرارا عبارات بعينها للصلاة .

والقديس لوقا ، في الاصحاح الحادي عشر ، من الآية الخامسة الى الآية الرابعة عشرة ، يعطي مثلا مشابها للصلاة المكررة في مثل صديق نصف الليل ، وفي الطلب المتكرر والملحاح للارملة (لوقا ١٨ : ١ ــ ٨) ، موضحا بهذا وصية يسوع المسيح بأن علينا

ان نصلي دائما ، في كل زمان وكل مكان ، والا ننصرف الى التقاعس اي الكسل .

وبعد هذا التعليم المفصل ، نجد في انجيل القديس يوحنا التعليم الاساسي حول صلاة القلب السرية الداخلية . وفي المقام الاول ، نجد هذا التعليم في الخبر العميق الذي ينقل الينا حديث المسيح مع السامرية ، حيث يكشف لنا امر العبادة الداخلية بالروح والحق ، تلك العبادة التي يريدها الله ، والتي هي الصلاة الدائمة الحقيقية ، كالماء الحي النابع في الحياة الابدية (يوحنا ٤ : ٥ ــ ٢٥) . وبعد هذا ، في الاصحاح الخامس عشر ، في الآيات من الرابعة الى الثامنة ، نقرأ وصفا اكثر دقة لقدرة الصلاة الداخلية وامكانياتها ولزومها اي انتباه الروح الموجه الى المسيح ، والى ذكر الله الذي لا ينقطع . واقرأ اخيرا الآيات من الثالثة والعشرين الى الخامسة والعشرين ، في الاصحاح السادس عشر من الانجيل ذاته . وانظر اي سر هنا يكشف لنا عنه . ستلاحظ ان صلاة اسم يسوع المسيح ، المعروفة باسم صلاة يسوع اي « ايها الرب يسوع المسيح ، ارحمني انا الخاطىء » اذا ما رددت مرارا هي ذات السلطان الاكبر ، وتفتح القلب بسهولة وتقدسه .

يمكننا ملاحظة ذلك بوضوح كبير بصدد الرسل الذين كانوا تلاميذ يسوع خلال سنة بكاملها ، وقد كانوا تلقنوا منه الصلاة الربانية اي « ابانا الذي في السموات » . واننا نعرف هذه الصلاة منهم . وعلى هذا ، فان يسوع المسيح ، في نهاية حياته الارضية ، كشف لهم السر الذي كان ما يزال ناقصا من صلاتهم . فحتى تخطو الصلاة خطوة حاسمة الى امام ، قال لهم : « الى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي ... الحق الحق اقول لكم ان كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم » . وهذا ما حدث لهم . وعندما تعلم الرسل الصلاة باسم يسوع ، ما اكثر العجائب التي اجترحوها ،

وما اغزر النور الذي وهبوا (بضم الواو) ! والآن ، هل ترى تسلسل التعليم وملأه عن الصلاة مرتبا بالكثير من الحكمة في الانجيل المقدس ؟ وان انت تابعت بقراءة الرسائل ، فستجد ايضا ذات التعليم المتدرج .

وحتى تكتمل الملحوظات التي سبق ان اعطيتك ، سوف ادلك على مقاطع عديدة تتمثل فيها صفات الصلاة . وهكذا ، تجد في اعمال الرسل وصفا لممارستها ، اي التمرس الجاد الدائب للمسيحيين الاوائل الذين استنارروا في ايمانهم بيسوع المسيح (الاعمال ٤ : ٣١) . وكذلك ثمار الصلاة ونتائج الصلاة الدائمة مبينة وهي دفق الروح القدس ومواهبه للذين يصلون . وسترى شيئا مشابها في الاصحاح السادس عشر ، في الآيتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين . ثم تتبع الرسائل على الترتيب وستجد :

١ ــ شدة الحاجة الى الصلاة في كل الظروف (يعقوب ٥ : ١٣ ــ ١٦) .

٢ ــ كيف يساعدنا الروح القدس على الصلاة (يهوذا ٢٠ ــ ٢١ والرومانيين ٨ : ٢٦) .

٣ ــ كيف ان علينا جميعا ان نصلي بالروح (افسس ٦ : ١٨) .

٤ ــ شدة الحاجة ، مع الصلاة ، الى السكينة والسلام الداخلي (فيلبي ٤ : ٦ ــ ٧) .

٥ ــ كم هو من الضروري ان نصلي بلا انقطاع (١ تسالونيكي ٥ : ١٧) .

٦ ــ ونلاحظ اخيرا ان على المرء الا يصلي لذاته وحسب ، بل لجميع الناس ايضا (١ تيموثاوس ٢ : ١ ــ ٥) .

وهكذا ، ان نحن خصصنا الكثير من الوقت ، والعناية الكبرى ، لاكتشاف معاني الآيات ، لامكننا وجدان الكثير من الايضاحات غير هذه للعلم السري الكامن في كلام الله ، هذا العلم الذي يفوتنا ان نحن

لم نقراه الا نادرا او متسرعين .

اتلاحظ ، بعد ما اريتك لتوي ، بأية حكمة واية طريقة يبين العهد الجديد تعليم سيدنا يسوع المسيح حول المسألة التي درسناها للتو ؟ وبأي تسلسل رائع يعرض الانجيليون الاربعة لهذه المسألة ؟ ان الامر هكذا : في انجيل القديس متى نجد التهيئة ، المدخل الى الصلاة ، وقوتها الحقيقية ، وشروطها وما اليه .وبعد هذا ، نجد في انجيل القديس مرقس امثلة ، وفي انجيل لوقا امثالا ، وفي انجيل يوحنا الممارسة الخفية للصلاة الداخلية ، بالرغم من ان ثمة كلاما عن هذه الممارسة في الاناجيل الاربعة ، مع تفاصيل تكثر او تقل . وتصف لنا اعمال الرسل ممارسة الصلاة ونتائجها ، واما في الرسائل وحتى في الرؤيا ، فنجد مظاهر عديدة لممارسة الصلاة . ولهذا السبب كانت الاناجيل وحدها دليلا كافيا على دروب الخلاص كلها .

كنت ، طوال الوقت الذي شرح لي فيه هذا وعلمني ، اؤشر في الاناجيل ، في كتابي المقدس كل المواضيع التي عينها لي . وبدا لي ما قال خليقا بالملاحظة ، وغزير الفائدة العلمية ، وشكرته كثيرا . ثم تابعنا طريقنا بصمت خلال زهاء الخمسة ايام . وبدا رفيق سفري تؤلمه رجلاه الما شديدا ، وكان ذلك ــ لا شك ــ لعدم اعتياده السير المتواصل . ولذا استأجر عربة وجوادين واركبني معه . وهكذا وصلنا الى الجوار ، حيث بقينا اياما ثلاثة ، لكيما نستطيع ، بعد ان نستريح ، ان ننطلق فورا الى « آنزرسكي » ، وكان يرغب بحرارة ان يذهب اليها .

الستارتس : ان صديقك رائع . وان نحن نظرنا الى تقواه ، راينا غزارة علمه . حبذا لو تيسر لي لقاؤه .

السائح : نحن معا . سأصطحبه اليك غدا . لقد تأخرت . وداعا .

القصة السادسة

السائح : كما وعدتك امس ، طلبت من رفيق سفـــري الموقر الذي تفضل علي باحاديثه الروحية ، والذي كنت تريد رؤيته ، ان يصحبني الى هنا .

الستارتس : سيكـــون من دواعي سروري ، وسرور زائري الاكارم ايضا ، على ما آمله ، ان نراكما انتمـــا الاثنين ، وان ننعم بسماع رواية اختباراتكما . معي ههنا راهب محترم ، هـــذا هو ، وكاهن كبير الورع ، هذا هو . وحيث يجتمع اثنان او ثلاثة باســـم يسوع المسيح ، فقد وعد انه سيكون هو فيما بينهـــم . ونحن الآن خمسة باسمه ، فلا شك ، لذا ، انه سيتكرم بمباركتنا بغزارة اكبر . ان القصة التي رواها لي رفيـــق سفـــرك امس مساء ، يا اخي العزيز ، بشأن تعلقك الحار بالانجيل المقدس تلفت النظر ، وفيهـــا الكثير من العبر . ومن المثير جدا للاهتمام ان نعرف كيف كشف لك عن هذا السر المبارك .

الاستاذ : ان الله المنعم محبـــة ، الذي يرغب لكل الناس ان يخلصوا ويتوصلوا الى معرفة الحق قد كشف لي ذلك ، بصلاحه ، بصورة رائعة ومن غير اي تدخل انساني . كنت استاذا لمدة خمس سنين ، وكانت حياتي كئيبة مشتة ، وقد سحرتني فلسفة العالم

الباطلة ، لا المسيح . ولربما كنت هلكت تماما لو لم يساعدني ، الى حد ، كوني كنت اعيش مع امي الشديدة التقوى واختي ، وهي فتاة ناضجة الذهن .

في ذات يوم ، وقد كنت اتمشى في منتزه عام ، تعرفت الى شاب ممتاز قال لي انه فرنسي ، وطالب ، وقد وصل منذ قليل من باريس ، وانه يبحث عن عمل كمرب . فتنني ما كان عليه من ثقافة عالية . ولما كان غريبا في هذا البلد ، دعوته الى بيتي ، وصرنا صديقين . وطوال شهرين ، كان يأتي لزيارتي مرارا . وكنا نقوم معا بنزهة ، احيانا ، وكنا نتلهى ، ونذهب معا الى معاشرة اناس ، اترك لكم تصور مدى انعدام اخلاقهم . وفي ذات يوم ، اتى يراني ويدعوني دعوة من هذا القبيل . ولكيما يقنعني بصورة اسرع، جعل يمتدح المرح الخاص والمتعة المنتظرة في صحبة القوم الذين يدعوني اليهم . وبعد ان تحدث في هذا فترة قصيرة ، طلب مني فجأة ان اخرج معه من مكتبي ، حيث كنا ، لنجلس في غرفة الاستقبال .

بدا لي الامر في غاية الغرابة ، وقلت له انه لم يسبق لي قط ان لاحظت لديه اي مانع من البقاء في مكتبي ، وسألته ماذا جد الآن . واضفت ان غرفة الاستقبال بجانب الغرفة التي تشغلها امي واختي، وانه من غير اللائق ان نتابع فيها حديثا من هذا النوع . فأصر ، متذرعا بذرائع مختلفة ، واعترف ــ آخر الامر ــ بهذا :

« بين كتبك ، على الرفوف هنا ، نسخة من الاناجيل . وانا اكن لهذا الكتاب من الاحترام ما يجعلني اشعر بشيء من الانزعاج ان تحدثت في قضايانا الطائشة في حضرته . ارفعه من هنا حتى نستطيع الكلام بحرية » .

فتبسمت ، لخفتي ، لدى سماعي هذه الكلمات . واخرجت الانجيل من الرف قائلا : « كان ينبغي ان تقول لي هذا من زمان » . وناولته الكتاب قائلا : « اليك هو ، خذه بنفسك ، وضعه حيثما تريد ، في

الغرفة » . وما ان لمسته بالانجيل حتى اخذته الرعـــدة ، وللحـــال اختفى .

فاذهلني هذا ذهـــولا شديـــدا ، بحيث سقطت ، من الرعب ، فاقد الوعي . عند سماع صوت سقوطي ، تراكض من في البيت ، واستحال عليهم انعاشي طوال نصف ساعة . وعندما عدت اخيرا الى الوعي ، كنت مذعورا مرتعدا ، وكنت اشعر باضطراب كبير ، لا تحس يداي ورجلاي بشيء ، كما كنت عاجـــزا عن تحريكهـــا . واستدعي الطبيب فشخص شللا حصل عـــلى اثر صدمة او خوف شديد .

وظللت طريح الفراش عاما كامـــلا بعد هذه الحادثة ، ورغم العناية الفائقة التي قدمها اطباء كثيرون لم يحصل لي ادنى تحسن ، بحيث اضطررت ، بسبب مرضي ، الى التخلي عن وظيفتي . وطعنت امي في السن وماتت في تلك الحقبة . وكانت اختي تستعد لدخـــول الدير . فكان من شأن هذا كله ان يزيد في خطورة مرضي . ولم يكن لي في تلك الفترة الا تعزية واحدة هي قراءة الانجيل الذي لم يفارق يدي لحظة منذ بداية مرضي . كان وكأنه نوع من الدليل على الحدث الهائل الذي وقع لي . وفي ذات يوم اتى يزورني ناسك مجهول ، كان يقوم بجمع التبرعات لديره . وخاطبني بلهجة قوية الاقناع وقال انه يجب عدم الاتكال على الادوية وحدها ، وهي لا يمكنها التخفيف عني من غير عون الله ، وانه يجب علي ان اصلـــي الى الله ، وان اصلي بجد من اجل هذا الذي حصل بعينه ، اذ ان الصلاة هي اقدر الوسائل على شفاء العلل كلها ، جسدية كانت ام روحية .

اجبته في حيرتي : كيف تريدني ان اصلي في هذه الحال ، وانا لا اقوى على القيام بأدنى حركة للعبادة ، بل لا استطيع حتى رفـــع يدي لرسم اشارة الصليب ؟

فكان رده : صل مهمـــا كلفك الامر ، صل بأية طريقة . ولم يذهب ابعد من هذا في تفسيره ، ولا هو شرح لي حقا كيف اصلي .

وبعد ان تركني زائري ، بدأت افكر بالصلاة بصورة تكاد تكون لا ارادية ، وفي سلطانها وفي آثارها متذكرا التعليم الديني الذي تلقنته منذ امد طويل ، اذ كنت لم ازل طالبا . فشغلني هذا انشغالا رقيقا ، وجدد معلوماتي حول الموضوعات الدينية ، وبث في القلب دفئا .

وفي الوقت ذاته بدأت احس بشيء من التحسن في صحتي . ولما كان الانجيل معي دائما ، بسبب عظم ايماني فيه على اثر الاعجوبة ، واذ تذكرت ايضا ان كامل الشرح عن الصلاة الذي سمعته في الدروس يقوم اساسا على نص الاناجيل ، فكرت ان احسن ما افعله سيكون دراسة الصلاة والروحانية المسيحية تبعا لتعليم الانجيل وحسب . واذ كنت اداب لاجتناء المعنى ، كنت انهل منه وكأنه نبع غزير . ووجدت فيه نهجا كاملا للحياة الروحية وللصلاة الداخلية الحقيقية . وعلمت بحرارة المقاطع المتصلة بهذا الموضوع ، وقد حاولت بحمية منذ ذلك الحين تلقن هذا التعليم الالهي ، بكل ما اوتيت من قوة — ولم يكن ذاك بلا عناء — وان اضعه موضع العمل والممارسة .

وفيما كنت منشغلا بهذه الصورة ، تحسنت صحتي شيئا فشيئا ، وانتهى بي الامر الى البرء تماما ، كما يمكنكم ان تروا . وكنت ما ازال اعيش وحيدا . فقررت ، شكرا لله على عطفه الابوي الذي ادين له بعودتي الى العافية وباستنارة ذهني ، ان احذو حذو اختي ، واتبع ميل قلبي ، فأكرس ذاتي لحياة متوحدة ، لكيما اتمكن ان اتلقى من غير مانع ، وان اجعل خاصتي ، كلمات الحياة الابدية هذه التي كان كلمة الله يعطيني .

وهاانذا الآن ، امضي نحو المنسك المنعزل المسمى « آنزرسكي » بالقرب من دير « سولوفتسكي » في البحر الابيض . ولقد سمعت من مصدر ثقة انه مكان مناسب جدا لحياة التأمل . يجب ان اضيف هذا ايضا : ان الانجيل المقدس

يوفر لي اكثر من تعزية في رحلتي هذه ، وينشر نورا غزيرا في عقلي الجاهل ويدفىء قلبي الفاتر . ولكن الواقع هو اني ، رغم كل هذا ، اقر بصراحة بضعفي ، واعترف تلقائيا ان الشروط المطلوبة للقيام بالعمل الروحي ولبلوغ الخلاص : ضرورة التخلي الكلي عن الذات ، والتجرد والتواضع اللذين يعرفهما الانجيل ، تخيفني بعظمتها وبسبب ضعف قلبي . بحيث اني بت الآن ما بين الامل واليأس . ولا ادري ما سيحل بي في المستقبل .

الراهب : مع دليل بهذا الوضوح على رحمة الله ، وبسبب ثقافتك ، سيكون امرا لا يغتفر لا ان تدع مجالا للتخاذل وحسب ، بل حتى ان تسمح بالتسرب الى نفسك لظل من الشك حول رعاية الله وعونه . اتعرف ما يقول الذهبي الفم المستنير بالله بهذا الصدد ؟ انه يعلم ان « ليس لأي كان ان يفقد الشجاعة ، ويترك الانطباع الخاطىء بان تعاليم الانجيل مستحيلة التطبيق او الممارسة . فان الله الذي سبق فقدر الخلاص للانسان ، لم يفرض — وهذا امر بديهي — وصايا على الانسان مخالفتها بسبب عدم التمكن من العمل بها . كلا ! وانما فعل لكيما تكون ، بقداستها وضرورتها في حياة حقيقية ، بركة لنا في هذه الحياة كما في الحياة الابدية » . وواضح جدا ان التطبيق المنتظم والمتشدد لوصايا الله امر بالغ الصعوبة لطبيعتنا الساقطة ، ولهذا لم يكن من السهل بلوغ الخلاص ، لكن كلمة الله ذاته الذي يفرض الوصايا ييسر سبل العمل بها بسهولة ، بل اكثر : يجعلنا نجد فيها الرضى . ولكن بدا لنا هذا الامر ، للوهلة الاولى ، مختفيا وراء حجاب من السرية ، فانما كان ذلك بالطبع لنكون اكثر تواضعا ، ولكي يقودنا بسهولة اكبر الى الاتحاد بالله بارشادنا الى اللجوء المباشر اليه في الصلاة والى طلب عونه الابوي . هنا ، هنا سر الخلاص ، لا في الاستعانة بجهودنا الخاصة .

السائح : كم كنت احب ، انا الضعيف العاجز ، ان يتسنى لي

معرفة هذا السر حتى اتمكن — ولو الى حد ، بالاقـل — ان اقوم (بتشديد الواو وكسرها) حياتي الخاملة لما فيه مجد الله وخلاصي.

الراهب : هذا السر تعرفه ، ايها الاخ العزيز ، من كتابك ، الفيلوكاليا. وهو موجود في هذه الصلاة الدائمة التي درستها دراسة راسخة والتي وضعت فيها الكثير من الحماس ووجدت الغزير من الرضى .

السائح : اني ارتمي على قدميـك ، يـا ابت ، كرمى لله ! اسمعني من شفتيك شيئا فيه الخير لي ، عن هـذا السر المخلص للصلاة المقدسة التي اشتاق الى سماع الحديث عنها اكثر من شوقي الى اي شيء آخر ، والتي احب كثيرا ان اقرا الشروح لها ، حتى اعطي نفسي الخاطئة القوة والعزاء .

الراهب : لا يمكنني ان اروي رغبتك بافكاري الخاصة حـول هذا الموضوع الخطير ، لأن خبرتي الشخصية فيه قليلة محدودة . لكن لدي حواشي واضحة الانشاء كتبها كاتب ديني ، وتتصـل ، تحديدا ، بهذا الموضوع . ان وافق اصحابنا ، سآتي بها للحال ، وباذنكم ، سأقراها على مسمعكم اجمعين .

الكل : تكرم ، بهذا ، ايها الأب ، لا تخف عنا علما جم الفائدة للخلاص .

سر الخلاص المعلن بالصلاة الدائمة

« كيف انال الخلاص ؟ ان هذا السـؤال الورع يطرح بصورة طبيعية في ذهن كل مسيحي يعي جراح الطبيعة البشرية وسقوطها ، كما يعي ما بقي لها من ميلها الاصلي الى الحق والفضيلـة . وكل من كان له ادنى ايمان في الحياة الابدية وفيما سيحصل في الدهـر الآتي ، يفكر بصورة لا ارادية هكـذا : « كيف يمكنني ان انـال

الخلاص ؟ » . وعندما يحاول وجدان جواب لهذه المسألة ، يتوجه الى الحكماء والى العلماء . ثم يقرأ ، بارشادهم ، مؤلفات كتبت في هذا الموضوع ، كتبها مؤلفون دينيون ، ويأخذ بالتطبيق الصارم للقواعد التي سمعها وقرأها . وفي هذه التعاليم كلها ، يجد على الدوام ان ما يفرض من شروط ضرورية للخلاص هي الايمان ، وحروب بطولية ضد ذاته تنتهي بالضرورة ، الى انقلاب حاسم . من شأن كل هذا ان يقوده الى ممارسة أعمال الايمان ، والى العمل باستمرار بوصايا المسيح ، وان يدل ، بهذا ، على ايمان راسخ لا يتزعزع . ويعلمونه ، فوق هذا ، ان شروط الخلاص هـذه كلهـا ينبغي ، بالضرورة ، ان تنفذ بأعمق التواضع ، وان يعمل بها مجموعة معا . اذ ان الفضائل كلها تتعلق ببعضها بعض ، وبالتالي : يجب ان تقوي بعضها بعضا ، وان تتكامل ، فتشجع احداها الاخرى ، كمـا ان اشعة الشمس لا تبرز قوتها ولا توقد شعلة ، ما لم تكن مركزة على نقطة واحدة ، بواسطة العدسة . وان «الذي يكـون امينـا في القليل يقام على الكثير » .

يضاف انه ، لكي يغرس في ذاته اقوى فرض لهذه الفضيلـة المركبة والموحدة ، يستمع الى اسمى المدائح لجمـال الفضيلة ، ويسمع ذم انحلال الرذيلة وبؤسها . كل ذلك منقوش في ذهنه بالوعود الصادقة بالاجر الرائع ، او الوعيد بالعقابات المريعة في الحيـاة الثانية . هذه هي سمة الوعظ في العصر الحديث . فيتهيأ الانسـان الراغب في الخلاص بلهفة ، وقد ارشد بهذه الصورة ، ويتهيأ بسرور الى تطبيق ما تعلمه والى اختبار ما قرأ وسمع . لكنه يـا للأسف ! يتحقق ، منذ الخطوة الاولى ، انه يتعذر عليه العمل بنواياه . وهو يرى مسبقا ، بل يلاحظ بعد الاختبار ، ان طبيعته المعطوبة والمضعفة اقوى من قناعات عقله ، وان حريتـه مستعبـدة ، وان نزعاتـه مفسدة وان قوته الروحية ليست الا ضعفا . فتخطر بباله هـذه الفكرة بصورة طبيعية : اليس هناك وسيلة ما تسمح له بالقيام بما

يفرضه ناموس الله عليه ، ما تطلبه التقوى المسيحية ، وسيلة توسلها كل الذين توصلوا الى الخلاص والقداسة ؟ ونتيجة لذلك ، ولكي يوفق في نفسه بين مقتضيات ضميره وتخاذل قواه عن العمل بها ، يرجع مجددا الى المبشرين بالخلاص ، طارحا هذا السؤال : « كيف اكتسب خلاصي ؟ كيف ابرر عجزي عن تنفيذ هذه الشروط ؟ والذين وعظوا بكل ما تعلمت ، هل هم انفسهم ، على قدرة تسمح لهم بتطبيقه بصرامة ؟ » .

اطلب من الله . تضرع الى الله . صل لكي تحصل على معونته . فيستنتج الباحث : « اوما كان اجدى من البداية وفيما بعد ان ادرس الصلاة التي تعطي وحدها القوة على انجاز كل ما تتطلبه الحياة الروحية ؟ » . وينصرف الى دراسة الصلاة : يقرأ ، ويتأمل ، ويدرس تعاليم الذين كتبوا في هذا الموضوع . الحق انه يجد لديهم الكثير من الافكار النيرة ، والكثير من المعارف العميقة ، كما يجد كلمات ذات قوة عظيمة . يعالج احدهم ، بصورة رائعة ، موضوع ضرورة الصلاة . ويكتب ثان باحثا في ما لها من قدرة واثر مفيد او في اعتبارها واجبا او في كونها تقتضي الحمية والانتباه وحرارة القلب ، وطهارة النفس ، والمصالحة مع الاعداء ، والتواضع والندامة وشروطا غيرها ، ضرورية .

ولكن ما الصلاة بحد ذاتها ؟ كيف يفعل المرء ــ واقعا ــ لكي يصلي ؟ من النادر جدا ان تجد عن هذين السؤالين الرئيسيين الملحين جدا جوابا دقيقا يمكن لكل انسان ان يفهمه . بحيث ان الذي يستعلم بحرارة عن الصلاة ، يترك (بضم الياء) كما امام حجاب السر . وما قرأه ، على وجه العموم ، لا يطلعه الا على وجه واحد للصلاة ، يبقى ــ على كونه تقيا ــ خارجيا . ويتوصل الى هذا الاستنتاج : ان الصلاة هي الذهاب الى الكنيسة ، ورسم اشارة الصليب والانحناء والسجود وقراءة المزامير والقوانين والمدائح .

هذه هي الفكرة التي كثيرا ما يتصورهـــا عن الصلاة الذين لا يعرفون كـابات آباء الكنيسة حول الصلاة الداخليـــة والتأمل . وعلى الزمن ، ينتهي الباحث الى وجدان كتاب اسمه **الفيلوكاليا** ، يعرض فيه خمسة وعشرون من الآباء الغزيري الحكمة ، بصـــورة ميسرة ، لمعرفة الحقيقة العلمية ، ولجوهر صلاة القلب . وفي هذا بداية لنزع الحجاب الذي كان يخفي سر الخلاص والصلاة . ويرى ان الصلاة حقا تعني توجيه الفكر والانتباه بدأب الى الله ، والسير في حضرته ، وان نستثير في ذواتنا محبته بواسطة التفكير فيه ، وان نشرك اسم الله في تنفسنا وفي خفقات القلب . يرشد الانسان ، في ذلك كله ، الترداد بالشفتين لاسم يسوع المسيح الكلي القداسة ، او تلاوة صلاة يسوع في كل حين وفي كل مكان وخلال اي عمل ، من غير توقف . ان هذه الحقائق المشرقة ، بانارتها ذهن الباحث ، وبشقها طريق دراسة الصلاة وتطبيقها ، تساعده على ان يتابـــع مباشرة تطبيق هذه التعاليم الحكيمة عملا . الا انه ، عندما يقـــوم بمحاولاته الاولى ، يصطدم ايضا بصعاب جمة حتى يريه معلم ذو خبرة (في الكتاب ذاته) الحقيقة كلها . اي ان الصلاة الدائمة وحدها هي المجدية في السير بالصلاة الداخلية نحو الكمال ، ولخلاص النفس على حد سواء . ان الاساس الذي يقوم عليه مجمل طريقة العمل الخلاصي انما هو تواتر الصلاة . كما يقول سمعـــان اللاهوتـــي الجديد : « ان الذي يصلي بلا انقطاع يجمع كل خير في هذا العمل وحده » . ولكيما يبين هذه الحقيقة في ملئها ، نراه يوسعها هكذا :

« لا بد ، قبل كل شيء ، لخلاص النفس، من الايمان الحقيقي. يقول الكتاب المقدس : « وبغير ايمان لا يستطيع احـــد ان يرضي الله » (عبر ١١ : ٦) . ومن كان بدون ايمان سيدان . ولكنا نجد في الكتاب المقدس ذاته ان ليس في استطاعة الانســـان من تلقـــاء ذاته ان يجعل الايمان يولد فيه ، حتى ولا بحجم حبة الخردل . وان الايمان لا يأتي منا ، ما دام هبة من الله . وان الايمـــان موهبـــة

روحية ، يهبها الروح القدس . وما دام الامر هكذا ، فماذا يجب ان نفعل ؟ كيف نوفق بين حاجة الانسان الى الايمان واستحالة توليده بشريا ؟ ان السبيل الى ذلك مبين في الكتاب المقدس ذاته : « اطلبوا تعطوا » . لم يكن باستطاعة الرسل ان يصلوا الى كمال الايمان من ذواتهم ، لكنهم توسلوا يسوع المسيح قائلين : « يا سيد ، قو ايماننا » . بهذه الصورة يحصل المرء على الايمان . يبين هذا المثل اننا نبلغ الايمان بالصلاة . ولخلاص النفس ، بالاضافة الى الايمان الحقيقي ، يقتضي ايضا الاعمال الصالحة ، اذ ان « الايمان بلا اعمال ميت ». سيدان الانسان على اعماله لا على ايمانه وحده . « ان اردت ان تدخل ملكوت السموات فاحفظ الوصايا : لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، اكرم اباك وامك واحبب قريبك كنفسك » . والمهم ان نحفظ هذه الوصايا كلها معا « لأن من حفظ الناموس كله وعثر في امر واحد فقد صار مجرما في الكل » (يعقوب ٢ : ١٠) . هذا ما يعلمه يعقوب الرسول . ويقول بولس الرسول ، واصفا الضعف البشري : « اذ لا يبرر باعمال الناموس احد من ذوي الجسد امامه . . .

لأنا نعلم ان الناموس روحي ، لكني انا جسدي مبيع تحت الخطيئة . . .

لأن الارادة حاضرة لي واما فعل الخير فلا اجده . . .

وما لا اريده من الشر اياه اعمل . . .

فأنا اذن بالروح عبد لناموس الله ، وبالجسد عبد لناموس الخطيئة » (رومية ٣ : ٢٠ و ٧ : ١٤ ، ١٨ ، ١٩ و ٢٥) .

كيف نقوم بالاعمال المفروضة في ناموس الله ، والانسان بلا قوة ولا قدرة له على حفظ الوصايا ؟ لا امكانية له على هذا الى ان يطلبه ، الى ان يصلي لكي يناله : « ليس لكم شيء لأنكم لا تسألون » (يعقوب ٤ : ٢) . هذا هو التفسير الذي يعطيه الرسول . ويسوع المسيح نفسه يقول : « بدوني لا تستطيعون ان تفعلوا شيئا » . اما

فيما يتصل بالعمل معه ، فهذا تعليمه : « اثبتوا في وانا فيكم ... الذي يثبت في وانا فيه هذا يأتي بثمر كثير » . ولكن ان نكون معه يعني ان نشعر دائما بحضوره ، ان نذكر اسمه بصورة مستديمة . « ان سألتم شيئا باسمي فاني افعله » . وهكذا ، فان امكانية فعل الخير تيسرها الصلاة ذاتها . ونحن نجد مثالا لهذا لدى بولس الرسول نفسه : صلى ثلاثا ليتغلب على التجربة ، وقد حنى ركبته امام الله الآب لكيما يعطيه القوة في انسانه الداخلي وامر (بضم الهمزة) عندئذ ان يصلي ، قبل كل شيء ، وان يصلي كل حين وفي كل مناسبة » .

وحاصل ما قيل ان خلاص الانسان كله رهن بالصلاة ولذا كانت ذات الاهمية الاولى ، ولا بد منها ، اذ ان الايمان ينتعش بها ويحيا ، وبها تنجز الاعمال الصالحة . وبكلام موجز ، مع الصلاة يسير كل شيء بنجاح . وبغير الصلاة لا يمكن القيام باي من اعمال البر المسيحية . وهكذا فان ضرورة بذل ذواتنا بلا انقطاع ودوما ، تنبع من الصلاة ، بصورة حصرية . اما باقي الفضائل ، فان لكل منها وقتها الخاص . واما بالنسبة الى الصلاة ، فيطلب منا عمل لا ينقطع : « صلوا بلا انقطاع » . من الحق ومن المناسب ان نصلي دائما ، وان نصلي في كل مكان . وللصلاة الحقيقية شروطها . ينبغي ان ترفع (بضم التاء) بذهن وقلب طاهرين ، وبغيرة متقدة ، وبانتباه شديد ، بخوف واحترام وباعمق تواضع ممكن . ولكن ، اي انسان ذي ضمير لا يقر انه بعيد عن ان يتقيد بهذه الشروط ، وانه يرفع صلاته لا بنازع منه ، وتلذذ بالصلاة وحب لها ، بل — على الارجح — سدا لحاجة ، ورغما عنه ؟ يقول الكتاب المقدس بهذا الصدد ايضا انه ليس بمقدرة الانسان ان يحافظ على فكره غير متزعزع ، وان ينقيه من الافكار الشريرة ، اذ ان «افكار الانسان شريرة منذ صباه» ، وان الله وحده هو الذي يعطينا قلبا غير قلبنا وفكرا جديدا « حيث ان الارادة والعمل

هما من الله » . ويقول بولس الرسول نفسه : « ان كنت اصلي بلساني فنفسي (اي صوتي) يصلي اما عقلي فهو بلا ثمر » (١ كورنثوس ١٤ : ١٤) . ويؤكد ايضا : « لا نعلم ماذا نصلي » (رومية ٨ : ٢٦) . ينتج من هذا اننا غير قادرين ، من تلقاء ذاتنا على رفع الصلاة الحقيقية . نحن لا نستطيع ، في صلواتنا ، ان نبرز الخواص الاساسية للصلاة الحقيقية .

ان كان هذا مدى عجز كل كائن بشري ، فماذا يبقى ممكنا لارادة الانسان وقوته من اجل خلاص النفس ؟ لا يستطيع الانسان الحصول على الايمان بلا صلاة ، وهذا يصدق ايضا على الاعمال الصالحة . لكن الصلاة الحقيقية ذاتها ليست في يده . فماذا يبقى له ان يعمل ؟ ما المدى المتبقي لممارسة حريته وقوته لكي يتمكن من الا يهلك بل يخلص ؟

لكل عمل ميزته وهذه الميزة قد احتفظ الله بحرية منحها . ولكيما يتجلى ارتباط الانسان بالله ، بمشيئة الله ، بصورة اوضح ، ولكي يستطيع ان يغمسه في التواضع بصورة اعمق ، لم يخص الله ارادة الانسان وقوته الا « بكمية » الصلاة . اوصى ان نصلي بلا انقطاع ، دائما ، في كل حين وفي كل مكان . هنا يتم الكشف عن الطريقة السرية للصلاة الحقيقية ، وفي آن معا ، للايمان ولانجاز وصايا الله . فوض اذن للانسان امر « كمية الصلاة » . يعود اليه شأن تواتر الصلاة وهو تابع لارادته . هذا ما يعلمه (بتشديد اللام) آباء الكنيسة .

يقول القديس مكاريوس الكبير ان الصلاة ، في الحق ، موهبة النعمة . ويقول القديس ازنيك ان الصلاة المتواترة تصبح عادة ، ثم طبيعة ثانية ، وانه من غير ذكر كثير لاسم يسوع المسيح يستحيل تطهير القلب . وينصح كاليستوس واغناطيوس بالذكر المتواتر المستمر لاسم يسوع ، قبل كل تقشف وعمل ، اذ ان التواتر الكثير يسير بالصلاة الناقصة الى الكمال . ويؤكد الطوباوي

ديادوكس انه اذا ذكر انسان اسم الله بالكثرة التي يستطيع ، فلن يسقط في الخطيئة .

يا لهـا من خبـرة ، ويا للحكمة الكامنـة هنـا ، وما اقرب هذه التعاليم العملية للآباء من القلب ! فبخبرة الآبـاء وبساطتهم يلقون ضوءا ساطعا على وسائل السير بالنفس الى الكمال . ومـا اشد التباين بين هذه التعاليم ، والتعاليم الاخلاقية للعقل النظري ! هكذا يتكلم العقل : اصنعوا هذه الاعمال الصالحة وتلك ، تسلحوا بالشجاعة ، استعملوا قوة ارادتكم ، اقنعوا انفسكـم باعتبـار الثمار الطيبة للفضيلة مثلا : طهـروا فكركم وقلبكـم من اوهـام العالم ، استبدلوها بتأملات مفيدة . افعلـوا الخير ، ستكونـون محترمين وتجدون السلام . عيشوا وفقا للعقل والضمير . ولكن ، يا للأسف ! فان هذا التفكير ، بالرغم من كل ما فيه من قوة ، لن يصيب هدفه من غير الصلاة الدائمة ، من غير طلب عون الله .

فلننتقل الآن الى بعض التعاليم الاخرى للآباء ، وسنرى ماذا تقول في تطهير النفس ، مثـلا . كتب القديس يوحنـا السلمي : « عندما يظلم العقل بافكـار شريرة تغلبوا على العـدو بتكـرار اسم يسوع . لن تجدوا في السماء او على الارض سلاحا اقـوى واجدى من هذا » . ويعلمنا القديس غريغوريـوس السينائـي : « اعلموا هذا ، انه لا يستطيع احد ان يسيطر على فكره بنفسه ، ولذلك ، فمتى برزت افكار شريرة ، اذكروا اسم يسوع مرارا ، وعلى فترات متواترة ، وستسكن هذه الافكار » . يا لها من طريقة بسيطة سهلة ! وعلى هذا ، فان الاختبار يثبت جدواها . وما اشد التباين بينها وبين ارشادات العقل النظري ، الذي يسعى ، بغرور ، للوصول الى الطهارة بمجهوداته الخاصة .

واذ نلحظ هذه التعاليم القائمة اساسا على خبرة آباء الكنيسة، نصل الى استنتاج راسخ هو :

ان الطريقة الرئيسية، الوحيدة والبسيطة جدا ، لبلوغ الخلاص

والكمال الروحي هي في دوام الصلاة ، وعدم انقطاعها ، مهما كانت ضعيفة . ايتها النفس المسيحية ، ان لم تجدي في ذاتك المقدرة على عبادة الله بالروح والحق ، ان لم يكن قلبك يشعر بدفء الصلاة الداخلية وعذوبتها ، فأت بما تستطيعين الى ذبيحة الصلاة ، بما يرتهن بارادتك ، بما هو في حدود مقدرتك . فلتألف ، قبل كل شيء ، شفتاك ، وهما تلك الاداة الوضيعة ، لفظ الصلاة المستمر المستديم ، ولتذكرا اسم يسوع ذكرا كثيرا بلا انقطاع . وما هذا بالعمل الجبار ، وهو في حدود قدرة كل انسان . وهذا ايضا ما تأمر به وصية الرسول القديس هذه : « فلنقرب به اذن ذبيحة الحمد لله كل حين وهي ثمر الشفاه المعترفة لاسمه » (عبر ١٣ : ١٥) .

من المؤكد ان دوام الصلاة يشكل عادة ويصير طبيعة ثانية . وهو يأتي بالفكر والقلب ، بين الحين والحين ، الى حال مناسبة . فلنفرض ان انسانا يطبق على الدوام وصية الله هذه وحدها عن الصلاة الدائمة . انه يكون بهذا قد اتم الوصايا كلها . فالواقع انه اذا رفع الصلاة بلا انقطاع في كل زمان وفي كل الظروف ، ذاكرا بالسر اسم يسوع المسيح الاقدس (وبالرغم من انه يفعل هذا اول الامر دون حماس روحي ولا غيرة ، وحتى بجهد النفس) فلن يكون له من الوقت متسع للافكار الباطلة ، لادانة قريبه او لتبذير وقته في متعة الحواس . كل فكرة شريرة ستجد فيه عقبة لانتشارها . وكل عمل آثم يجرب به ، لن يمكنه من التمام ، كما لو كان ذهنه خاليا . والافراط في الكلام ، والكلام البطال ينبذان ، وكل غلطة تمحى فورا من النفس بالقدرة الرحيمة للذكر المستديم للاسم الالهي . وغالبا ما ستحول الممارسة المستديمة للصلاة دون ارتكاب الانسان مأثمة ، وتعيده الى مصيره الاصلي : الاتحاد بالله .

أرأيتم الآن اهمية « كمية » الصلاة وضرورتها ؟ ان استمرار الصلاة هو الطريقة الوحيدة للوصول الى الصلاة الطاهرة الصحيحة . انها التهيئة الافضل والاجدى للصلاة ، واضمن وسيلة لبلوغ غاية الصلاة والخلاص .

ولاقناعكم ، بصورة حاسمة ، بضرورة الصلاة المستديمة وخصبها ، لاحظوا :

ـ ان كل رغبة وكل فكرة في الصلاة هي من عمل الروح القدس ، وهي صوت ملاككم الحارس .

ـ ان اسم يسوع المسيح المذكور في الصلاة يحوي قدرة خلاصية قائمة وفاعلة بذاتها ، ولذا : لا تضطربوا لعدم الكمال او للجفاف في صلاتكم ، وانتظروا بصبر ثمر الذكر المستديم للاسم الالهي . لا تصغوا الى تلميحات لاناس لا خبرة لهم ، وقد اعميت قلوبهم ، حين يقولون ان الذكر الفاتر تكرار عديم الجدوى ، بل ممل . كلا : ان قوة الاسم الالهي وذكره المستديم سيأتي ثمرهما في الوقت المناسب .

تحدث كاتب ديني بصورة رائعة في هذا الموضوع ، قائلا : « اني اعلم ان بالنسبة لكثيرين من مدعي الروحانية او الحكمة الفلسفية ، الساعين دائما الى العظمة الزائفة والى الممارسة المغرية للعقل وللكبر ، ان مجرد التلاوة الصوتية ، وان مستديمة ، لصلاة يبدو قليل المعنى ، او كانشغال ادنى ، بل حتى مجرد مزحة . لكن هؤلاء المساكين يخطئون وينسون وصية يسوع المسيح القائلة : « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » (متى ١٨ : ٣) . انهم ينظمون لذواتهم شبه علم في الصلاة ، يقوم على اسس واهية من العقل الطبيعي . انحن بحاجة الى الكثير من البحث والعلم والتفكير لنقول ، بقلب متلهف : « يا يسوع ابن الله ، ارحمني » ؟ افلا يمتدح معلمنا الالهي نفسه هذه الصلاة المستديمة ؟ الم يجب اجوبة رائعة ، اولم تنجز اعمال رائعة بهذه الصلاة القصيرة والمستديمة ؟

ايتها النفس المسيحية ، شددي العزم ولا تكفي عن تلاوة صلاتك اللامنقطعة ، حتى ولو اتى نداؤك من قلب ما زال في حرب ضد نفسه ، من قلب نصفه ملآن بحب العالم . ما هم ! ثابري،

لا تدعي مجالا لان تصمتي ولا تضطربي . ان صلاتك ستتطهر من ذاتها ، بفعل التكرار . ولتحفظ ذاكرتك هذا ابدا : « ان الذي فيكم اعظم من الذي في العالم » (١ يوحنا ٤ : ٤) . ويقول الرسول ايضا : « ان الله اعظم من قلبنا ويعلم كل شيء » .

بعد هذه التأكيدات المقنعة بأن الصلاة القديرة على مساعدة الضعف البشري ، لفي متناول الانسان ، وهي رهن ارادته الخاصة ، صمم ، حاول ، ولو ليوم واحد ، في اول الامر . راقب ذاتك واجعل تواتر الصلاة كبيرا ، بحيث يستغرق ذكر اسم يسوع في الاربع والعشرين ساعة وقتا اطول بكثير مما تستغرقه مشاغل اخرى . وسيريك انتصار الصلاة على المشاغل الدنيوية ، في الوقت المناسب ، ان نهارك لم يذهب سدى بل انقذ للخلاص . وان الصلاة الدائمة ، بمقياس الدينونة الالهية ، تكافىء وزنا ضعفك واعمالك الشريرة وتمحو خطايا هذا اليوم في ضميرك . وانها تضع قدمك على سلم الفضيلة وتهبك الرجاء بتقديس ذاتك » .

السائح : من كل قلبي ، اشكرك ، ايها الأب البار ، فبقراءتك هذا النص ، اعطيت نفسي الخاطئة فرحا . كرمى لله ، تفضل بالسماح لي بنسخ ما قرأت . يمكنني هذا بساعة او ساعتين . ان كل ما قرأت في غاية الجمال وباعث على التعزية ، ويبدو مفهوما في غاية الوضوح لعقلي الغبي ، تماما كالفيلوكاليا ، حيث يعالج الآباء الموضوع ذاته . هنا ، مثلا ، في الجزء الرابع من الفيلوكاليا يكتب يوحنا الكرباتي : « ان لم يكن لكم القوة اللازمة للسيطرة على الذات وللقيام باعمال الزهد ، فاعلموا ان الله يرغب خلاصكم بالصلاة » . ولكن ما اروع ، ما افصح هذا في دفترك ، وما اوضحه! اشكر الله اولا ، واشكرك ثانيا ، على انه اعطي لي سماعه .

الاستاذ : لقد استمعت ايضا الى قراءتك بالكثير من الانتباه والمتعة ، يا ابت . وكل الحجج ، اذ تقوم على المنطق الصارم ، هي بالنسبة لي متعة ولذة . ولكن يبدو لي ، في آن معا ، ان هذه الحجج

تربط امكانية الصلاة المستديمة بشروط ملائمة ، وبعزلة ساكنة هادئة . اقر بأن الصلاة الدائمة اللامنقطعة وسيلة قديرة وفريدة للحصول على معونة النعمة الالهية في اعمال التقديس كلها ، وانها في حدود الامكانيات الانسانية . لكنه منهج غير قابل للتطبيق الا للذي ينعم بالعزلة والهدوء . فاذا ما ابتعد عن الاعمال والهموم والملاهي ، امكنه ان يصلي كثيرا ، بل من غير انقطاع . وليس عليه ما يخشاه الا تكاسله او ما في افكاره الخاصة من عقبات . لكنه ان هو ارتبط بواجباته وباعماله دائما ، وان هو وجد بالضرورة في مجلس صاخب ، فلن يتمكن من تحقيق رغبته في الصلاة كثيرا بسبب تشتيت للذهن لا بد منه . وبالتالي ، فان هذه الطريقة للصلاة المتواترة ، ما دامت مرتبطة بظروف ملائمة ، لا يمكن للجميع استعمالها ، ولا تعني كل الناس اذن .

الراهب : لا حاجة بنا الى الوصول الى هذه النتيجة . ان القلب الذي تعلم الصلاة الداخلية يمكنه دوما ان يذكر اسم الله من غير ان يمنعه عنها اي شاغل جسدي او عقلي ، وبرغم كل ضجة (والذين يعرفون هذا يعرفونه بالخبرة ، والذين لا يعرفونه عليهم تعلمه بالتمرين المتدرج) . وببساطة اكبر ، يمكننا القول بتألكيد ان ايا من المشاغل الخارجية لا يمكنه قطع الصلاة في من يرغب الصلاة ، اذ ان الفكر الداخلي في الانسان لا يرتبط بالظروف الخارجية ويبقى حرا حرية تامة ، في ذاته . يمكن ، في كل حين ، ان ننبهه وان نوجهه نحو الصلاة . ويمكن حتى للسان ان يقوم بالصلاة سرا ، من غير توليد اي صوت ، بحضور اشخاص كثيرين واثناء اي من انواع المشاغل .

ومن جهة ثانية ، ليست اعمالنا ، بالتأكيد على اهمية كبرى ، واحاديثنا على درجة من الفائدة يستحيل معها ان نجد وسيلة لذكر اسم يسوع ، في فترات ، حتى ولو لم يكن الذهن قد تمرس بعد بالصلاة المستديمة . وبالرغم من ان العزلة والهرب من

الحياة الطائشة تشكلان ظرفا مناسبا للصلاة الواعية والمستديمة ، فيجب ان نخجل من ندرة صلاتنا ، لأن « الكمية » والتواتر في متناول الجميع ، مهما كان المرء ضعيفا ومنشغلا . نجد امثلة مقنعة عن الصلاة لدى اناس تكاثرت عليهم الالتزامات والواجبات الشاغلة وهموم العمل. بيد انهم لم يكتفوا بالمثابرة على ذكر اسم يسوع الالهي باستمرار بل قد توصلوا بهذه الطريقة الى صلاة القلب الداخلية واللامنقطعة .

هكذا كان امر البطريرك فوتيوس (١) ، الذي ترقى من مرتبة عضو في مجلس الشيوخ الى سدة البطريركية ، والذي كان ، اثناء ادارته لبطريركية القسطنطينية الشاسعة ، يثابر باستمرار على ذكر اسم الله ، وتوصل الى صلاة القلب اللامنقطعة . وشأن كاليستوس الذي تعلم ، في جبل آثوس ، الصلاة المستديمة في حين كان يتابع عمله كطباخ . وكذلك لعازر ، البسيط القلب ، الذي كان مكلفا بعمل مستمر في الدير ، فكان يردد بلا انقطاع ، في زحمة اشغاله الصاخبة ، صلاة يسوع فيبقى في سلام . وكثيرون غيرهم مارسوا بصورة مشابهة ذكر اسم الله المستديم .

لو كان من المستحيل فعلا ان نصلي في زحمة اعمال شاغلة او في حضرة الآخرين فمن البديهي انه ما كنا تلقينا الوصية بذلك . يتكلم القديس يوحنا الذهبي الفم هكذا في تعاليمه عن الصلاة : ينبغي الا يجيب احد انه يستحيل على الانسان الذي تشغله هموم العالم والذي لا يستطيع الذهاب الى الكنيسة ان يصلي دائما . ففي كل

---

(١) القديس فوتيوس الكبير (توفي عام ٨٩١) بطريرك القسطنطينية ومن المع رجال الدين في عصره . كان ذا ثقافة واسعة جدا وقد دافع بشدة عن عقيدة انبثاق الروح القدس من الاب وهاجم زيادة كلمات « والابن » (Filioque) التي ظهرت في عهده في الغرب .

مكان ، حيثما كنتم ، يمكنكم ان ترفعوا بالفكر مذبحا لله . وهكذا فمن المناسب الصلاة في اعمالكم ، اثناء السفر ، واقفين وراء مائدة البيع او جالسين الى عمل يدوي . من الممكن الصلاة في كل مكان ، في اي موضع . والحق ان الانسان ان وجه انتباهه بهمة الى ذاته ، لقي في كل مكان ظروفا ملائمة للصلاة . هذا ان كان مقتنعا ان الصلاة يجب ان تكون شاغله الاساسي ، وتحل قبل اي واجب آخر . وبديهي انه ، في هذه الحال ، سيرتب اعماله بتصميم اكبر ، وفي الاحاديث الضرورية مع الآخرين يلزم جانب الايجاز ، ويميل الى انصمت ولا يحب الكلام البطال، ولن يتعلق بجنون بالاشياء المضجرة. وبهذه الوسائل جميعا سيجد دروب الصلاة والسلام . في حياة منظمة بهذه الصورة ، ستكون هذه الاعمال كلها ، بقوة ذكر اسم الله ، موسومة بسمة النجاح ، وسيتدرب آخر الامر على الذكر المتواصل لاسم يسوع . وسيعرف بالخبرة ان تواتر الصلاة ، هذه الوسيلة الفريدة للخلاص ، هو في متناول الارادة البشرية . وانه من الممكن ان نصلي في كل حين ، في كل الاحوال وفي كل الامكنة . وسيتوصل بسهولة الى الارتقاء من الصلاة الصوتية المتواترة الى الصلاة الذهنية ومنها الى صلاة القلب التي تفتح ، فينا ، ملكوت الله .

الاستاذ : اقر انه من الممكن ، بل من السهل ايضا ، اثناء المشاغل الآلية ان نصلي كثيرا ، بل باستمرار ، اذ ان العمل الآلي الذي يقوم به البدن لا يقتضي تأنيا ذهنيا عميقا ، ولا تفكيرا عميقا ، ولذا يمكن للعقل ، اثناء القيام بهذا العمل ، ان يستغرق في الصلاة المستمرة وتتبعه الشفتان . ولكن ان كان علي القيام بعمل ذهني محض : كالقراءة بامعان ، مثلا ، او التأمل في مسألة خطيرة ، او التأليف الادبي ، فكيف يمكنني ان اصلي ، في هذه الحال ، بالذهن والشفتين ؟ ما دامت الصلاة عملا ذهنيا ، في المقام الاول ، فكيف يمكنني في آن واحد ان اعطي ذهنا واحدا بعينه امورا مختلفة لينعلها ؟

الراهب : ليس حل مسألتك بصعب ، ونحن نعتبر ان الذين يصلون باستمرار يقعون في فئة من ثلاث فئات : فئة المبتدئين ، اولا ، وثانيا فئة الذين تقدموا بعض التقدم ، وثالثا فئة الذين تمرسوا كثيرا . وبوسع المبتدئين ان يشعروا ، من حين الى حين ، باندفاع الفكر والقلب نحو الله ، وان يرددوا صلوات قصيرة بالشفتين ، حتى اثناء عمل ذهني . والذين تقدموا وبلغوا شيئا من الاستقرار الذهني يمكنهم التدرب على التأمل او الكتابة في حضرة الله المستمرة. اليك صورة ستوضح الامر لك : افرض ان ملكا قاسيا متطلبا امرك ان تؤلف رسالة في موضوع عسير في حضرته ، على اقدام عرشه . فبالرغم من امكان انشغالك الكلي في عملك ، لن يسمح لك وجود الملك ، ذي السلطان عليك ، والذي حياتك في يديه ، لن يسمح لك بان تنسى ، ولو لحظة واحدة ، انك تفكر ، انك تمعن الفكر ، وانك تكتب ، لا في العزلة ، بل في مكان يقتضيك انتباها واحتراما خاصين. وعيك هذا قرب الملك يبين بوضوح تام امكانية الانصراف الى الصلاة الداخلية المستديمة حتى في اثناء القيام بعمل ذهني . اما الذين تقدموا بفضل اعتياد طويل او بنعمة الله ، فانتقلوا من الصلاة الذهنية الى صلاة القلب ، فهم لا يقطعون صلاتهم اثناء نشاطاتهم الذهنية مهما كانت دائبة ولا حتى اثناء النوم كما قال لنا الكلي الحكمة : « انا نائمة لكن قلبي مستيقظ » (نشيد ٥ : ٢) . والذين بلغوا تلقائية القلب هذه يكتسبون مقدرة كبرى على ذكر الاسم الالهي بحيث ان الصلاة تسهر بذاتها وان الذهن كله ينجرف في تيار صلاة لا تنقطع ، مهما كانت حال الذي يصلي ، ومهما كانت مشاغله في ذلك الحين مجردة وذهنية .

الكاهن : اسمح لي يا ابت ان اقول ما افكر فيه . اعطني الكلام لاقول كلمة او كلمتين . كان في النص الذي قرأته ما يبين بصورة رائعة ان الوسيلة الوحيدة لبلوغ الخلاص والكمال هو تواتر الصلاة ، ايا تكن . لكني لا افهم هذا جيدا ، وهذا ما يلوح لي : اية

فائدة قد يكون لي في ذكر اسم الله باستمرار باللسان وحده ولكن من غير انتباه ومن غير ان افهم ما اقول ؟ لن يكون هذا الا تكرارا لا طائل تحته . والنتيجة الوحيدة هي ان اللسان سيتابع ثرثرته ، وان عمل الذهن سيختل توازنه وقد ازعجه هذا في تفكيره . ان الله لا يطلب كلمات ، بل روحا منتبها وقلبا نقيا . اوليس من الافضل رفع صلاة ، وان كانت قصيرة ، بل نادرة او فقط في اوقات معينة ، ولكن بانتباه وغيرة وحرارة ، ومع الفهم الواجب ؟ والا فبالرغم من تلاوة الصلاة ليلا ونهارا ، من غير طهارة الذهن ، فليس هذا من اعمال العبادة ، ولن يكون المرء قد فعل شيئا في سبيل الخلاص . ولا يتوكأ الانسان عندئذ الا على ثرثرة خارجية لا يجنى منها الا التعب والملل ، بحيث انه — في نهاية المطاف — تفتر الثقة بالصلاة تماما وينبذ الانسان هذه الطريقة العقيمة . ومن جهة ثانية ، يستدل على عدم جدوى صلاة الشفتين وحدهما مما هو مبين لنا في الكتب المقدسة ، كهذا مثلا : « هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلوبهم فبعيدة عني » (متى ١٥ : ٨) ، او « ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات » (متى ٧ : ٢١) ، او « اوثر ان اقول خمس كلمات بعقلي ... على ان اقول عشرة آلاف كلمة بلسان مجهول » (١ كور ١٤ : ١٩) . ان هذا كله يبين عقم الصلاة الخارجية التي يرددها الفم بلا انتباه .

الراهب : يكون في وجهة نظرك بعض الحق لو لم يضف الى وصية الصلاة بالفم ضرورة فعل هذا باستمرار ، ولو لم يكن لذكر اسم يسوع المسيح سلطان خاص يعطي بذاته ، من جراء ممارسته المتواصلة ، ثمرة الانتباه والهمة . ولكن ، ما دامت المسالة المطروحة الآن هي تواتر الصلاة ، مدتها وطابعها اللامنقطع (بالرغم من انها في البداية قد تتلى بعدم انتباه او بصورة جافة) فان الاستنتاجات التي توصلت اليها خطأ تسقط تلقائيا . فلندرس القضية عن كثب اكثر . ينتهي احد الكتاب الروحيين — بعد ان يثبت القيمة الكبرى

والكسب الناتج عن الصلاة المتكررة المتلوة بصيغة لا تتغير — الى القول :

ان كثيرين من مدعي الثقافة يعتبرون هذه التقدمة الكثيرة لصلاة واحدة لا تتغير عديمة الجدوى ، بل باطلة . يحسبونها عملا آليا وشغل جهال عميت قلوبهم . لكنهم يجهلون السر المعلن عنه بهذه الممارسة الآلية في الظاهر . هم لا يعرفون ان حركة الشفتين المتواصلة تصبح ، من حيث لا يشعر المرء ، نداء صادقا للقلب ، وتتسال الى الحياة الداخلية ، وتصبح فرحا ، وتصير وكأنها طبيعية للنفس ، جالبة لها النور والغذاء ، وقائدة اياها الى الاتحاد بالله . ان هؤلاء الناقدين يذكروني باولاد كانوا يعلمون (بتشديد اللام وفتحها) الالفباء والقراءة . لما تعبوا من هذا هتفوا : « اليس من الافضل مئة مرة ان نصطاد السمك ، كوالدنا ، من ان نمضي النهار كله مرددين : ا — ب — ت ، او من ان نخرطش على قطعة ورق بريشة ؟ » . ان فائدة معرفة القراءة والمعارف الناتجة عنها ، والتي لا يمكن ان تكون الا ثمرة هذه الدراسة الشاقة للأحرف تحفظ غيبا ، كانت بالنسبة لهم سرا غامضا . وكذلك شأن الذكر البسيط والمتكرر لاسم الله : انه سر محجوب بالنسبة للناس غير المقتنعين بنتائجه وبقيمته الكبرى . انهم يقيسون اثبات الايمان وفقا لقوة عقلهم الخاص القصير النظر والعادم الخبرة ، وينسون ان للانسان طبيعتين ، تؤثر كل منهما في الثانية تأثيرا مباشرا .

ان الانسان مجبول من جسد وروح . لماذا ، مثلا ، ان انت رغبت في تطهير نفسك ، بدأت بالاهتمام بالجسد ، بان تجعله يصوم ، بحرمانه من الاطعمة والاغذية المقوية ؟ انما تفعل ، بالتأكيد، لكيلا يصير عقبة ، او بكلام افضل ، لكي يمكنه ان يصبح الوسيلة الميسرة لطهارة النفس وللتمييز الروحي ، ولكي يذكرك الاحساس المستمر بجوع الجسد تصميمك على السعي الى الكمال الداخلي

والاشياء التي ترضي الله ، والتي تنسى بسهولة قصوى . ويتعلم المرء بالخبرة انه ، عبر فعل خارجي ، كالصيام الجسدي ، يحقق التنقية الداخلية للذهن ، وسلام القلب ، ويجد اداة لترويض الاهواء ومنحـا يحث المجهود الروحي .

وهكذا ، بوساطة اشياء خارجية ومادية ، يتلقى الانسان العون والفائدة الداخلية والروحية . وعليك ان تتصور ان هذا شأن صلاة الشفتين المتواترة ، التي تجتذب ، مع المداومة ، صلاة القلب الداخلية وتساعد لاتحاد الروح بالله . من الباطل تصور اللسان ، وقد مل التكرار وغياب الفهم هذا القاحل ، مضطرا الى التخلي التام عن مجهود الصلاة هذا الخارجي ، على اعتباره عديم الجدوى . كلا ! ان الاختبار العملي يثبت لنا هنا العكس تماما . والذين مارسوا الصلاة الدائمة يؤكدون لنا ان هذا ما يحصل : الذي صمم على ان يذكر اسم يسوع بلا انقطاع ، او ان يتلو صلاة يسوع باستمرار — والامران سيان — يشعر اول الامر — وهذا بديهي — ببعض الصعوبة ، وعليه محاربة الكسل . ولكنه كلما طالت مدة العمل على هذا بعزم ، ازدادت الفته بمهمته من حيث لا يشعر . حتى انه، في نهاية الامر ، تكتسب الشفتان واللسان مقدرة كبرى على التحرك . انها تعمل بصورة لا راد (بتشديد الدال) لها — حتى من اي مجهود من قبله — وتتلو صلاة يسوع بلا اي صوت . وفي آن معا ، تكون حركة عضلات الحنجرة قد انساقت وتدربت بحيث انه يبدأ — اثناء صلاته — بالاحساس بأن التلفظ بالصلاة اصبح خاصة من خواصها الدائمة والجوهرية . بل انه يشعر ، كلما توقف مرة ، بأن ثمة شيئا في الظاهر ينقصه . وينتج عن هذا عندئذ ان الذهن بدوره يأخذ في الاستسلام ، في ان يصيخ السمع لعمل الشفتين هذا اللارادي ، وبه يتفتح للانتباه ، مما يقود الى ينبوع من المسرات للقلب ، والى الصلاة الحقيقية .

انك تجد هنا اذن المفعول الحقيقي النافع للصلاة الشفوية

الكثيرة او المستمرة . وهو النقيض تماما لما يتصوره اولئك الذين لم يجربوها ولا هم فهموها . اما في ما يتصل بفقرات الكتاب المقدس التي تستشهد بها دعما لاعتراضك ، فلسوف يتضح معناها ان نحن درسناها بامعان . ان عبادة الله المرائية بالفم ، وحب الظهور او انعدام الصدق عند من يهتف « يا رب ، يا رب ! » ، كل هذا استنكره يسوع المسيح ، اذ ان ايمان الفريسيين المتكبرين لم يكن الا في فمهم ، ولم يكن في وجدانهم ما يبرره باية درجة ، وما كانوا يعتنقونه في القلب . وانما قيلت هذه الاشياء لهم ، ولا صلة لها بأمر تلاوة صلاة قد اعطى المسيح بصددها تعاليم مباشرة ، وصريحة ودقيقة . « على الناس ان يصلوا دائما من غير ان يضعفوا » . وكذلك بولس الرسول ، اذ يقول انه يفضل خمس كلمات تقال بالذهن على الكثير من الكلمات بلا تفكير ، او بلغة مجهولة ، فهو يتحدث في التعليم على وجه العموم ، لا في الصلاة بصورة خاصة ، وهو موضوع قال فيه بحزم : « فأريد ان الرجال يصلون في كل مكان ... » (١ تيموثاوس ٢ : ٨) . وهذا التعليم الاساسي : « صلوا بلا انقطاع » (١ تسالونيكي ٥ : ١٧) انما هو منه . اترى الآن كيف ان الصلاة الكثيرة ، خصبة على ما فيها من بساطة ، ومدى ما يقتضيه الفهم الصحيح للكتاب المقدس من اعتبار معين ؟

السائح : ما اصدق هذا يا ابت ! اني رايت كثيرين من الناس ، ببساطة كلية ، من غير اي نوع من الثقافة والعلم ، حتى انهم لا يعرفون ما هو الانتباه ، يرفعون صلاة يسوع بفمهم ومن غير توقف . ولقد رايتهم يبلغون ما لا تستطيع عنده شفتاهم ولسانهم ان تتوقف عن تلاوة الصلاة . وكانت تجلب اليهم الفرح والنور ، ومن اناس مهملين ضعفاء كانت تحولهم الى زهاد مكتملين والى قدوات للفضيلة .

الراهب : ان الصلاة تقود الانسان الى ولادة جديدة ، ان جاز القول . ولها من القدرة ما يستحيل معه على اي شيء ، على اية

درجة من الالم ان تقاومها . لو سمحتم ، يا اخوتي ، قرات لكم ، بمثابة وداع ، مقطعا قصيرا ، ولكنه شيق ، معي هنا .

الجميع : سنستمع اليه بكل سرور .

***

في ما للصلاة من قدرة

الراهب : ان للصلاة سلطانا وقدرة عظيمين بحيث يمكننا القول : « صل ، وافعل ما تشاء » ، فالصلاة سترشدك الى العمل الصالح والبار . ولا نحتاج ، لكي نرضي الله ، الا الى المحبة : « احب ، وافعل ما تشاء » ، هذا ما يقوله المغبوط اوغسطين (١) ، « اذ ان الذي يحب حقا لا يمكنه ان يرغب فعل شيء لا يرضي المحبوب » . وما دامت الصلاة وفق المحبة وفعلها ، يمكننا حقا ان نقول عنها قياسا : « ان الصلاة المستمرة تكفي للخلاص » . « صل وافعل ما تشاء » ، وستبلغ غاية الصلاة . انها ستنيرك .

لكي نفهم هذه القضية بتفصيل اكبر نضرب بعض الامثلة :

١ ــ **« صل ، وفكر ما تشاء »** ، ان الصلاة ستطهر افكارك . ستعطيك الصلاة حسن التمييز . وهي تبطل وتطرد كل الافكار الزائفة . هذا ما يؤكده القديس غريغوريوس السينائي . ان رغبت طرد الافكار وتنقية الذهن ، فهذه نصيحته : « اطردها بالصلاة » . اذ لا يمكن لأي شيء ان يتحكم بالافكار كما تتحكم بها الصلاة . ويقول ايضا القديس يوحنا السلمي في الموضوع ذاته : « اقهر باسم يسوع الاعداء الممسكين بزمام فكرك . لن تجد سلاحا غير هذا » .

٢ ــ **« صل وافعل ما تشاء »** ، سترضي اعمالك الله وستكون مفيدة وخلاصية . ان الصلاة الكثيرة ، بصدد اي موضوع ، لا تبقى

---

(١) توفي عام ٤٣٠ ، اسقف ايبونا في افريقيا الشمالية ، من كبار اباء الكنيسة الغربية .

ابدا من غير ثمر ، اذ ان **فيها مقدرة** النعمة . « ان كل من يدعو باسم الرب يخلص » (اعمال ٢ : ٢١) . مثال : كان رجل قد صلى بلا جدوى ومن غير جمية ، فحصل بهذه الصلاة على حسن التمييز وعلى الرغبة في التوبة . صلت فتاة كانت تحب المتعة ، فدلتها صلاتها هذه على طريق الحياة البتولية ، والطاعة لتعليم المسيح .

٣ ــ **« صل ولا تتحمل كبير عناء لقهر اهوائك بقوتك الخاصة »** . ستهدمها الصلاة فيك ، « لأن الذي فيكم اعظم من الذي في العالم » (١ يوحنا ٤ : ٤) . هذا ما يقوله الكتاب المقدس . ويعلم القديس يوحنا الكرباتي انك اذا كنت وليس لك موهبة ضبط النفس فينبغي لك الا تحزن لهذا ، بل ان تعلم ان الله يطلب منك الجد في الصلاة ، والصلاة ستخلصك . لنا مثال حاسم عن هذا في الستارتس الذي يقول لنا عنه كتاب « حياة الآباء » : انه لما سقط في الخطيئة ، لم يستسلم لليأس بل لجأ الى الصلاة ، وبها عاد الى ما كان عليه من سابق توازن .

٤ ــ **« صل ، ولا تخش شيئا »** . لا تخش عثرات الحظ ولا تخش الكوارث . ستحميك الصلاة وتبعدها عنك . تذكر القديس بطرس الذي كان قليل الايمان فاشرف على الغرق والقديس بولس الذي كان يصلي في سجنه ، والراهب الذي نجته الصلاة من هجمات التجارب ، والفتاة التي انقذت من نوايا عاطلة لجندي ازاءها بسبب الصلاة ، واذكر الحالات المشابهة التي توضح سلطان صلاة اسم يسوع ، وقدرتها وشموليتها .

٥ ــ **« صل بالطريقة التي تريد ، ولكن صل دائما ، ولا تدع شيئا يصرفك عن الصلاة »** . كن مرحا وهادئا . ان الصلاة ستدبر كل امورك وتعلمك . تذكر كلام القديسين يوحنا الذهبي الفم ومرقس الناسك في سلطان الصلاة . يعلن ذاك ان الصلاة ، حتى ان رفعناها نحن الكثيري الخطايا ، تطهرنا على هذه للحال . ويقول هذا : « الصلاة بطريقة ما في مقدرتنا ، لكن الصلاة بطهارة

موهبة النعمة » . قدم اذن لله ما في وسعك تقديمه . ارفع اليه اولا « الكمية » وحدها ، وذلك باستطاعتك ، وسيسكب الله قوته في ضعفك . قد تكون الصلاة جافة ولا منتبهة ، ولكن مستمرة ، وستولد (بتشديد اللام وكسرها) عادة ، وتصبح طبيعة ثانية وتتحول الى صلاة نقية ، نيرة ، الى صلاة رائعة من لهيب نار .

٦ ــ ومن المهم ان تلاحظ ، ختاما ، انه ان طال وقت تيقظك في الصلاة ، فانه لن يبقى لك من الوقت متسع للقيام باعمال شريرة ، ولا حتى بمجرد التفكير فيها .

فهل ترى الآن اية افكار عميقة تجدها ملخصة في هذا التوكيد الحكيم : « احب وافعل ما تشاء » ، « صل وافعل ما تشاء » . يا للسلوى ويا للتعزية للخاطىء المثقل باعباء ضعفه والذي يئن تحت اهوائه الهائجة !

الصلاة . هذا ما اعطيناه كوسيلة عامة كلية للخلاص ، لكي تتعاظم النفس كمالا . هذا كل شيء . ولكنا عندما نلفظ اسم الصلاة ، يضاف اليه شرط : « صلوا بلا انقطاع » . هذه وصية كلمة الله . وبالتالي فان الصلاة يبرز اغزر جدواها وثمارها كلما عندما ترفع بكثرة ، باستمرار . اذ ان تواتر الصلاة رهن ــ بلا شك ــ بارادتنا ، اما الحمية وكمال الصلاة فهما ــ تماما كالطهارة ــ هبتا النعمة .

ولذا فاننا سنصلي قدر ما نستطيع . سنكرس حياتنا كلها للصلاة ، حتى ولو تعرضت ، في البداية ، الى شرود الذهن . ان الممارسة الطويلة ستعلمنا الانتباه . والكمية ستقود ، تأكيدا ، الى النوعية . يقول احد الكتاب الدينيين من ذوي الخبرة : « ان اردتم ان تتعلموا القيام باي عمل بصورة متقنة ، فعليكم الاكثار من فعله قدر المستطاع » .

⁂

الاستاذ : الحق ان الصلاة قضية كبرى ، وتكرارها باندفاع

وهمة هو المفتاح الذي يفتح كنز النعمة . ولكن ما اكثر ما اجد نفسي في صراع مع نفسي بين الحماس والكسل ! وما اشد ما سيسعدني وجدان طريق النصر ، ان اصمم واستيقظ على ممارسة الصلاة بصورة مستمرة !

الراهب : كثير من الكتاب الروحيين يقدمون لنا وسائل عدة مرساة على تفكير منطقي للحث على الجد في الصلاة . مثلا :

١ ــ انهم ينصحونك بان يتشرب ذهنك بافكار ضرورة الصلاة وامتيازها وجدواها ، لخلاص النفس .

٢ ــ فليحصل لك قناعة راسخة بأن الله يفرض علينا الصلاة فرضا وان كلامه يأمر بها في كل موضع .

٣ ــ تذكر دائما انك اذا كنت متكاسلا ومهملا للصلاة ، فلن تستطيع تحقيق اي تقدم في اعمال البر ولا في الحصول على السلام والخلاص ، وانك ، بالتالي ، ستقاسي بالضرورة العذاب على الارض وفي الحياة العتيدة في آن معا .

٤ ــ اثر تصميمك الاقتداء بقدوة القديسين الذين بلغوا جميعا القداسة والخلاص عن طريق الصلاة الدائمة .

بالرغم من ان لهذه الطرائق جميعا قيمتها ، ومن انها وليدة تفكير سليم ، فان النفس المحبة للمتعة والمستسلمة للامبالاة ــ حتى في حال تقبلها هذه الطرائق وتوسلها ــ نادرا ما تتفهم مراميها البعيدة للسبب الآتي : ان هذه العلاجات مرة الطعم لمذاقها المضعف وضعيفة جدا بالنسبة لطبيعتها المنفسدة في صميمها . فهل هنالك مسيحي لا يعرف ان عليه ان يصلي بكثرة وبجد ، وانه واجب يفرضه الله ، واننا متضررون من الكسل في الصلاة ، وان القديسين كلهم قد صلوا بحمية ومثابرة ؟ ولكن على هذا ، فمن النادر جدا ان تكون هذه المعرفة قد آتت ثمارها . وكل من يراقب ذاته يلاحظ بوضوح انه قليلا ونادرا ما يعمل بهذه الوصايا ، وانه بالرغم من تذكرها النادر يعيش كل الوقت حياته ذاتها الفاسدة والخاملة .

ولذا ، فان آباء الكنيسة ، في خبرتهم وحكمتهم الالهية ، ولمعرفتهم ضعف الارادة والميل المفرط الى المتعة في القلب البشري ، يتخذون احتياطات خاصة ، ويخففون لذا المهمة ، ويحلون بالعسل حافة الكاس المرة . وهم يبينون ان انجع الوسائل واسهلها للتخلص من الكسل واللامبالاة ازاء الصلاة يكمن في اكتشاف حلاوة الحب الالهي وغزارته ، ذلك الحب الذي ستسمح الصلاة بتبادله ، بعون الله .

انهم ينصحونك بان تتأمل ما استطعت في حال روحك ، وبأن تقرأ بامعان كتابات الآباء بهذا الصدد . وهم يؤكدون هذا التوكيد المشجع : ان هذه المشاعر الداخلية اللذيذة يمكن بلوغهـا بسرعة وسهولة في الصلاة ، ويبينون كم هي مرغوب فيهـا . ان فـرح القلب دفق الحرارة الداخلية والنور ، والحماس الذي لا يوصف ، وخفة القلب والسلام العميق وجوهر الغبطة ذاتها تنتج كلها عن صلاة القلب . والنفس الضعيفة والفاترة ، اذ تستغرق في افكار من هذا القبيل ، تلتهب وتتقوى ، وحرارتها في الصلاة تشجعها ، فكأنها تغرى بأن تأخذ في ممارسة الصلاة . وكما يقول اسحق السرياني : « ان الفرح جاذب للروح ، هذا الفرح المتولد من ازهرار الرجاء في القلب ، والتأمل في هذا الرجاء هو هناء القلب » . ويقول المؤلف نفسه ايضا : « ان هذا العمل ، من اوله الى آخره يفترض منهجا والامل في نجاحه . وهذا يحدو بالنفس الى ارساء اساس للمهمة المطلوب انجازها. كما يجد التعزية ، في آن معا ، في رؤيا الهدف الذي تجهد لاصابته » . وكذلك القديس ازنيك ، بعد ان يصف كيف يكون الكسل عقبة في سبيل الصلاة ، ويدفع بعض الاوهام حول طريقة اذكاء جذوة الحماس لها ، يقول خاتما بوضوح : « ان نحن لم نكن مستعدين على رغبة صمت القلب لاي سبب فليكن هذا طلبا للذة تشعر بها النفس منها ، وللفرح الذي يأتي به هذا الصمت » .

نرى اذن ان هذا الأب يصور الشعور بالفرح هذا كمشجـع على صلاة دائبة . ويعلم مكاريوس الكبير ، بالطريقة ذاتهـا ان

جهودنا الروحية (الصلاة) يجب ان تبذل بقصد جني ثمرها ــ اي نعيم القلب . وبامكاننا ان نجد امثلة واضحة عن هذه الطريقة في مقاطع عدة من الفيلوكاليا ، تصف بالتفصيل مناعم الصلاة . والذي يصارع الكسل او الجفاف عليه ان يقرأها كلما استطاع ، على ان يعتبر نفسه غير جدير بهذا الفرح ، مؤنبا نفسه دوما على اهماله في الصلاة .

الكاهن : الن يقود تأمل كهذا انسانا غير مجرب الى « التلذذ الروحي » ، تبعا للاسم الذي يطلقه اللاهوتيون على ذلك الميل للروح المتعطشة الى تعزيات مفرطة وحلاوات والتي لا ترضى بانجاز اعمال الايمان كغرض مجرد ، من غير ان تحلم بالمكافأة ؟

الاستاذ : يبدو لي ان اللاهوتيين ، في هذه الحالة ، يحذرون من الافراط في المتعة الروحية او الطمع فيها ، لكنهم لا ينبذون قط الفرح والتعزية . اذ ان الرغبة في المكافأة ان لم تكن الكمال ، فان الله على هذا لم يمنع الانسان من التفكير بالفرح والتعزية ، وهو تعالى يستعمل فكرة الثواب ليحض الناس على اتمام الوصايا وعلى بلوغ الكمال . « اكرم اباك وامك » : انها الوصية ، وترى ان المكافأة تتبع ، وكأنها المنخس الذي يحث على الطاعة : « وتطول ايامك على الارض » . « ان اردت ان تكون كاملا ، فاذهب وبع كل ما تملك وتعال اتبعني » . هذا ما يقتضيه الكمال ، ويأتي بعده مباشرة المكافأة ، كدافع لبلوغ الكمال : « فيكون لك كنز في السموات » . « طوبى لكم اذا ابغضكم الناس ونفوكم وعيروكم ونبذوا اسمكم نبذ شرير من اجل ابن البشر » (لوقا ٦ : ٢٢) ، هذا ما يقتضيه التكامل الروحي : انه يفرض قوة روحية غير عادية ، وصبرا جميلا مثابرا . ولذا كانت المكافأة والتعزية كبيرتين ، قادرتين على توليد قوة الروح هذه واذكائها : « ان اجركم عظيم في السموات » . انا اعتقد اذن ان بعض الرغبة في الملء ، في صلاة القلب ، ضروري ويشكل وسيلة بلوغ الجد والنتيجة في آن معا .

بحيث ان هذا كله ــ لا شك ــ يؤيد التعاليم العملية التي سمعناها لتونا من قدس الأب بهذا الصدد .

الراهب : كتب لاهوتي حقيقي ــ واعني به القديس مكاريوس المصري ــ في هذا الموضوع بأوضح بيان ، قال : « عندما تغرس كرمة تركز فيها افكارك واتعابك بغية جني العنب ، والا فان تعبك كله سيكون سدى . وكذلك امر الصلاة : ان انت لم تطلب الثمر الروحي ــ اي المحبة ، والسلام والفرح الخ... ــ فان تعبك سيكون سدى . ولذا فان علينا اتمام واجباتنا الروحية (الصلاة) على امل جني ثمارها ، وقصد جنيها ، اي التعزية ومسرة القلب » . انظر كيف اجاب بوضوح ، هذا الأب البار ، عن سؤالك حول ضرورة الفرح في الصلاة ! والواقع ، انه يحضرني راي قرأته لكاتب ديني منذ زمن غير طويل . قال على وجه التقريب : « ان كون الصلاة طبيعية في الانسان هو السبب الاول لميله اليها » . ان دراسة هذه الميزة الطبيعية يمكنها ــ في نظري ــ ان تكون وسيلة فعالة جدا للحث على الجهد في الصلاة ، هذه الوسيلة التي يبحث عنها الاستاذ بكل غيرة .

اسمحوا لي بأن الخص بسرعة البضع نقاط التي لفت اليها الانتباه في هذا الدفتر . يقول الكاتب مثلا ان العقل والطبيعة يقودان الانسان الى معرفة الله . والعقل يثبت النظرية القائلة ان لا عمل بلا سبب ، وبارتقائه سلم الاشياء الحسية من الادنى الى الاسمى يصل الى السبب الاول : الله . واما الطبيعة فتبرز في كل الخطوات روائع حكمة وتناغم ونظام ، وتصبح بذا نقطة ارتكاز السلم الموصلة من الاشياء المتناهية الى اللامتناهي . بحيث ان الانسان الطبيعي يتوصل بصورة طبيعية الى معرفة الله . ولهذا السبب لا يوجد ، ولم يوجد قط شعب او قبيلة همجية مجردة عن كل معرفة لله . وبسبب من هذه المعرفة ، يوجه ساكن الجزر مهما كان متوحشا ، ومن غير اي دافع خارجي ، وكأنه يفعل بصورة لا ارادية ، يوجه

انتباهه نحو السموات ، ويركع ، ويتنهد تنهدا لا يفهمه ويخامره شعور واضح ان هناك شيئا ما يجذبه نحو العلاء ، شيئا يدفع به نحو المجهول . انه اساس كل الديانات الطبيعية . ومن الجدير جدا بالملاحظة ، بهذا الصدد ، ان جوهر كل ديانة او روحها لدى كل شعوب الارض ، يقوم في الصلاة السرية ، التي تتجلى بشكل من اشكال عمل الذهن ، وكنوع من الذبيحة ، مع انها تكون مشوهة شيئا ما بسبب الظلمة التي يتخبط فيها عقل الشعوب الوثنية . ولما كان هذا مدهشا كثيرا في نظر العقل ، كان يهمنا ، بالنسبة ذاتها ، اكتشاف السبب الخفي لهذا الشيء الرائع المتجلي بميل طبيعي نحو الصلاة .

ليس من الصعب ان نجد الجواب السيكولوجي عن هذا . ان جذور الاهواء والاعمال البشرية كلها وقوتها ، في الحب الفطري للبقاء . يؤيد هذا غريزة حفظ البقاء المتأصلة في الاعماق والتي تعم الناس جميعا . وغاية كل شهوة بشرية ، وكل تحرك وعمل ارواء حب البقاء هذا ، وسعي الانسان الى الملء . وارواء هذه الحاجة يرافق الانسان الطبيعي طوال حياته . لكن الذهن الانساني لا يكتفي بما يرضي الحواس . وحب البقاء الفطري لا يتوقف ابدا . وهذا الحب يتعاظم باطراد دائم . ويتنامى الجهد الرامي الى بلوغ الملء ، ويملأ المخيلة ويدفع بالشعور نحو غاية ثانية . ومد هذا الشعور وهذا الميل الداخلي ، في تطوره ، هو المذكي الطبيعي للصلاة . انه لزوم حب البقاء ذاته حينما يتضخم الى اللانهاية . وكلما قل نجاح الانسان الطبيعي في بلوغ السعادة ازداد سعيه اليها وتزايد ميله ووجدانه في الصلاة منفذا لهذا الميل . ويلجأ لطلب ما يشتهي الى السبب المجهول لكل ما هو كائن . وهكذا فان حب البقاء هذا الفطري ، وهو من العناصر الاولى للحياة ، هو حتى لدى الانسان الطبيعي مذكي الصلاة . ان باري الاشياء جميعا، اللامتناهية حكمته، قد جعل في طبيعة الانسان قدرة حب البقاء « كشاغل » تماما ، حسب

تعبير الآباء ، سيسمو بالكائن الانساني الساقط حتى ملامسة الاشياء السماوية . حبذا لو لم يكن الانسان قد انحدر بهذه القدرة ! ليته حافظ عليها في امتيازها وفقا لدعوته مع طبيعته الروحية ! اذن لكان لديه وسيلة ناجعة تقوده على طريق الكمال الروحي . ولكن وا أسفاه ! كثيرا ما يحول هذه القدرة النبيلة الى هوى اناني عندما يجعل منها اداة لطبيعته الحيوانية .

الستارتس : اشكركم من صميم القلب ، يا زائري الاعزاء . لقد كان لي حديثكم الخلاصي خير تعزيـة ، وعلمني انا قليل الخبرة الكثير من الاشياء المفيدة . فليهبكم الله نعمته جزاء محبتكم .

(يفترقون) .

القصة السابعة

السائح : لم نستطع ، صديقي التقي الاستاذ وانا ، ان نقاوم رغبة البدء في رحلتنا ، والقيام قبلها بزيارة قصيرة لك لنودعك ونطلب منك ان تصلي من اجلنا .

الاستاذ : نعم ، كان في الاجتماع اليك خير كبير لنـــا ، وكذلك كان في الاحاديث الروحية التي افدنا منها عندك بصحبة اصدقائك . سنحفظ في قلبنا ذكرى هذا كله كعربون صداقة ومحبة مسيحية في ذلك البلد البعيد الذي نحث الخطى نحوه .

الستارتس : اشكركما لتفكيركمـــا في . ومـــا انسب وقت وصولكما ! ان عندي مسافرين ، راهبا مولدافيا وناسكا عاش في الصمت خمس وعشرين سنة في قلب الغابة . وهما يريدان رؤيتكما . سأناديهما حالا . ها هما آتيان .

السائح : آه ! ان الحياة في العزلة لبركة حقا ! وما انسبهـــا للسير بالنفس الى الاتحاد الدائم بالله ! ان الغابة الصامتة شبيهة بجنة عدن تنمو فيها شجرة الحياة في قلب المتوحد . اعتقد انه لـــو كان ذلك في وسعي لما ردني شيء عن ممارسة الحياة النسكية !

الاستاذ : كل شيء ، اذا ما نظرنا اليه من بعيد ، يبدو لنـــا شهيا . لكننا نتعلم بالخبرة ان لكل حال ، على حسناتها ، مساوىء

ايضا . لا شك في ان حياة **التوحد** ، لمن كان سوداوي المزاج ، وميالا الى الصمت هي تعزية ، ولكن ما اكثر المخاطر على هذه الطريق ! وتاريخ حياة الزهد يعطينا الامثلة الكثيرة التي تبين ان متوحدين ونساكا عديدين ، قد نبذوا كليا صحبة الناس ، كانوا ضحايا الاوهام والمغريات الخطيرة .

الناسك : يدهشني ان يسمع في روسيا ، سواء في الاديرة او بين العلمانيين خائفي الله ، ان الكثيرين ممن يرغبون في حياة النسك او في ممارسة الصلاة الداخلية يصرفهم الوهم عن هذا الميل خشية المغريات . وهذا، في رأيي متأت عن سببين: اما عدم فهم المهمة الواجب انجازها ، ونقص في الثقافة الروحية ، واما لامبالاتنا الخاصة للانجاز التأملي والخوف الغيور من ان يتقدم علينا آخرون ، نعتبرهم دوننا مستوى ، في هذه المعرفة السامية . ومن المؤسف جدا ان الذين لديهم هذه القناعة لا يدرسون تعليم الآباء القديسين في هذا الموضوع . فان الآباء ، في الواقع ، يعلمون ملحين ان على المرء الا يخاف ولا يشك عندما يدعو الله . ولئن كان البعض حقا ضحايا اوهام ، فالسبب في هذا كان التكبر او عدم وجود اب روحي ، او اخذ المظاهر والخيال مأخذ الحقيقة . ويقول الآباء بدقة انه اذا ما حلت فترة امتحان كهذه فيجب ان تقود الى اختبار اشد وعيا والى اكليل المجد ، اذ ان الله يسرع في النجدة عندما يسمح بمثل هذا .

كونوا شجعانا . يقول يسوع المسيح : « انا معكم فلا تخافوا ابدا » . ولذا كان من الباطل ان نخشى ونتخوف على الصلاة الداخلية بذريعة ان هناك خطر التوهم . اذ ان وعيا متواضعا للخطايا ، وصدق الروح ازاء الاب الروحي وغياب التصورات من الصلاة ، كل هذه تشكل دفاعا قويا حصينا ضد هذه الاوهام التي يخافها الكثيرون خوفا شديدا حتى انهم لا يتجرأون على خوض غمار النشاط الروحي . ومن جهة ثانية ، فان هؤلاء الناس معرضون للتجربة ، كما تبينه هذه الكلمات الحكيمة التي قالها

فيلوثاوس السينائي : « **هنالك** رهبان كثيرون لا يفهمون توهمهم العقلي الخاص ويحتملون كونهم في ايدي الشياطين — اي انهم يكرسون النفس جادين لشكل واحد من اشكال النشاط : اعمال البر الخارجية — اما النشاط الروحي ، اي التأمل الداخلي ، فهم لا يعنون به قط ، لانهم في هذا الموضوع غير مثقفين وجهالا » . ويقول ايضا القديس غريغوريوس السينائي : « فحتى لو سمعوا آخرين يقولون ان النعمة تحولهم داخليا ، لا يرون في هذا — حسدا — الا وهما » .

الاستاذ : اسمح لي ان اطرح عليك سؤالا : ان وعي الخطايا — لا شك — يحصل لكل من كان منتبها الى ذاته . ولكن ما العمل عندما لا يكون لنا اب روحي قادر على الارشاد، حسب خبرته الخاصة في سبيل الحياة الداخلية ، عندما نفتح له قلبنا ، وعلى تلقيننا معرفة صحيحة جديرة بالثقة حول الحياة الروحية ؟ في هذه الحال ، لا شك انه يكون من الافضل عدم المباشرة في التأمل بدل الشروع في تجربته بوسائلنا الخاصة ، من غير دليل ؟ اضف انه ، فيما يخصني ، لا افهم بسهولة كيف يمكن ، ان صار الانسان في حضرة الله ، ان يحافظ على غياب تام للتخيلات . ليس هذا طبيعيا ، اذ ان نفسنا او عاقلتنا لا يمكنها تصور شيء يكون بلا شكل ، في فراغ مطلق . ولماذا حقا ، لا يتوجب علينا ، حين تكون النفس مستغرقة في الله ، ان نتصور يسوع المسيح او الثالوث القدوس وهلم جرا ؟

الناسك : ان نصائح اب روحي او ستارتس مجرب في الامور الروحية ، يمكن للمرء ان يفتح له القلب كل يوم بلا تحفظ ، بثقة ومنفعة ، وان يبوح بافكاره وكل ما لاقاه على درب التثقف الداخلي ، هو الشرط الاولي لممارسة صلاة القلب عندما يكون المرء قد شرع في سلوك طريق الصمت . غير انه ، في الاحوال حيث يستحيل وجدان مرشد ، يرى الآباء الذين رسموا هذه الطريقة حالة استثنائية . يعطي نيكفورس الراهب بهذا الصدد ارشادات

دقيقة ، هكذا : « اثناء ممارسة نشـــاط القلب الداخلي ، لا بد من وجود اب روحي اصيل ومجرب . وان كنت لا تعرف ابا هذه صفته فينبغي لك البحث عنه بجد . ولكنك ان لم تجده ، فتوسل بانسحاق قلب عون الله وانهل التعاليم والنصائح في وصايـــا الآباء الابرار ، وتثبت منها بمقارنتها بكلام الله الوارد في الكتاب المقدس » .

يجب ايضا ان يؤخـــذ بعين الاعتبـــار هـــذا الامـــر : ان الباحث الحسن النيـــة والمفعـــم غيرة يمكنـــه الحصـــول عـــلى معلـــومات مفيـــدة من قبـــل انـــاس عـــاديين . اذ ان الآبـــاء الابـــرار يؤكـــدون لنـــا انـــه اذا استعلمنـــا ، حتـــى لـــدى كافر ، بايمان ، وبقصد شريف ، فقد يقول لنا كلاما فيـــه فائدة . وبالمقابل ، ان نحن طلبنا النصح من نبي ولكن بلا ايمان وبلا قصـــد شريف ، فلن يكون في وسع النبي ذاته ان يجيبنا على طلبنا . ولنا مثال عن هذا في قصة مكاريوس الكبير المصري ، الذي اعطاه ، ذات يوم ، فلاح بسيط تفسيرا وضع حدا لياسه .

اما فيما يتصل بغياب الصور ـــ اي عدم استعمال المخيلة وعدم قبول رؤيا اثناء التأمل سواء كانت نورا او ملاكا او المسيح او ايا من القديسين ، والانصراف عن كل بحران في احلام اليقظة ـــ فان هذا ، طبعا ، اوصى به الآباء المجربون للسبب الآتي : ان للمخيلة القدرة على ان تجسد بسهولة ، او قل تعطي الحياة للتصورات الذهنية ، بحيث ان قليلي الخبرة من الناس قد تجتذبهم هذه التخيلات بسهولة ، ويحسبونها رؤيا النعمة . فيقعون بذا في الوهم ، من غير اعتبـــار لتحذيرات الكتاب المقدس الذي يقول ان ابليس ذاته يمكنه ان يتخذ شكل ملاك نور . ان يستطيع العقل بالطبع وبسهولة ان يكـــون في حالة انعدام الصور وان يبقى في هذه الحالة ، امر نراه جيدا مـــا دامت قوة المخيلة قادرة على تصوير شيء بصورة محسوسة في هذا الفراغ ، فتعطي هذا التصور قواما ظاهرا . كمثل تصوير النفس او الهواء او الحرارة او البرودة . عندما تكون بردان ، يمكنك ان تكون

(بتشديد الواو وكسرها) ذهنيا فكرة حية عن الحرارة ، بالرغم من انه ليس للحرارة حد ، وانها لا يمكن ان تكون موضوع رؤية وانها لا تقاس بالاحساس المادي للانسان المعرض للبرد . وكذلك ايضا الحضور الروحي ، والذي يستعصي فهمه ، لله : يمكن ان يعرفه العقل ويتحقق القلب من هويته في فراغ من الاشكال مطلق .

السائح : خلال الاسفار ، التقيت اناسا اتقياء يسعون الى الخلاص قالوا لي انهم يخشون الحياة الداخلية ، التي وصفوها كوهم محض . قرأت لكثيرين منهم ، مما كان فيه بعض الفائدة ، تعليم القديس غريغوريوس السينائي في الفيلوكاليا . قال ان « عمل القلب لا يمكن ان يكون وهما (على نقيض عمل العقل) ، اذ لو اراد الشرير تحويل حرارة القلب الى ناره المتأججة ، او تبديل فرح القلب بالمتع الخابية للقلب ، فان الزمن والتجربة والشعور ذاته ، كلها ستكشف قناع حيلته ومخادعته ، حتى للذين لم يصبوا علما كثيرا » . وقد اتفق لي ان التقيت آخرين كانوا ، للأسف الشديد ، بعد ان عرفوا طريق الصمت وصلاة القلب ، قد اصطدموا بعقبة ما ، او بضعف ذميم فاستسلموا للتخاذل وتخلوا عن العمل الداخلي للقلب ، وقد كانوا عرفوه .

الاستاذ : نعم ، وهذا امر طبيعي جدا . فلقد شعرت شخصيا ، في بعض الاحيان ، بالشيء عينه في احدى المناسبات حينما فقدت توازني الداخلي او ارتكبت هفوة ما . اذ ان الصلاة الداخلية ما دامت شيئا مقدسا ، اتحادا بالله ، اوليس انتهاكا لحرمة ، او ليس تجرؤا يجب تحاشيه ، ان نأتي بشيء مقدس لنضعه في قلب لوثته الخطيئة ، من غير ان يسبق لنا تطهيره بندامة وانسحاق قلب صامت او من غير استعداد مناسب للعودة الى الله ؟ الافضل ان نكون صامتين بين يدي الله من ان نرفع اليه تعالى كلمات مهملة تصدر من قلب غارق في الظلمات والهيجان .

الراهب : من المؤسف جدا ان تفكر هكذا . انه تثبيط للعزائم ،

اي اسوأ الخطايا ، والسلاح الرئيسي في يد عالم الظلمات ضدنا . وتعليم الآباء المجربين ، بهذا الصدد ، مخالف جدا . يقول نيسيتاس ستيثاتوس انك حتى لو سقطت وغرقت في اعماق الشر الشيطانية ، حتى عندئذ يجب الا تيأس ، بل ان تتجه بسرعة نحو الله ، وهو تعالى ينهض قلبك سريعا من عثاره ويعطيك من القوة اكثر مما كان لك من ذي قبل . يجب ، بعد كل سقطة وكل جرح قلب بالخطيئة ، ان يضع الانسان حالا قلبه في حضرة الله لكيما يشفيه ويطهره . تماما كالاشياء العفنة ، ان نحن عرضناها بعض الوقت لقوة اشعة الشمس ، فقدت حدة التعفن . كتاب دينيون كثيرون يبدون رأيهم بصورة قاطعة حول هذا النزاع الداخلي ضد اعداء الخلاص الذين هم اهوائنا . فحتى لو جرحت الف مرة ، لا ينبغي لك باية صورة ان تتخلى عن النشاط المعطي الحياة ، والذي هو ذكر يسوع المسيح الحاضر في القلب . وخطايانا ، ليس انها يجب الا تصرفنا عن السير في حضرة الله والقيام بالصلاة الداخلية وحسب ، اذ لن يكون وقتها فينا سوى القلق والخيبة والحزن ، بل يجب ، بالضد ، ان تسوقنا الى الالتفات حالا نحو الله . كالطفل تقوده امه ، عندما يبدأ بالمشي ، يلتفت سريعا نحوها ويتشبث بها حين يشرف على الوقوع .

الناسك : انا ، من جهتي ، اعتبر ان ضعف العزيمة والافكار المقلقة والشكوك يوقظها بسهولة كبرى شرود الذهن والعجز عن صيانة صمت كياننا الداخلي . ان الآباء القدامى ، في حكمتهم الالهية ، قد انتصروا على عزيمة تخور وتلقوا الاستنارة والقوة برجاء بالله لا يتزعزع ، بالصمت الهادىء والوحدة ، واعطونا هذه النصيحة السديدة الثمينة : « اقعد بصمت في قلايتك وستعلمك كل شيء » .

الاستاذ : ان ثقتي بك كبيرة بحيث يسعدني جدا ان استمع الى نقدك لآرائي حول الصمت ، الذي تمتدحه مدحا كثيرا ، وحول محاسن حياة التوحد التي يقدرها الناسك تقديرا . ولكن اليك

ما افكر : ما دام كل الناس ، بحكم ناموس الطبيعة التي اعطاهـا الباري تعالى ، في وضع التعلق الضروري بعضهم ببعض ، وعليهم ، منذئذ ، ان يتعاونوا في الحياة ، ان يعمل بعضهـم لبعض ويتبادلوا الخدمات ، فان هذه الروح الاجتماعية تساهم في هناء الجنس البشري وتبرز حب القريب . لكن الناسـك الصامت الذي اعتـزل المجتمع الانساني ، كيف يمكنه ، في عدم نشاطه ، ان يخدم القريب ؟ وما حظه من المساهمة في تحقيق رفاه المجتمع الانساني ؟ انه يهدم كليا في ذاته ناموس الخالق هذا الذي يقتضي اتحاد البشرية في المحبة والعمل الخير من اجل اخوة (بتشديد الواو) كلية .

الناسك : لديك فكرة خاطئة عن الصمت ، والنتائج التي تنتهي اليها ليست صائبة . فلنر ذلك تفصيلا :

١ ــ ان الانسان الذي يعيش في صمت الوحـدة ، ليس انه لا يحيا بلا عمل وفي خمول وحسب ، بل هو نشيط الى اعلى درجة ، حتى اكثر ممن ينخرط في حياة المجتمع . هو يعمـل بلا ملل حسب اعلى درجات ذكائه . انه يسهر ، انه يتأمل ، انه يركز انتباهه على حالة روحه وتقدمها ، وهذا هو الهدف الحق للصمت . وبمقدار ما يؤاتي هذا الوضع سيره الخاص نحو الكمال ، فهـو يفيـد الذين لا يستطيعون ممارسة التركيز الداخلي لتطوير حياتهم الروحية . اذ ان الذي يسهر بصمت ويبلغ اختباراته الداخلية اما كلاما (في حالات استثنائية) واما بتدوينها كتابة ، يساعد لما فيه خير اخوته الروحي وخلاصهم . هو يفعل اكثر ، وعلى مستوى اعلى من المحسن العادي ، اذ ان الاحسان العاطفي البسيط ، في العالم ، محدود ، يحده العدد القليل من الاحسانات الممنوحة . اما الذي يهب احسانات باختباره داخليا وسائل مقنعة للنجاز الروحي فهو يصبح المحسن الى شعوب باسرها . وينتقل تعليمه وخبرته من جيل الى جيل ؛ كما نرى بأنفسنا ، وقد افدنا من تعاليم وخبرة ترقـى الى الازمنة الماضية حتى يومنـا الحاضر . وهـذا لا يختلف بشيء عن المحبة

المسيحية ، بل يفوقها من حيث النتائج .

٢ ــ ان الاثر الثمين الخير يؤثره الانسان المعاني الصمت في قريبه لا يتجلى بتبليغه ملاحظاته عن الحياة الداخليـــة وحسب ، بل بالمثل الصالح ايضا واشعاع حياته الذي قد يوقظ الدنيويين عـــلى معرفة ذاتهم فيولد فيهم شعورا بالاحترام . ان الانسان الذي يعيش في العالم والذي يسمع حديثا عن متوحـــد ورع ، او يمر امام باب منسكه ، يحس بنداء الى الحياة الروحية ، ويتذكر ما يمكن ان يكون الانسان على الارض ، وان باستطاعته الرجوع الى تلك الحالـــة التأملية الاصيلة التي خرج فيها من يدي الباري تعالى . ان الصامت يعلم (بتشديد اللام وكسرها) حتى بصمته . وبحياته الخاصـــة يصنع الخير ويهدي ويقنع بالسعي الى الله .

يتغنى القديس اسحق السرياني بأهميـــة الصمت قائلا : « ان وضعنا في كفة اعمال الحياة الارضية ، وفي الكفة الثانية الصمت ، لوجدنا ان هذه الكفة هي الراجحـــة . لا تعتبـــروا متساوين الذين يجترحون المعجزات والعجائب في العالـــم والذين يصمتـــون بملء ارادتهم . احبوا الصمت اكثر من شبع الجائعين الى هذا العالم . لأن تتحرروا من قيود الخطيئة افضل لكم من ان تعتقوا عبيـــدا من عبوديتهم » . ولقد اعتـــرف بقيمـــة الصمت حتى الحكمـــاء غير المسيحيين . جعلت مدرســـة الافلاطونيين المحدثين ، التي ضمـــت اتباعا كثيرين كان افلوطين معلمهم ، جعلت لتطور الحيـــاة التأملية مقاما رفيعا ، ويوصل اليها بصورة اخص عن طريق الصمت . قال احد الكتاب الدينيين ان الدولة ، لو بلغت اعلى الدرجات في كمـــال الاخلاق والتربية ، فلا تزال ثمة حاجة الى وجدان اناس للتأمل ، بغض النظر عن نشاطات المواطنين الاعتيادية ، وذلك لكي يصان روح الحق ، ولكي ننقله الى الاجيال الآتية وقد تلقيناه من القرون الماضية . هؤلاء الناس ، في الكنيسة ، هم النســـاك والمتوحدون والزهاد .

السائح : اظن انه لم يمتدح احد فضيلة الصمت بمثل الاصالة التي امتدحها بها القديس يوحنا السلمي . قال : « ان الصمت ام الصلاة ، عودة من الخطيئة ، والتقدم الخفي في طريق الفضيلة ، وصعود مستمر نحو السماء » . اجل ! ويسوع ذاته ، حتى يرينا فضل الانزواء في الصمت ، وضرورته كثيرا ما ترك تبشيره العام وذهب الى اماكن منعزلة كي يصلي فيها ويستريح . ان الذين يتأملون صامتين يشبهون الاعمدة التي تدعم الكنيسة بصلاتهم الصامتة والمتواصلة . منذ الماضي السحيق الغابر ونحن نرى ان كثيرين من العلمانيين الورعين ، وحتى من الملوك ورجال حاشيتهم ، يزورون نساكا ورجالا يعيشون بصمت لكيما يطلبوا منهم صلواتهم حتى يتقووا ويخلصوا . وهكذا يمكن للمتوحد الصامت ان يخدم قريبه ويعمل لما فيه خير الجماعة وسعادتها بالصلاة في العزلة .

الاستاذ : هذه ايضا فكرة يصعب علي فهمها . انها عادة منتشرة بصورة عامة لدى المسيحيين جميعا ان يطلب واحدنا من الآخر ان يصلي لأجله . ان اريد ان يصلي غيري من اجلي وان يكون لنا ثقة خاصة بأحد اعضاء الكنيسة ، اليس هذا مجرد طلب يطلبه المرء حبا بذاته ؟ أوليس الامر ايضا اننا قد تعودنا ان نقول ما سمعنا غيرنا يقوله ؟ اليس هذا كنزوة لا تقوم على اي اساس رصين ؟ هل يحتاج الله الى شفاعة البشر ما دام تعالى يتدارك كل شيء ويتصرف وفق عنايته الفائقة القداسة لا وفق رغبتنا ، عالما بكل شيء ، يقرره من قبل ان نطلبه ، كما يقول الانجيل المقدس ؟ امن الممكن ان تكون صلاة كثيرين اقوى ، لترجح قراراته تعالى ، من صلاة شخص واحد ؟ في هذه الحالة يكون الله محابيا للوجوه . هل يمكن لصلوات انسان غيري ان تخلصني حقا في حين ان كل انسان يمدح او يلام تبعا لأعماله الشخصية ؟ لهذا كان طلب الصلوات من شخص آخر ، في رأيي ، مجرد تعبير عن التأدب الروحي ، وهو يشمل مظاهر التواضع والرغبة في نيل الرضى بطلب الصلاة المتبادل ، ليس الا .

الراهب : ان نحن لم نأخذ بعين الاعتبار الا المظاهر الخارجية ، وكانت فلسفتنا بدائية فقد يجوز ان نرى الامر هكذا . لكن الرشاد الروحي ، الذي قدسه نور الوحي وعمقته اختبارات الحياة الروحية يرى ما هو ابعد ، ويميز بصورة اعمق ويبين سريا شيئا يختلف جدا عما عرضت . ولكي نتمكن من فهم الامر بصورة اسرع واوضح ، فلنأخذ مثالا ، ولنتحقق بعدئذ من صحته بعرضه على محك كلام الله . فلنفرض ان تلميذا اتى الى معلم مدرسة ليتعلم . تحول امكانياته الضعيفة ، ويحول — اكثر — كسله وعدم تركيزه دون نجاحه في دروسه ، مما جعل تصنيفه في فئة الكسالى ، فئة الذين لا يحرزون اي تقدم . لا يدري هذا التلميذ ما ينبغي عمله ، وقد تأثر شديدا بفشله المتكرر ، ولا كيف يحارب نواقصه . عندئذ يلتقي تلميذا ثانيا ، احد رفاق صفه ، وهو اذكى منه واكثر اجتهادا ، ناجحا في دراسته اكثر ، ويعرض له متاعبه . فيهتم هذا له ويعرض عليه العمل معه قائلا : « فلنعمل معا ، سيكون اجتهادنا اكبر ، وفرحنا اشد ، وسنحصل على نتائج افضل » . فيأخذان في الدراسة معا وكل منهما يطلع الآخر على ما يفهمه . وعملهما واحد . ماذا يحدث بعد حين ؟ اصبح اللامبالي مجتهدا . واخذ يحب عمله ، وتبدل اهماله اندفاعا ، وتفتح ذهنه ، مما كان له افضل الاثر في ارادته وسلوكه . اما الذي كان اذكى ، فقد بات هو الآخر اقدر واشد اجتهادا . بهذا التأثير المتبادل احرز فوائد مشتركة .

وهذا امر جد طبيعي ، فان الانسان ولد (بضم الواو) اجتماعيا . وهو انما ينمي ذكاءه ويحسن اخلاقه وثقافته وارادته بواسطة الآخرين . وبكلام موجز ، انه يتلقى كل شيء من تواصله بالآخرين . فما دامت حياة الناس تقوم على صلات وثيقة جدا وعلى تأثيرات قوية جدا للبعض في بعض ، فان الذي يعايش فئة من الناس يشترك في عاداتهم وتصرفهم واخلاقهم . فيصبح الفائزون ذوي حمية ، ويحتد ذكاء الاغبياء ، وينساق الخاملون الى

النشاط بفعل الاهتمام البالغ الذين يولونه محيطهم . ان بامكان الروح ان تبذل للروح ، ان تفعل ايجابيا في روح ثانية ، ان تجتذبها الى الصلاة والتيقظ . يمكن لها ان تقويها اذا ما تخاذلت ، وان تصرفها عن الرذيلة ، وان تفتح عينيها على القداسة . وهكذا يصبح الناس بالتعاضد اشد ورعا وانشط روحيا واكثر تواضعا . هذا هو سر الصلاة من اجل الآخرين . وهو يفسر عادة المسيحيين الصالحة للصلاة بعضهم من اجل بعض وطلب الانسان صلوات اخوته .

ان هذا يسمح لنا بان نرى لا انها ترضي الله كما ترضي الالتماسات والوساطات الكثيرة ذوي السلطان العالمي ، بل ان الصلاة ، بجوهرها وقدرتها ، تطهر روح الذي قدمت من اجله وتسمو بها ، وتهيئها للاتحاد بالله . وان كانت الصلاة المتبادلة ، يرفعها الذين يعيشون على الارض ، شديدة النفع الى هذا الحد ، فيمكننا ان نستنتج من هذا قياسا ان الصلاة من اجل المتوفين ذات نفع متبادل ايضا ، بحكم الروابط الوثيقة جدا التي تجمع ما بين عالمنا وعالم السماء . وهكذا يمكن لاعضاء الكنيسة الارضية ان يتحدوا باعضاء الكنيسة السماوية ، او — والامران واحد — يمكن للاحياء ان يتحدوا بالموتى في وحدة الكنيسة .

ان كل ما قلته لتوي برهنة سيكولوجية ، ولكن حسبنا ان نفتح الكتاب المقدس حتى نتحقق من صوابه :

١ — يقول يسوع المسيح الى بطرس الرسول : « صليت من اجلك لكي لا يفنى ايمانك » . ترى هنا ان صلاة السيد المسيح ، بما لها من قدرة ، تشدد روح القديس بطرس وعزمه وتشجعه حينما يتعرض ايمانه للامتحان .

٢ — عندما كان بطرس الرسول في السجن ، « كانت الكنيسة تصير منها صلاة بلجاجة الى الله من اجله » (اعمال ١٢ : ٥) . يوضح لنا هذا مدى العون الذي تسديه الصلاة الاخوية في الشدائد والضيقات .

٣ ــ لكن اوضح وصية في الصلاة من اجل الآخرين يعطيها القديس يعقوب الرسول : « اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لاجل بعض لكي تشفوا . طلبة البار تقتدر كثيرا في فعلها » . (يعقوب ٥ : ١٦) . هذا هو الاثبات الواضح للحجج السيكولوجية التي سبق عرضها . وماذا نقول في مثال القديس بولس الرسول ؟ يلاحظ احد الكتاب ان مثله يجب ان يعلمنا ما اشد الحاجة الى الصلوات المتبادلة ، ما دام احد بهذه القداسة وهذه القوة يعترف بنفسه انه بحاجة الى هذا العون الروحي . اليك كيف يصوغ طلبه في الرسالة الى العبرانيين : « صلوا من اجلنا فان لنا ثقة بان ضميرنا صالح ، وانا نرغب ان نحسن التصرف في كل شيء » (عبر ١٣ : ١٨) .

اذا ما اعتبرنا هذا ، فما اشد ما يبدو لنا من غير المعقول ان نعتمد على صلواتنا وحدها ، في حين ان انسانا بهذه القداسة ، قد حظي بالنعمة هكذا ، يطلب في تواضعه ، ان تقترن صلوات القريب ــ وهو هنا العبرانيون ــ بصلواته . ولهذا كان علينا ــ من قبيل التواضع وشركة المحبة ــ الا نرفض او نستهين بالصلوات التي تأتي حتى من اضعف الناس ايمانا ، في حين ان الرسول بولس المستنير لم يبد اي تردد بهذا الصدد . انه يطلب صلوات الجميع على وجه العموم ، عالما ان قوة الله بالضعف تكمل ، وتكمل بالمحبة . وقد تجد كمالها ــ احيانا ــ لدى الذين يبدون غير قادرين الا على الصلاة بضعف . واذا استوعبنا قوة هذا المثال نلاحظ ايضا ان الصلاة المتبادلة تشدد وحدة المحبة المسيحية تلك التي يأمر بها الله ، وانها تشهد بالتواضع الروحي للذي يقدم الطلب ، وانها تسوق ــ ان جاز القول ــ الذي يصلي . هذا ما يشجع الشفاعة المتبادلة .

الاستاذ : تحليلك وبراهينك رائعة وصحيحة ، لكنه يكون من الشيق لو اطلعتنا على طريقة الصلاة من اجل الآخرين وعلى

شكلها . ان كان خصب هذه الصلاة نتيجة اهتمامنا الحثيث بقربينا ونتيجة التأثير المستمر بنفس الذي يصلي في نفس الذي طلب الصلاة، افلا يخشى ان تكون هذه الحالة النفسية سببا في الهاء الذهن عن حضور الله اللامنقطع وعن بوح النفس بخلجاتها بين يديه تعالى ؟ اذا فكرنا في قريبنا مرة او مرتين في اليوم برحمة ، طالبين له معونة الله ، افلا يكون هذا كافيا للتأثير في روحه وتقويتهـــا ؟ بودي ـــ باختصار ـــ لو اعرف بالضبط كيف اصلي من اجل الآخرين .

الراهب : ان الصلاة نرفعها لله لاي سبب كان لا ينبغي لها ، ولا يمكن لها ان تبعدنا عن حضرة الله ، اذ انها حين ترفع لله ، يجب ان يكون هذا ـــ بداهة ـــ في حضرته تعالى . اما بالنسبة للطريقة ، فعلينا ان نلاحظ ان ما لهذه الصلاة من قدرة يكمن في عطف المسيحي الحق على قريبه ، وانها لا تؤثر في نفسه الا في حدود هذا العطف وحسب . ولذا ، فان اتفق لنا ان نتذكر قريبنا ، او في الوقت المحدد لهذا التذكر ، يكون من المناسب ان نستدعي حضـــوره الى حضرة الله ، وان نرفع الصلاة بهذه العبارات : « ايها الاله الرحيم ، فلتكن مشيئتك التي تريد ان يخلص الناس اجمعون وان يبلغـــوا معرفـــة الحق ، خلص وارحم عبدك (فلان) . اعتبر اللهم هذه الرغبة التي اعبر عنها نداء حب امرت (بفتح الميم والتاء) به » .

في الاحوال العادية ، عليك بتكرار هذه الصلاة كلما شعرت نفسك بالرغبة فيها ، او يمكنك تلاوتها على سبحتـــك . علمتني التجربة انها جزيلة الفائدة للذين ترفع من اجلهم .

الاستاذ : ان آراءك وحججك والحديث الهادىء والافكار التي يستثيرها ، هذه كلها على قيمة تجعلني اشعر بضرورة حفظها في الذاكرة كذخر ثمين ، وبواجب التعبير لك عن جزيل الاحترام وشكر القلب العارف بجميل فضلك .

السائح والاستاذ : آن اوان الرحيل . من صميم القلب نطلب صلواتك من اجل رحلتنا وصداقتنا .

الستارتس : فليجعل اله السلام ، الذي اعاد من بين الاموات راعي الخراف العظيم بدم العهد الابدي ربنا يسوع المسيح ، ليجعلكما قادرين على كل عمل صالح حتى تعملا بمشيئته ما حسن لديه بيسوع المسيح الذي له المجد الى دهـــر الداهرين . آمين . (عبر ١٣ : ٢٠ — ٢١) .

Imprimerie Moderne Kreim
مطابع الكريم الحديثة